تأليف
مُدرّسون في المعهد الفرنسي لعلم الحرب

الحروب والحضارات

اصدار
المؤسّسة الفرنسيّة لدراسات الدّفاع الوطني

ترجمة
أحمد عبد الكريم



ريع الدار لصالح
مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري



دمشق أوتوستراد المزة ص. ب: ١٦٠٣٥ ـ برقياً طلاسدار

هاتف: ٢٤٤١٢٦ ـ ٢٤٣٩٥١ ـ ٢١٣٨٢١ تلكس: ٤١٢٠٥٠

الحروب والحضارات

الطبعة الثالثة ـ ١٩٩٢

تأليف

مدرسون في المعهد الفرنسي لعلم الحرب

الحروب والحضارات

إصدار

المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني

ترجمة

أحمد عبد الكريم

ــ مقدمة الطبعة الثالثة ــ

القراءة الثالثة لكتاب « الحروب والحضارات » تلفت النظر إلى مدى موضوعيته، ودقة تحليلاته، وغزارة معلوماته، وصحة توقعاته، ذلك لأنه « احدى المحاولات الجادة من نوعها في العالم » التي تسهم في تسليط الضوء على « علم الحرب » وغايته احصاء النزاعات المتنوعة المحلية والاقليمية والدولية التي عرفتها البشرية منذ أقدم العصور حتى الآن، واستقراؤها وتحليلها بشكل علمي وموضوعي لمعرفة جذورها وأهدافها الحقيقية ونتائجها الفعلية وآثارها على تاريخ الانسانية ومصير الحضارات. واستناداً الى المبادىء والأسس والدروس المستخلصة، الانتقال إلى مرحلة متقدمة وهي حصر النزاعات الراهنة وبذور النزاعات المحتملة، وتحليلها وتحديد نسبة خطر كل منها ثم تصنيفها حسب درجة خطورتها، بهدف احتوائها والتعرف على الشروط الممكنة لوضع الحلول السلمية المناسبة لتجنبها، قبل انفجارها إن أمكن.

وهذه المهمة تعتبر في مقدمة المهمات الجوهرية للمجتمع الدولي وخاصة هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن.

وهكذا يبدو أن « علم الحرب » لا يهدف إلى مناقشة العلوم الفنية العسكرية والستراتيجية في جميع مستوياتها، بل هو نقيضها تماماً لأنه يهدف إلى تقصي جذور النزاعات من أجل حلها سلمياً وتقليص احتمالات الحرب إلى أقصى درجة ممكنة، وإن أمكن إلغائها تدريجياً.

ولعل من أهم ما يلفت النظر في كتاب الحروب والحضارات ـــ الذي يعاد طبعه الآن للمرة الثالثة ـــ هو مدى موضوعيته ودقة تحاليله وصحة التوقعات التي تنبأ بها خلال العقدين الأخيرين من هذا القرن.

فقد أكد على أن أخطر ما تواجهه البشرية في الفترة الباقية من القرن العشرين هو:

التحدي النووي، والتفجر السكاني، ويقظة النزاعات الدينية والقومية والعرقية. كما أشار إلى الأماكن الأكثر تعرضاً لأخطار الحرب الواقعة وسط القارة الآسيوية، والشرق الأوسط، وشواطىء المحيط الهندي.

ومن الغريب أن اشتداد الحرب الباردة بين العملاقين فيما مضى ونشر الصواريخ النووية في القارة الأوربية على جانبي الخط الفاصل بين حلفي وارسو والأطلسي، لم تحول أنظار خبراء الستراتيجية عن منطقة الشرق الأوسط، بل ضاعف اهتمامهم حينما وضعوها في مقدمة المناطق المتفجرة في العالم، ليس بسبب الصراع العربي الاسرائيلي، بل بسبب « البترول » .. وأكدوا أن الحرب العالمية ستنفجر بسببه، إذا شعرت الولايات المتحدة

خاصة وبعض البلدان الصناعية أنه قد يفلت من قبضتها المباشرة. وهذا ما حصل فعلاًخلال حربي الخليج الأولى والثانية بين ١٩٨٠ و ١٩٩١.

ومما يسترعي الانتباه أيضاً أن صدور هذه الدراسة الجادة في نهاية السبعينات، كان بعد فترة كافية من حرب تشرين التحريرية (اكتوبر)، وانتهاء « أزمة الطاقة » ونشوب الحرب الأهلية في لبنان وتوقيع الصلح المنفرد بين مصر واسرائيل، وسقوط الشاه في إيران على يد الثورة الشعبية الاسلامية الخمينية.

ومع ذلك فإن الدراسة لم تعط هذه التغييرات كامل حقها من الاهتمام، وبخاصة النتائج التي ترتبت على حرب تشرين، والتي اطاحت بأسطورة اسرائيل واحدثت فراغاً، أشبه بالفراغ الذي نشأ في عام ١٩٥٦ بسبب فشل حرب السويس وكنس النفوذ البريطاني والفرنسي من المنطقة.

لقد تلت حرب تشرين أحداث خطيرة في المنطقة أهمها الحرب العراقية ــ الايرانية، واحتدام النزاعات العربية ــ العربية، فحاولت اسرائيل استغلالها لاستعادة سمعتها، فكان غزو لبنان عام ١٩٨٢ الذي سجل فشلاً جديداً لاسرائيل واثبت عجزها عن « ملء الفراغ » فاستنجدت بحلف الأطلسي، الذي لم يكن مستعداً ــ كما يبدو ــ لهذه المهمة، ولم تكن الظروف الدولية ملائمة بسبب وجود الاتحاد السوفييتي وحلف وارسو آنذاك.

وفي نهاية الثمانينات، ظهرت مؤشرات التصدع في حلف وارسو،

وبوادر الضعف في القلعة السوفييتية نفسها، فتوفرت الظروف للانفراج الدولي؛ فكان انسحاب السوفييت من افغانستان، وانتهاء الحرب العراقية الايرانية، وتسوية النزاعات المحلية في جنوب شرق آسيا؛ وامريكا الوسطى وافريقيا.

ومع بداية التسعينات انهارت الدولة السوفييتية وصُفّي حلف وارسو، وجاء غزو العراق للكويت ليعطي الفرصة الذهبية، للولايات المتحدة لتبادر بوضع يدها مباشرة على بترول الشرق الأوسط وعائداته، بعد أن اطمأنت الى زوال الخطر في اوربا وشرق آسيا وتراجع الحركات التحررية في امريكا اللاتينية وافريقيا، فكانت « عاصفة الصحراء » أو حرب الخليج الثانية، التي أعطي لها الطابع العالمي، فكانت بداية ساخنة للصراع بين الشمال والجنوب، ونقطة انطلاق نحو إقامة « النظام العالمي الجديد » الذي يكرس زعامة الولايات المتحدة الكونية.

ومما لاشك فيه أن التطورات العالمية في الثمانينات وبداية التسعينات، وخاصة منها زوال الاتحاد السوفييتي (قلعة الاشتراكية)، والتواجد العسكري القوي في الجزيرة العربية والخليج العربي والمحيط الهندي، سيكون لها أعظم الأثر على مستقبل العالم القريب وأن نهاية الحرب الباردة، ونشوب الحروب الدموية الدينية والقومية والعرقية في البلقان والجمهوريات السوفييتية القديمة، بالإضافة الى يقظة المشاعر الدينية والقومية في العالم، وتراجع الحماس للوحدة الأوربية، بعد عودة الوحدة الألمانية، أوجد ظروفاً معقدة

تحتاج إلى المزيد من الجهد لتطوير « علم الحرب » والتأمل في الأسس الأولية التي تضمنها كتاب « الحروب والحضارات » الذي تسعى « دار طلاس » للدراسات والترجمة والنشر مشكورة لاصدار الطبعة الثالثة منه ، (بعد نفاذ الطبعتين الأولى والثانية ــ وهذه حالة نادرة .. تدل على أهميته وتقدير الفئات المثقفة في العالم العربي) لما لهذه المحاولة العلمية الجديدة من أهمية في زمن أصبحت الحروب فيه تُهدد مصير الحضارة والبشرية بشكل جدي ، وأكدت بعض هذه الحروب عجزها عن حل المشاكل الجوهرية التي نشبت بسببها ، إذ لابد من تكاثف الجهود لإيجاد صيغ عادلة للعلاقات الدولية ، تدين اللجوء إلى العنف وتلغي الحروب كوسيلة لحل النزاعات الدولية والاقليمية .

(المعرب) أحمد عبد الكريم

دمشق ١٩٩٢/٧/٢٨

مقدمة المعرب

منذ أن فرغت من قراءة هذا الكتاب القيم ، أصبحت على قناعة تامة بأنه « فريد من نوعه » دقيق في تحاليله وصياغته ، يختصر الكثير من المعارف والمعلومات والاحصائيات والمعطيات التي يفترض بالمثقف العلم بها واستيعابها .. معتمدا الاسلوب العلمي الموضوعي « الجاف » في عرض النتائج التي أمكن الوصول اليها خلال سنوات طويلة من الدراسة والبحث ، مسجلا بالتصريح أو التلميح جميع المصادر والمراجع التاريخية والعلمية ومستشهدا ببعض أقوال كبار العلماء المختصين .

من هنا أصبحت تسيطر عليّ رغبة .. لم أستطع مقاومتها تدفعني لتكريس بعض وقتي من اجل نقل هذا الكتاب الفريد من نوعه الى العربية ، لاعتقادي ان المكتبة والمثقف العربي هما بأمس الحاجة اليه . ولانه يلخص محاولة جديدة جادة وعلمية ،

لوضع ظاهرة « الحرب » التي عرفتها البشرية منذ نشوء « الانسان » ، في اقدم العصور حتى يومنا هذا ، في اطارها الصحيح بين جملة النشاطات الانسانية . كيف لا وهي من أخطر واهم هذه الظواهر وأعظمها تأثيرا على تطور الحضارات البشرية وحياة الدول والمجتمعات والافراد .

لقد كتب الكثير عن « الحرب » ووضع المختصون العديد من الكتب والنظريات عن تاريخ الحروب الاستراتيجية والتكتيك ، والتسليح والتعبئة والتجنيد ، ولكن هذه المؤلفات لم تدع مرة انها « تحاول » اقامة « علم » جديد وانما تهدف الى دراسة تجارب الحروب القديمة والحديثة واستخلاص الدروس منها وصياغتها على شكل نظريات في الاستراتيجية ، والعمليات والتكتيك ، للاستفادة منها في الحروب القائمة والمقبلة ، وأخذ أعظم مردود ممكن من الذكاء والقوة الجسمانية الانسانية ومن المميزات الفنية للاسلحة والعتاد والوسائط المادية المختلفة ، بأقل ما يمكن من الخسارة ، بالارواح والثروات والوقت .

أما هذا الكتاب الذي نحن بصدد تعريبه فهو : محاولة موضوعية علمية بحتة لوضع أسس ثابتة لـ « علم الحرب » بنفس الاسلوب الذي وضعت فيه بقية العلوم الانسانية .. كعلم

الاجتماع ، وعلم النفس ، والعلوم البيولوجية ، وغيرها ..

وبالرغم من أنني لا أدعي القدرة بالحكم على مدى صحة الأسلوب. الذي اتبعه مركز البحوث الفرنسي الذي أصدر هذا الكتاب ، وبالرغم مما لاحظته فيه من تحيز ظاهر ، للحضارة الغربية ، واغفال قد يكون مقصوداً أحياناً ، ومصادفة احياناً أخرى ، إلا أنني أعتقد أن هذا الكتاب يستحق المطالعة الدقيقة والتوقف الطويل عند بعض النظريات والنتائج التي تضمنها خاصة فيما يتعلق .بالاحداث والنزاعات التي تسود بعض مناطق العالم في الوقت الحاضر ، والمخاطر التي تنتظر الانسانية في الفترة المتبقية من هذا القرن الذي نكاد نصل الى نهايته .

لقد حاول عدد من كبار الباحثين المعروفين في الأوساط العلمية والفكرية في فرنسا ، في هذا الكتاب دراسة وابراز التفاعلات بين الحضارات والحروب ، مستفيدين من الاساليب والمنجزات التي سارت عليها وحققتها العلوم الأخرى ، والمحاولات السابقة التي تمت في مجال « علم الحرب » ، واستطاعوا ان يطوروا الامور الاساسية التالية :

— الفترة الغامضة التي تبدأ من بدء الخليقة في عصور ما قبل التاريخ حتى عام ١٧٤٠ بعد الميلاد ، وهي أخطر الفترات

التي اختفت فيها الكثير من الحضارات ولم تخلف وراءها ما يكفي لمعرفة هويتها واعطاء فكرة ما عن مساهماتها في صنع الاسس الاولية للحضارات العالمية التالية .

كما طور الباحثون الفترة ما بين ١٧٤٠ و ١٩٧٩ المعروفة جيدا ، والتي لم تكن معروضة الا بخطواتها الكبرى ، وذلك بغرض استمرارية التطور التاريخي .
وحاول الباحثون دراسة الوضع النزاعي العالمي في مطلع عام ١٩٨٠ والمستقبل المتوقع للفترة الواقعة بين عام ١٩٨٠ وعام ٢٠٠٠ ، هذه الفترة التي تشغل اذهان المسؤولين والمفكرين في شتى انحاء العالم نظرا لما يحيط بها من اخطار وما تفتحت فيها من آفاق هائلة تحتشد فيها الآمال وتزحمها الاخطار والمخاوف ، بسبب ما توصل اليه الانسان من منجزات عظيمة جعلته قادرا على قهر الطبيعة ، بل ومكنته من امتلاك القدرة على ابادة الجنس البشري اذا أراد .

وتستخلص جماعة الباحثين من هذه الدراسة :

ان جميع الحضارات البائدة دمرتها الحروب ، وكانت قبل ذلك تتعايش معها بود واستمرار .

وان الحرب هي بنفس الوقت « ابنة » قاتلة ومرضعة للحضارة لا تعق ...

وان الحضارات التي لا تدافع عن نفسها في خضم هذا الصراع الدائم لا يمكن أن تحيا ، بل انها لا تستحق الحياة .

لهذا أكرر القول بأن مكتبتنا العربية بحاجة لمثل هذا البحث التركيبي ، الموجز ، والواضح ، الذي يسمح برؤية الميادين المختلفة بنظرة فاحصة واحدة ، ويكتشف العلاقات المتينة القائمة بين هذه الميادين .

هذا بالاضافة الى أن هذه المحاولة قد تدفع بعض المفكرين والباحثين العرب لنقدها واظهار مواقع التحيز والضعف الظاهر بها خاصة فيما يتعلق بدور الحضارة العربية ، ومعاني الصراع العربي ــ الصهيوني الذي بدأ في مطلع القرن العشرين ولايزال مصدر عدم الاستقرار والتوتر في ما يسمى بمنطقة الشرق الاوسط . وسيبقى من أخطر النزاعات التي لا تسبب أعظم المآسي للشعب العربي عامة والشعب الفلسطيني خاصة فحسب ، بل وقد يكون الشرارة التي تنطلق منها الحرب العالمية الثالثة (النووية) أو ما يسميه الباحثون في هذا الكتاب « القيامة الجديدة » اذا لم يدرك المجتمع الدولي مسؤولياته القانونية والاخلاقية ، بالنسبة

لمشاكل هذه المنطقة الحيوية وبشكل خاص مشكلة الشعب الفلسطيني ، فيبادر جديا لكبح المطامع والنزعات العدوائية والتوسعية الامبريالية ـــ الصهيونية ، ويساهم في وضع حد للمآسي والمذابح التي تعم المنطقة وتعرضها وتعرض العالم أجمع لأعظم الاخطار والمبادرة الفورية لاعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني الذي يعيش منذ ثلاثين عام ونيف في حالة من البؤس الرهيب الذي جعله في وضع لا يفرق فيه بين حياته التعيسة وبين « القيامة النووية » التي سيكون هو واعداؤه بعض ضحاياها .

أحمد عبد الكريم

الحروب والحضارات

تأليف :

السادة : غاستون بوتول ، رينيه كارير ، جان لويس آنيكان .

من المعهد الفرنسي لـ « علم الحرب » .

المقدمة بقلم : السيد جان غيتون من الاكاديمية الفرنسية .

من منشورات : المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني ،
ملحق للعدد الرابع (الفصل الرابع من عام ١٩٧٩)
مجلة الاستراتيجية .

تقـديم الكتـاب

بعد أن انتهيت من قراءة هذا البحث تحدوني رغبة ملحة للقول بكل بساطة أن ما استرعى اهتمامي وشدني اليه هو اتاحته الفرصة لي بتلبية نزعتين مكنونتين في صدري ، يشاركني بهما جميع معاصري في هذه الفترة ، التي تقترب فيها من الألف الثالثة لعصرنا ، ألا وهما : نزعة الفهم ونزعة التكهن .

الفهم : اذا تناولنا هذه الكلمة في الاصل الذي انحدرت منه ، نجد أن كلمة فعل « فهم » تعني محاولة النظر للاشياء في ذهننا كلا واحدا . ذلك أن « الفهم » في حضارتنا القائمة ، أصبح أكثر ضرورة وأشد صعوبة من أي وقت مضى ، لان « الاعلام » غدا ، آنيا ، وكونيا ، ومتبينا ، ومتعددا ، وساحقا ، بل يكاد يكون مهووسا ، فلم يعد هناك مسافة كافية

أمام الانسان تسمح له بالتراجع . وفي الوقت نفسه ، تضاءلت أوقات التسلية ، والراحة ، والتفكير .

وهكذا أصبح الحس السليم نادراً ما لم تتوفر الوسائل التي تساعد الانسان على التركيب . وها نحن نقترب من الفترة التي سيكون فيها القادة وكبار المسؤولين ، غير قادرين على الرؤية الشاملة للاشياء ، كما كانت الحال في زمن « برج بابل » . وان الاسراف بالتعلم والقدرة ستأتي لتحمل مشكلة المعرفة والسلطة . وفي هذا الوقت سنحتاج الى مؤلفات تركيبية ، قصيرة وواضحة وكاملة أكثر من أي وقت مضى ، لكي تساعدنا على تغطية الميادين المختلفة والمتشابهة بأبصارنا الثابتة .

كان ديكارت يقول عندما يحاول قراءة أحد الكتب ، بأنه يبدأ أولا « يتأمل اللوحات ، فالصور ، ويضيف ساخرا ، أما ما بقي من الكتاب فغايته ملء الورق ... » .

وفي اعتقادي ان الغاية التي توخاها المؤلفون من هذا الكتاب هي اعدادنا لاجتياز «عتبة قريبة مرعبة ليس لها سابقة في تاريخ البشرية » وقد سبق لكتابهم « تحدي الحرب » أن عودنا على هذا النوع من التفكير ، وهذا الكتاب يكمله ويختمه .

ويجدر بنا بهذه المناسبة ان نشير الى « أن السلاح النووي قلب مفهوم الحرب نفسها » ، لان قوة تدميره يمكنها ان تجعل من كوكبنا (الارض) قمرا ، لانها قادرة على ازالة الحضارة والغاء الاوهام التي يتخيلها البعض عن « النصر المحتمل » وهم يعدون لمجزرة بشرية متبادلة .

ان « التحدي الذري » المهيمن على الأذهان ، رغم كل المحاولات التي تتواطؤ لتخديرنا وحرف أبصارنا عنه ، يضاف اليه « تحد اقتصادي » أشد خطرا ، وهذا التحدي ناتج عن اختلال التوازن السكاني « الديمغرافي » ويزيد في خطورته أيضا سوء توزيع الثروات في العالم الراهن .

وتقدر الاحصاءات الرصينة أن عدد سكان الكرة الارضية سيصل إلى (٨) مليارات نسمة في نهاية هذا القرن ، وسيكون $\frac{١}{٦}$ من هؤلاء السكان فقط في مناطق العالم الصناعي المتطور . ومن هنا يأتي الخطر من التخريب السلمي البطيء الذي يعتبر أشد خطرا وشراسة من التدمير النووي .

ان « عملية الفهم » (التي يوقظها هذا البحث ويثيرها الى أعلى الدرجات) اضطرت السيد بوتول ، والجنرال كارير ، وزملائهما ، لمحاولة الوصول الى ذروة الاشياء ، فقد قارنوا هذه

.. التحديات بنظرة فاحصة للتاريخ البشري منذ الازل ، ودرسوا الحضارات في علاقاتها مع الحروب التي ساعدت على نشوئها أو دمرتها .

والحقيقة ، إن للحضارة والحرب علاقات أساسية . وأن كل ما سيجري فوق هذا الكوكب (حتى ولو لم يتشابه بالكثافة أو العالمية) يمكن تخيله بدراسة الحضارات والحروب التي ملأت تاريخ « هذا الحيوان المفكر » ، الذي عرف ــ ويا للأسف ــ بأنه عدواني يميل للسيطرة . وذلك هوَ الانسان .

اننا ندخل عام ١٩٨٠ في فترة حاسمة من التاريخ ، فهل تسمح لنا « عملية الفهم » بأن نمارس « عملية التنبؤ » وهل يمكن لـ « عملية التنبؤ » ان تجعلنا قادرين على تحاشي الموت الجماعي ؟ .. تلك هي المجازفة التي يطمح لها هذا العمل الفكري الوحيد من نوعه .

ان هذا الكتاب ليس محاولة لما يسمى بـ « التنبؤ » وانما هو احصاء لمختلف الاحتمالات المتوقعة في المستقبل القريب . وان تحليل « علم الحرب » ، للنزاعات المحتملة سيلفت نظر جميع القراء . وانني ، شخصيا ، لا أرمي لازالة الانفعالات التي يمكن أن تثيرها قراءة كتاب موضوعي جدا ، ورياضي جدا في

استقراءاته ، بل اكتفى بالاشارة الى أن : « خلاصة هذه الاستدلالات لا تحمل على اليأس » ، وأن ما يهدف اليه مؤلفو هذا الكتاب هو « جعل فعل الحرية ممكنا » . تلك الحرية التي أصبحت نادرة عند بعض القادة المسؤولين ، والتي لا يزال بمقدورها انقاذ البشرية .

فالواقع انه « ما من شيء حتمي » . ولكن لكي يكون الانسان حرا ، لا بد له من أن يرى ويدرك ، وهذا هو الهدف من الكتاب ، انه يساعد على « الرؤية » و « التكهن » لكي يمكن « معالجة الأمور » ولا يسعني الا أن أتمنى له « بل وأن أتنبأ له » الانتشار الواسع .

انني منذ زمن بعيد أحمل للسيد غاستون بوتول ، ولاعماله الفكرية الخلاقة أسمى أنواع التقدير . ولقد عرفت الجنرال رينيه كارير طوال خمس سنوات من الاسر ، فكان يجمع بين رجل الحرب ورجل الفكر ، فعقدت بيننا صداقة لا تنفصم عراها . وأذكر أنني رويت مرة للجنرال كارير هذه الحكمة المعروفة عن الفيلسوف امرسون : « لكي تفهم أي شيء فهما جيدا ، لا بد لك من أن تهبط من ذروة عليائه » . ويقول الفيلسوف ليبنتز بهذا المعنى « ابحث عن وجهة النظر الأكثر تفهما » .

وأخيرا فان هذا الكتاب المكثف يشبه « الرمانة » بل هو « كالبرعم » ، يمكن ان يساعدنا على ان نفكر ونتصرف بشكل أحسن في فترة ليس لها مثيل في تاريخ بني الانسان .

جان غيتون

عضو الاكاديمية الفرنسية

مقدمة المؤلفين

ينضوي هذا الكتاب ، الذي وضعته جماعة من المفكرين والبحاثة ، في اطار أبحاث « المعهد الفرنسي لعلم الحرب » الذي أسس في عام ١٩٤٥ ، من أجل الدراسة العلمية للحروب والسلم والنزاعات والاعمال العدوانية الجماعية ، والعنف السياسي (الذي يعتبر جرثومة الحروب) . ومنذ احداثه ، قام المعهد بالبحث الاساسي والبحوث التطبيقية معا .

وفي نهاية عام ١٩٧٠ ، وبغرض تطبيق وتجربة « أفكار علم الحرب » باشر المعهد باجراء ثلاثة بحوث مترافقة :

الاول : دراسة العنف السياسي المعاصر يوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، استنادا لاسلوب تجريبي منذ خريف عام ١٩٦٧ . ويتابع المعهد هذه الدراسة كل سنة ، وينشر نتائجها

دوريا . (في مجلة علم الحرب التي يصدرها المعهد منذ تموز ١٩٧١) .

الثاني : دراسة الحروب والثورات التي وقعت خلال قرنين من الزمان . وقد اقتصرت هذه الدراسة على الفترة الواقعة بين عام ١٧٤٠ وعام ١٩٧٩ ، وأدت الى وضع كتاب بعنوان « تحدي الحرب » الذي برهن على « أن الحروب تعبر عن المجتمعات البشرية وتحولها » .

الثالث : هدفه الدراسة بطرق مختلفة ولمدد أطول بكثير (ابتداء من عصور ما قبل التاريخ حتى العصر النووي ــ الفضائي) وللتفاعلات بين الحروب والحضارات .

وقد انتهى هذا البحث (الثالث) في بداية عام ١٩٨٠ ، ونتج عنه هذا الكتيب الذي نحن بصدده « الحروب والحضارات منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر النووي الفضائي » وأصبح على هذا الاساس « مساهمة من علم الحرب » في مشكلة « الحرب والسلام » .

واننا (أي المؤلفين) لنخص بشكرنا العقيد أ. ج. بيير فالات ماريو ، لما قدمه لنا من مساعدات في هذا المجال .

ونحن نهدي هذا الكتاب للسيدة « هيلين فوب » التي يدين لها « معهد علم الحرب » بالكثير .

باريس في ١ آذار ١٩٨٠

مدخـــل

عوالـم الحـرب وعوالـم السـلام

يؤكد لنا التاريخ ، ان كل دولة أو عدد من الدول ، وكل حضارة أو عدد من الحضارات ، تنتقل فجأة ، في فترات من تاريخها ، من عالم السلام الى عالم الحرب ، وهكذا تصبح الحرب أمرا واقعا لا مفر منه .

والسلم ، الداخلي والدولي : « الهدوء في اطار النظام » ، هو الحالة التي تكون فيها نسبة الموتى نتيجة القتل الجماعي ضئيلة الى أدنى الحدود .

أما الحرب ، الداخلية أو الخارجية : فهي العنف الهائج ، والمنظم الذي تسبغ عليه صفة القداسة ، وهي المجابهة الدموية بين مجموعات داخلية أو دولية لاغراض سياسية ، وهي ايضا الحالة التي تكون فيها نسبة الموتى بالقتل الجماعي مرتفعة جدا من الناحية العددية .

وتعتبر الثورات شكل من اشكال الحرب ، بل هي ايضا شكل من اشكال الحروب الاهلية .

والحرب والسلم ليستا حالتان متضادتان اسميا فحسب ، ولكنهما عالمان حقيقيان متناقضان من جميع الوجوه[1] .

والسلم ، من الناحية المبدئية والاهداف على الاقل ، هو :

١ ـــ نظام من القيم ذو وجهة عالمية .

٢ ـــ ونزعة نحو التنوع والوحدة ورفض لمذهب المانوية (أي الصراع الحتمي الابدي بين الخير والشر) .

٣ ـــ العودة للاعتراف بـ « الغير » رغم اختلافه .

٤ ـــ قاعدة اخلاقية مفادها « أنك لن تقتل ابدا » ، واحترام وحماية للحياة الانسانية ، وبشكل خاص حياة الطفل والمرأة والشيخ .

٥ ـــ ابقاء « القوة والعنف » بين أيدي الدول وتحت أقصى انواع الرقابة الممكنة .

٦ ـــ تأكيد للحق ، الخاص ، والعام ، والداخلي والخارجي ، وصوغه بشكل دقيق .

٧ ـــ توازن بين التوترات الداخلية والخارجية .

٨ ـــ العمل الدؤوب البطيء والدائم لخلق وتوفير وتراكم الثروات بمختلف أنواعها : البشرية والاقتصادية والثقافية .

---

(١) واذا ما وجدت أشكال وسط ، ليست بالسلم تماما ، ولا هي بالحرب ، « كالحرب الباردة » أو « السلم الحار » أو حالة « اللاسلم واللاحرب » ، فلا يعني أبدا وجود تشابه بين الحرب والسلم .

٩ ــ البحث عن الامن عن طريق احتواء جميع المخاطر وتقليصها الى أدنى الحدود .

١٠ ــ ايجاد الوسائل لتصريف النشاطات البشرية في الفنون والالعاب .

١١ ــ اعطاء الاسبقية (الافضلية) للمعقول على اللامعقول والنسبي على المطلق ، في اطار روح من الود والوفاق والمنافسة بين المجازفات ، والكشف عن اسرار العنف لتحاشيه .

١٢ ــ الضبط والسيطرة على الازمات عن طريق التشاور والمفاوضات .

١٣ ــ الغاية لا تبرر الواسطة ، بل تخضع للقيم الاخلاقية العليا .

١٤ ــ المحافظة على التوازن والنظام .

١٥ ــ الحياة الهادئة ، تتخللها احيانا بعض المحن والشقاء .

١٦ ــ واخيرا ، ان السلم بالنسبة لكل شخص ، هو التقابل الطبيعي ، في نهاية الطريق ، مع الموت ، وقد يكون هذا اللقاء طارئا في بعض الاحيان .

والسلم هو الخلق المستمر والعمل العظيم للعقل والقلب معا .

واذا ما أخذنا هذه الميادين المختلفة الواحد تلو الآخر ، لوجدنا ان

الحرب ، على نقيضها ، نظرا لطبيعتها ووجهاتها ، ونزعاتها ، فهي بالتالي :

١ ــ نظام آخر يختلف بقيمه النسبية .

٢ ــ هيمنة وتأكيد لمبدأ المانوية (الصراع الدائم بين الظلام والنور وبين الخير والشر) .

٣ ــ عدم الاعتراف بالغير ، بل وانكار وجوده .

٤ ــ قاعدة أخلاقية قوامها « ستقتل » من أجل خلاص وانتصار قضية أو مدنية أو دولة .

٥ ــ اندلاع العنف ، حق وامكانية تخول كل طرف بعرض قوته وقتل عدوه ، واذا لزم الامر ، عدم احترام أو توفير ارواح المدنيين والابرياء .

٦ ــ وجوب المخاطرة بحياة الانسان وحياة اتباعه .

٧ ــ غياب (أو شغور) الحق ، باستثناء بعض القواعد ــ حقوق الناس ، حق المجتمع ، حق الحرب ، الاتفاقيات الدولية ــ التي تحترم الى حد ما .

٨ ــ عدم توازن التوترات الداخلية والخارجية والدولية .

٩ ــ سرعة ومدى تدمير الثروات المتنوعة ــ السكانية والاقتصادية والثقافية ــ وخاصة منها ما يحافظ عليه بحرص في فترات السلم ، والقائها دون تردد في اتون المعارك .

١٠ ــ قبول المخاطر الحيوية .

١١ ــ حشد وتكريس جميع النشاطات والجهودات البشرية في المجابهات الدموية .

١٢ ــ أفضلية اللامعقول على المعقول ، والمطلق على النسبي ، في اطار عقلي شمولي .

١٣ ــ اطلاق المآزق على غاربها ، وتبني مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، واضفاء صفة القداسة على العنف .

١٤ ــ عدم التوازن والفوضى .

١٥ ــ اشتداد الازمات الى أقصى درجات العنف .

١٦ ــ الدم والعرق والدموع .

١٧ ــ وأخيرا فان الحرب بالنسبة لعدد كبير جدا من الرجال والنساء هي اللقاء الحتمي مع الموت الزؤام في الصدفة او المعارك .

١٨ ــ وهي انقطاع احمق يبرهن على فشل العقل والقلب .

وهكذا تبدأ الحرب كحقيقة متعددة الاشكال ومتغيرة ، ثقيلة بمعناها ومخاطرها ، بل هي حدث هائل بأبعاده وآثاره وأساليب العنف التي يقتل بها البشر .

والحرب الاهلية والثورة هي أكثر أشكال الحروب وحشية . ومن

المصلحة احترام هذه الحقيقة المزدوجة عند الكلام عن الحرب .

وان استعمال تعابير مثيرة مثل « حرب الخراف » أو « حرب الحيتان » أو « حرب الازرار » أو حتى « حرب الاعصاب » ، ليس سوى مبالغات تهويلية ، بالنسبة للمفهوم السليم للوقائع المتنازع عليها ، بل هو تضخم خطر يشبه التضخم النقدي ... ومن هذه الناحية ، يبدو اصطلاح « الحرب الباردة » اكثر بؤسا من اصطلاح « السلم الحار » لان الحرب لم تكن أبدا باردة [1] .

وحتى عبارة « الحرب الاقتصادية » ، التي استخدمت منذ زمن بعيد ، فهي قابلة للنقاش ، لان الامر لا يصل في هذه الحالة الى حدود « الحرب » ، بل هو صدام بين الاستراتيجيات الاقتصادية التي أصبحت في وقتنا الحاضر أكثر حسما بسبب الخطر النووي .

والخلاصة ان الحرب شيء خطير جدا وظاهرة لا يمكن الرجوع عنها مباشرة — بعد انفجارها — ، وهي عالم حقيقي قائم بذاته .

وهكذا نرى ان هناك عالمين متناقضين تماما : هما الحرب والسلم . صحيح ان السلم لا يمكن الا ان تتخلله فترات من الظلام والفساد ، مما يفسح المجال للاتجاه الى الحرب ، وهو ليس الخير المطلق لان هناك اشياء

---

(١) ومن الافضل عدم استعمال بعض الكلمات الا بكثير من التحفظ : مثل كلمة « حرب » . كما ذكر السيد اندريه فونتين في مقال بعنوان « غيوم القيامة » في صحيفة لوموند الفرنسية بتاريخ ٨ /١ /١٩٨٠ .

اخرى خيرة مثل « بقاء المدنية » مثلا وهذا قد يتطلب التضحية بالسلم من أجله . والحرب نفسها لا تخلو من الاشعاع والفضائل .

والحرب والسلم عالمان متناقضان ولكنهما يتعايشان في كل الاوقات وفي كل وجدان ، كما كان الامر فوق سطح الكرة الارضية وعلى مدى التاريخ .

وكل فرد منا ، وكل اسرة انسانية ، وكل دولة من المجتمع العالمي ، وكل حضارة ، تساهم — بقليل او كثير — في هذين العالمين : وعندما تكون غارقة في احدهما فانها في الواقع تتابع العيش في الآخر ، بالذاكرة والخيال .

افلم تعش الاجيال التي شاهدت حرب ١٩١٤ ، هكذا في الفترة الواقعة بين ١٩١٨ و ١٩٣٩، في عالم سلمي مضطرب وقلق ، تحمل في نفسها ذكرى ضحايا الحرب العالمية الاولى ، وبصيرة الكشف عن المجازر المحتملة لحرب عالمية ثانية ؟ .

أولا يعيش الرجال والنساء في عام ١٩٨٠ في ظل سلام مضطرب ، وتتعلق ابصارهم في خوف من شبح حرب عالمية ثالثة يتراءى لهم في الافق ؟ .

فما هي اذن صدمة الحرب ؟

وما هو اثر الحرب الحاسم ؟

نحن نعرف بالتجربة ، أن الحرب تطبع بعمق جسم وفكر وروح جميع اولئك الذين عانوها كما تطبع جميع العائلات التي ينتمون اليها . وقد رأينا بالتجربة والتاريخ ان الدول والامبراطوريات تكبر أو تنهار في المعارك . وبرهن لنا التاريخ ان الحروب تعطي صورة صادقة للمجتمعات وتغير هذه المجتمعات .

أما اذا انتقلنا من الدول والمجتمعات الى مستوى الحضارات التي يصعب لمسها مادياً وزسم حدودها جغرافيا ، فاننا نلاحظ ان التفاعل بين الحروب والحضارات أقل ظهورا وأقل حتمية ، ولكنها مع ذلك موجودة .

مراحل البحث الاربعة وعرض نتائجها

ما هي الطريقة التي يجب سلوكها لاستخلاص هذه التفاعلات بالكشف عن ميادين الحروب والحضارات ؟

— أولا : يجب اجراء « تحليل » لعنصري المجابهة : الحروب ، والحضارات.

— ثانيا : ثم « المراقبة » على امتداد التاريخ لكل انواع المجابهات وتفاعلاتها منذ اجداد البشرية الاوائل حتى تاريخ الحروب المقدسة والايديولوجية .

— ثالثا : وبعد ذلك اجراء تحليل اكثر عمقا في خمسة قطاعات عظيمة الدلالة (الاسلحة ، التحصينات ، الملاحة البحرية ، الفضاء ، التنظيم) ، وتتبع تطوراتها المتوازية.

— رابعا : الانطلاق من الحاضر بمنظور مستقبلي ، واستخلاص العلاقات بين الحروب والحضارات في العصر النووي — الفضائي ، وتوسيع النقاش على أسس علمية عن الحرب في العالم.

وضع جدول شامل للتفاعلات بين الحروب والحضارات .

وكخلاصة : محاولة استشعار المخاطر والفرص المواتية التي قد تتعرض لها الحضارات المعاصرة في مطلع الثمانيات .

لقد أجملنا نتائج بحثنا في كتاب واحد ، وحاولنا في هذا الكتاب أن نطور ونتعمق بشكل خاص : الفترة التي لانزال نجهل الكثير عنها ويخيم الغموض على معظم احداثها ، تلك هي الفترة الواقعة بين ظهور انسان ما قبل التاريخ ومنتصف القرن الثامن عشر (أو على وجه التحديد حتى عام ١٧٤٠ م) . وتمتاز هذه الفترة باختفاء الكثير من الحضارات . أما الفترة الثانية المعروفة بشكل أحسن ، فهي التي تمتد بين عام ١٧٤٠م وعام ١٩٧٤ ، وقد كانت موضوعا للدراسة المنشورة في كتاب « تحدي

الحرب » ، ولم نستعرضها (في هذا الكتاب الحالي) الا بخطوطها العريضة جدا .

وأخيراً الوضع المتفجر في بداية عام ١٩٨٠ ومنظور الفترة الواقعة بين عام ١٩٨٠ وعام ٢٠٠٠ ، وهي اكثر المراحل اهمية بالنسبة لاهتماماتنا الراهنة .

فأي شكل فعلي يمكن ان يعطى للنصوص التاريخية الاحدى عشر التي ترسم ابعاد هذا البحث ؟

ان نستخدم بقدر الامكان ، كعنصر للوقت ، الزمن الحاضر الذي يبرز على احسن وجه هجمة العناصر والاحداث الحربية في الحضارات .



الفصل الأول

المجـــابهة

الحرب موجودة على الدوام

ان جميع الحضارات المنقرضة ، هدمتها الحروب ، وشهدت معها قبل هذه النكبة ، صداقة حميمة وعميقة ودائمة .

وقد عرفت الحضارات والحروب ، في اغلب الاحيان ، هذه النهاية المأساوية ونجحت في تحاشيها : فهكذا كان شأن روما في زمن غزوات قبائل الغول أو حملات هانيبال . والى جانب هذه الأزمات يجري تاريخ الحضارات يتخلله عدد لا يحصى من النزاعات المسلحة المتفاوتة بالطول والكثافة ولكنها دائما على صورتها ، التي ساهمت الى حد كبير بتبديلها .

المذبحة الكبرى

تبقى اكثر الحروب عنفا وعشوائية ، وتقلبا بين جميع القوانين الاجتماعية ، تبقى « رفيق الدرب » العظيم للتاريخ ، وهي بنفس الوقت « رحمة » القوي تسير مع الموت الفردي ـــ الطبيعي والطارىء ـــ الذي يعتبر اعلى مشكلة مطروحة في ساعتها بالنسبة لكل كائن بشري ، وترافق

الكوارث الطبيعية التي تدفق مناطق بكاملها ، فهي الموت الجماعي الاعظم ، بل هي « المذبحة الكبرى للانسان على يد الانسان » التي تعرض للخطر ، الدول ، والمجتمعات والحضارات ، بالاضافة لتهديدها للاشخاص والاسر من جميع الانواع .

— فالدول : تتعرض لخطر بسكانها واقتصادها ، وتوسعها وأنظمتها ، بل وحتى وجودها نفسه احيانا .

— والمجتمعات : تتعرض للخطر في بنيانها وطرق تفكيرها . .

— والحضارات : تتعرض للخطر في كل عناصرها وتركيبها ، والحرب هي في وقت واحد ، أم الحضارات وابنتها القاتلة ...

مغريـات الحـرب

الحقيقة اننا نعثر على هذه الاغراءات الى جانب التهديدات بالحرب في اصول منظمة لمنجزات الفكر الانساني الكبرى . فأوابد الشعر والادب الاولى ، لم تكن سوى الملاحم الحماسية التي تمجد الابطال المحاربين وأعمالهم العظيمة وحملاتهم الحربية . وفي فجر جميع الثقافات القومية تطالعنا هذه الاعمال الخالدة كـ : « الالياذة » و « الساغا » [1]

(١) قصص قصيرة تحكي وقائع حقيقية باللغة العامية ، وصلت أوجها في النصف الأول للقرن الثالث عشر الميلادي . وهي تختص بتأريخ الشعب الايسلندي ، وامجاد ملوك النرويج من عام ١٢٠ — ١٢٨٤ م والمناطق الاسكندنافية الاخرى . وهي تحكي الرحلات القديمة الى غزو غروئنلاند .

و « الرامايانا » [١] و « الهاغافات ــ جيتا » [٢] و « أغاني رولانـد » [٣] . ويستمـر التـاريخ حافـلا ولا يزال ، بقصص الحروب والمعارك .

كما ان الاعمال الفنية الاولى ، والرسوم المنحوتة في الصخور تمثل الفريسة والصياد والمحارب . واخيرا فان معظم اساطير الآلهة تبدأ برواية المعارك الرهيبة بين الآلهة والجن ، والعمالقة والملائكة والشياطين . ولم تتوصل الآلهة جميعها لبناء مجدها وقوتها الا بعد انتصارها على التنينات والاعداء الآخرين ، ويعتبر ذلك قاسما مشتركا بين آلهة الاولمب عند الاغريق ومجمع الآلهة الهندية والجرجانية والافريقية وكذلك آلهة الهنود الحمر في القارة الامريكية .

ويلخص الشيخ هيراكليت [٤] جميع هذه التقاليد واصول فلسفتها في المرحلة المشهورة ، فيقول : « الحرب هي أم جميع الاشياء فهي تصنع الآلهة كما تصنع العبيد » . وبمعنى آخر ان الحرب هي الاساس الذي بنيت عليه جميع الفوارق بين البشر .

ان الاغراء الذي كانت تمارسه الحرب ، ولا تزال ، على بني

---

(١) اسم نوعي لملاحم هندية مقدسة من القرن الخامس ق.م الى القرن الخامس عشر ميلادي تروي حياة الملك الذي يجسد الآلهة فيشنو .

(٢) اسطورة ماهابها أو الاله كريشنا يعلم طرق التأمل والورع والاعمال العظيمة .

(٣) أشهر الأبطال في عهد شارلمان قتل في الحرب ضد التاسك عام ٧٧٨م وقد اشتهرت أغانيه الحماسية .

(٤) فيلسوف يوناني (٥٤٠ ــ ٤٨٠ ق.م) كانت النار بالنسبة له العنصر الاساسي للمادة .

البشر ، لم يأخذ فقط شكلا شاعريا او دينيا أو فنيا ، فسرعان ما بدأ الانسان بالتفكير وانتاج منجزات لا علاقة لها بالفناء والفن ، بل تقوم على التفاهم بين جهود متنوعة كانت الحرب مصدر وحي لها . فالفلاسفة والاخلاقيون والمؤرخون ورجال القانون والكتاب السياسيون والعسكريون ، جميعهم خصصوا للحرب ومظاهرها المختلفة اعمالا عظيمة لا تحصى .

وهذه الاعمال المتنوعة ضرورية ومتكاملة ، لان كل « نزاع مسلح » يمثل جميع المظاهر والصفات في آن واحد ، وبالنتيجة لا بد من دراسته عبر جميع هذه الزوايا .

وفي أيامنا الحالية ، يضاف الى هذه الاساليب التقليدية اسلوب جديد يستند الى علم الاجتماع والعلوم الانسانية الحديثة الاخرى : فعلم الحرب يدرس الحروب والسلم والنزاعات بأنواعها معتمدا على أسلوب فكري قائم على انظمة ثلاث لا تنفصم عراها عن حياة المجتمعات .

وهذا النظام لا يزال في بدايته لان « معهد علم الحرب » تأسس في عام ١٩٤٥ ، ولم يستطع حتى الآن أن يلبي جميع وعوده وان يعطي جميع ثماره ، وهو أمر طبيعي بالنسبة للعلوم الانسانية الحديثة ، ولكن « علم الحرب » يشكل عملية اقتراب اصلية ومثمرة ، سيحاول من خلالها التدليل على « المنظور التاريخي » الذي سنرسمه عن الحروب والحضارات وصدى تفاعلاتها .

تعاقب الحروب والسلم

تبدو الحرب كأنها جزء لا يتجزأ عن جميع الحضارات . ويمكن القول ، انطلاقا من معيار العنف الدموي المنظم ، ان التاريخ الداخلي والخارجي للحضارات مطبوع بالتعاقب المستمر بين الحروب والسلم . فكل واحد منهما يشير الى الانتقال من عالم الى عالم آخر تتبدل فيه جميع القيم الاخلاقية والاقتصادية والقانونية والمراتب الاجتماعية ، ففي الحرب يتوقف العمل بمبدأ تحريم قتل الانسان لاخيه الانسان . ويتحول فجأة ، خصوم الحكم بالاعدام على المجرمين الاشرار ، الى أناس يؤمنون بارسال آلاف الابرياء الى أتون الحرب . ويجري مثل هذا التعبير في نفسية الافراد ، فالنجلاء مثلا يتقبلون بالرضا أبهظ التكاليف التي تتطلبها الأعمال الحربية التدميرية ، والجبناء الذين يفرون أمام ذبابة أو فأرة يواجهون نيران الرشاشات .

والحرب تتسم بشكل خاص بالتبذير المفرط بالارواح البشرية والثروات . وتكمن احدى اهم مميزات الحضارة في وتائر فتراتها العدوانية . ومن الملاحظ ان الكتاب والسياسيين يؤكدون ان السلام يحمل أحيانا الحرب بين ظهرانيه ، وتحمل الحرب في احيان اخرى السلام في طياتها ، تبعا للظروف .

وهاتان النظريتان هما حقيقتان متلازمتان كوجهين لقطعة نقد واحدة . وتعبر عنهما تمام التعبير احدى العملات الرومانية القديمة التي

صكت في عهد الامبراطور جانوس ، ويمثل احد الوجهين معبد جانوس مفتوحا ، ويمثل الوجه الآخر هذا المعبد مغلقا ، حسبما تكون روما في حالة الحرب او حالة السلام .

ومن المؤسف ان البشرية لم تستطع حتى الآن تجنب هذا التعاقب . فهل هو مجرد صدفة شاذة أم أنه على عكس ذلك ، خاضع لوتائر ودورات متناوبة ؟ .

ان السؤال كما يبدو على درجة عالية من الاهمية . والواقع يمكن الحاقه بعلم الحيوانات (علم البيولوجيا) بالمعنى الواسع ، اذا ما لاحظنا انه يخضع لوتائر دورية أكثر مما يخضع لقوانين معنية ، وهذا يعني ان تعاقب الحرب والسلم ينحدر من أسباب عميقة يمكن تحديدها وتحليلها وتقدير الاجزاء التي تتكون منها ، وانها تخضع لقوانين معقدة ولا شك ، كجميع القوانين الاجتماعية ، غير انها فعالة في حدود امكانياتها . فاذا كان الامر كذلك ، فلا بد من وجود اسس لاقامة « تيار سلمي » اصيل وعلمي وعملي ، يختلف عن العديد من الحركات السلمية القائمة اساسا على العواطف ، والجديرة بالاحترام رغم عدم فعاليتها ، ذلك ان هذه الحركات لازالت تقوم حتى الآن على الآراء المثالية ، والعويل والسخط واللعنات وعلى مانوية شاملة .

فاذا كانت الحرب لا تخضع الى أي قانون اجتماعي ، واذا كان محركها الوحيد هو شهوات الحكام والشعوب ، فلن يكون هناك اي أمل بالتنبؤ بها علميا ، وهذا يعني ان الانسانية يجب ان تخضع لها دائما

بشكل أعمى دون ان تفهمها ، وسيكون من الواجب في هذه الحالة التنازل عنها لتكون حكرا للادب والتاريخ الاسطوري ، والاقتصار على دراستها من النواحي الذرائعية فحسب .

استقرار الحـروب ووظائفها

يبدو ، حتى الآن ، أن ذوام الحروب أمر محتوم . فقد بذل الحقوقيون منذ عشرات القرون ، جهودا هائلة من الابداعات الفكرية التصورية غايتها وقف الحرب او الغائها نهائيا ، بالتأثير على المسؤولين عن السيادات الداخلية والخارجية والدولية . وتدخل ضمن هذه الجهود : مواثيق عدم الاعتداء الثنائية او المتعددة الاطراف ، ومعاهدات الصداقة ، واتفاقيات عدم التدخل في شؤون الآخرين ، واتفاقيات الهدنة كتلك التي تختص بالالعاب الاولمبية في اليونان القديم ، او الهدنات المقدسة التي فرضتها الكنيسة في القرون الوسطى ، او التي فرضها المحكمون اليونان [1] ، أو المنظمات الدولية المعاصرة ...

والواقع لم تكن أي واحدة من هذه المواثيق والمعاهدات والقرارات دون جدوى ، ولكنها كانت دائما مؤقتة ، فبعد ان تحترمها الاطراف المعينة لبعض اذا ببعضهم او جميعهم يتوقفون فجأة عن التقيد بها او اختراقها .

---

(١) وهم جماعة من المحكمين الذين يمثلون الدول او المدن اليونانية القديمة ، كانوا يعقدون اجتماعاتهم لمناقشة المصالح المشتركة والنظر في النزاعات المختلفة واصدار الاحكام النهائية عليها .

وكذلك الامر بالنسبة لسلطات الدينية التي لعبت دور الحكم المعتدل في بعض النزاعات ، في جميع الحضارات ، بشكل يكاد يكون دائما . وقد بذل رجال الدين في جهودهم لوضع قواعد اخلاقية تبطل شرعية الحروب ، أو تخفف على الاقل من قسوتها . ومن هذه الجهود تلك النظريات التي وضعها القديس توماس داكان حول « الحرب العادلة » ، ونظريات رجال اللاهوت الاسبان مثل فيتوريا .

ويلاحظ ، بمزيد الحسرة والاسف ، ان هذه الجهود لم تكلل بنجاحات كبرى ، وان المواعظ الدينية المثيرة كانت مسموعة اكثر منها ، خاصة عندما تدعو للحروب المقدسة والعنف الجماعي . وهذا ما تؤكده الحروب الاسلامية ، والحروب الصليبية والحروب الدينية في اوروبا .

ومن هنا يأتي السؤال التالي : ألا يعني دوام وكلية وجود هذه الظاهرة المرعبة ، رغم كل الجهود والنوايا الحسنة التي بذلت لمحاربتها ، الا تعني بأن « **الحرب تقوم في المجتمعات والحضارات بوظائف لاتزال ضرورية حتى الآن ولايمكن الاستعاضة عنها !** » . ولهذا اليس من الواجب ان تكرس جهود جميع المسؤولين في المجتمع الانساني : « لتوجيه عدوانية الانسان نحو مخارج أقل دموية وأقل تدميرا ؟ .

والحقيقة ان الوظيفة الرئيسية للحرب هي التدمير . ولهذه الوظيفة ظاهرتين رئيسيتين :

فعندما لا تقترن حرب ما بنتيجة هامة ، اي استسلام ودمار أحد

الاطراف ، نجد أنفسنا حيال نوع من « الدمار المتبادل » ، والنزف المزدوج بالرجال والثروات . وعندما تبلغ الخسارة بالارواح البشرية والثروات ، ودمار الاراضي وخراب المدن ، مستوى معين ، تكون النتيجة نوع من « الوهن » و « الاشباع » الذي يجبر الاطراف المتقاتلة على القبول بسلام مبني على « التفاهم او الحل الوسط » . وهذا ما يحدث بالفعل لسياسة الحروب المحدودة الاهداف ، عندما تحقق اهدافها . وقد يترتب على مثل هذه الحروب نوع من التأثير المتبادل بين الطرفين المتحاربين ، كما حدث بالفعل للمارشال ليوتي [1] في حربه الاستعمارية مع المملكة المغربية ، ونادرا ما يحدث ذلك في الحروب الدينية او الايديولوجية ، التي تقوم عادة على « **النفي المطلق لوجود الغير الذي ينظر اليه لتجسيد مطلق للشر** » .

وعلى عكس ذلك ، فعندما تنتهي حرب ما الي سحق أحد الاطراف ، ولا يقبل الطرف المنتصر مراعاة جانب خصمه (المغلوب) او المحافظة عليه — كما فعل بسمارك بالنمسا بعد معركة سادوفا [2] ، لاسباب تتعلق بالسياسة العليا ، يمكن ان ينتج عن ذلك تبدل بالحضارة أو علي

---

(١) المارشال ليوتي (١٨٥٤ — ١٩٣٤) هو القائد الفرنسي الذي احتل المغرب ونظم الحماية الفرنسية عليه بين عام ١٩١٢ و ١٩٢٥ ، واستطاع المحافظة على هذه الحماية في الحرب العالمية الاولى رغم المؤامرات الالمانية .

(٢) سادوفا : قرية في بوهيميا وقعت فيها المعركة الفاصلة التي سميت باسمها بين النمسا وبروسيا عام ١٨٦٦م وانتهت بانتصار بروسيا (بزعامة الرجل الحديدي بسمارك) .

الاقل تحول عميق للطرف المغلوب بالبنيات السكانية ، والسياسية والاقتصادية والقومية والفكرية .

ذلك أن الصرخة الرومانية القديمة او اللغة القائلة « الويل للمغلوب ! » لم تنته بعد .

وقد شهد تاريخ البشرية « تغييرا حضاريا » بين عام ١٤٥٣م و ١٥٢١م على أثر سقوط ثلاثة عواصم هامة هي : القسطنطينية ابواب الشرق ، وغرناطة في أقصى الطرف الغربي من البحر الابيض المتوسط ، ومكسيكو على الجانب الآخر من المحيط الاطلسي .

صحيح ، ان الحضارة قد تحافظ على ازدهارها ومواردها بعد وقوع هزيمة عسكرية او سياسية ، وتستمر على بسط نفوذها المعنوي وتأثيرها على الطرف « الغالب المتوحش » كما كان الامر بالنسبة للحضارة الاغريقية التي انتصرت عليها روما .

ويؤكد تاريخ القارة الاوروبي ، انه ما من « منتصر » كروما التي استطاعت ان تجمع المتناقضات في امبراطورية واحدة ، وتشكل التحالفات المتعددة التي أنقذت التوازن الاوروبي ، وكانت الاساس المتين لتنوع هذه القارة والتمايز البسيط في حضارتها .

ولم يكن كذلك في القارات الاخرى ، حيث نلاحظ ان الحضارات العظيمة القديمة في آسيا ، باستثناء اليابان ، تغرق في تحولات عميقة جدا على اثر الحروب المعتدلة نسبيا . فقد كانت الصين والهند مسرحا للغزوات

والنهب والمذابح مرات عديدة ، ومع ذلك فقد بقيت عقليتهما على حالها من الناحية الجوهرية .

وهكذا نلاحظ بأن الصين استطاعت دائما امتصاص « غزاتها » الذين سيطرت عليهم حضارتها ثم تمثلتهم .

وظيفة الحرب التدميرية

ان الوظيفة الدائمة للحرب هي « الدمار » . ونحن نجدها في جميع النزاعات المسلحة ــ الكبيرة والصغيرة ــ وفي الحروب الدولية والحروب الاهلية . غير ان بعض الحروب تأخذ أهمية خارقة ، تلك هي الحروب التي أدت الى دمار حضارة ما . وهذا النوع من الحروب ادى بالفعل الى تغييرات عميقة تهم تاريخ البشرية جمعاء ، وكان لها آثارا سياسية واجتماعية وثقافية .

ومع ذلك ، فان هذا الدور الحاسم ، لا يقتصر بالضرورة على الحروب العظمى التي تتميز بضخامة عدد المقاتلين والوسائل المستخدمة فيها . فاذا استعرضنا تاريخ اسبانيا ، نجد أن حروب شارل كانت الباهظة التكاليف ، خلقت آثارا سياسية هامة . فقد احدثت ، هذه الحروب ، توازنات جديدة بين الدول والسيادات والممالك الاوروبية ، كما احدثت نتائج اقتصادية وانتقال للثروات بين البلدان ، ولعبت دورا خاصا في مجال التبادل بين الحكومات والشعوب والاقتصاديات والثقافات المختلفة ، ولكن

العناصر البنيوية المزمنة ، التي تقوم عليها حضارة ما ، كاللغات والقوميات والديانات والتقاليد السياسية والقيم الاخلاقية والفوارق الاجتماعية ، كل هذه البنيات ، بقيت على حالها اجمالا .

وفي هذا الوقت ، حدثت تغييرات حضارية كبرى على المستوى الكوني ، على الرغم من انها كانت نتيجة حملات عسكرية ضعيفة نسبيا ، قوامها حفنة من الرجال بقيادة فاتحين عظام مثل : كورتيز [1] ، وبيزارو [2] ، في امريكا في القرن السادس عشر ميلادي ، وكذلك الأمر في القرن التاسع عشر بالنسبة لحملات كليف [3] ، وستانلي [4] ، ودوبرازا [5] ، وغالييني [6] ، ومارشان [7] ، ودودس [8] .

(١) هيرمان كورتيز (١٤٨٥ — ١٥٤٧) القائد الاسباني الذي احتل المكسيك وامبراطورية الآزتيك عام ١٥٢١ واصبح حاكما عاما .

(٢) فرانسيسكو بيزارو (١٤٧٥ — ١٥٤١) القائد الاسباني الذي احتل البيرو وتحتل على يد الثوار .

(٣) كليف دوبلاسي : جنرال انكليزي (١٧٢٥ — ١٧٧٤) أنشأ القوة الانكليزية في الهند واتهم بالاختلاس فانتحر .

(٤) ستانلي : انكليزي (١٨٤١ — ١٩٠٤) اكتشف افريقيا الوسطى واجتاز القارة السوداء من الشرق الى الغرب . ووضع نفسه تحت تصرف وخدمة ملك بلجيكا .

(٥) دوبرازا : مستعمر فرنسي (١٨٥٢ — ١٩٠٥) احتل جزء من الكونغو وأنشأ مدينة برازافيل .

(٦) غالييني جوزيف : مارشال فرنسي (١٨٤٥ — ١٩١٦) خدم في السودان ، واحتل مدغشقر ، واصبح حاكما عسكريا لباريس عام ١٩١٤ وساهم في انتصار المارن ، ثم اصبح وزيرا للحربية .

(٧) مارشان : جنرال ومكتشف فرنسي (١٨٦٢ — ١٩٣٤) اجتاز افريقيا من الكونغو الى نهر النيل وقام باخلاء فاشودا .

(٨) دودس الفريد : جنرال فرنسي (١٨٤٢ — ١٩٢٢) استولى على داهومي عام ١٨٩٢م .

كما شهد هذا القرن نوعا يشبه الغزوات البربرية ، وهي الهجرات التي قامت بها جماعات قليلة العدد من اوروبا لتستوطن في امريكا وافريقيا الجنوبية واستراليا ونيوزيلندا .

صدمة الحروب

ان دراسة الحضارات تساعد على اكتشاف المظاهر المتتابعة والتطور لهذا الاتحاد الوثيق الذي لا تنفصم عراه بين اشكالها والاساليب التي يُحس بها وتتصور وتُظهر (تعبر) اندفاعاتها في العنف الجماعي ، وتلقي الضربات المعاكسة .

وتصادف الحرب دائما عند احتضار وموت الحضارات . وهنا لا بد من التفكير ايضا بأولئك الذين يستفيدون من هذه الخاتمة المدمرة . ففي مثل هذه المناسبات يبرز على المسرح المناصرون للحروب والمنافحين عنها ، فهي بالنسبة اليهم « امتحان للشعوب » . ومن وظائف الحرب ، كما يدعي هؤلاء ، ازالة الاشكال الاجتماعية ، والدول ، والاعراق ، والحكومات المنهكة (المنحلة) لتخلي المكان للقوى الغضة ، ولاشكال من التفكير والتنظيمات الجديدة . وهذا يعني في النهاية اعطاء الحرب دورا خارقا يتعدى حدود البشر : « حكم التاريخ » او « حكم الاله » حسب العبارة الهيجلية التي اشتهرت في القرون الوسطى .

غير ان الامر ليس كذلك على الدوام ، فاذا كانت : « القوة مولدة

المجتمعات » ، كما تقول بعض الآراء ، فهي أيضا « مجهضة المجتمعات » في أغلب الاحيان .

وفي بعض الحالات لا يقدر أفظع أنواع العنف في ابطاء سير الحضارات او حتى تأخيرها .. وسرعان ما يكتشف المتخاصمون انهم لا يزالوا في نقطة الانطلاق بعد فاصل رهيب من المجازر البشرية والدمار .

والحقيقة انه يندر وجود الحقائق المطلقة في العلوم الانسانية . فعندما تزول احدى الحضارات ، لا يبقى الا التاريخ الذي كتبه الغزاة المنتصرون على هواهم ، ومن الطبيعي ان تهيمن على هذا التاريخ مبرراتهم وامجادهم . فلنتصور مثلا ما كان يمكن ان يكون عليه تاريخ « الحروب التأديبية » [1] ، لو كتبها القرطاجيون .

وفي ايامنا هذه أقدم أحد المؤلفين على القيام بمحاولة فريدة عندما حاول كتابة تاريخ « فتح المكسيك » من وجهة نظر « احد امراء امبراطورية الآزتيك » . وقد تمكن هذا الكاتب الموهوب [2] ، من اعادة تكوين العقلية الازتيكية ، ومبرراتها وآراء الشخصيات القيادية لهذه الحضارة

(١) الحروب التأديبية : اصطلاح أطلقه الرومان على صراعهم مع مدينة « قرطاجة » الفينيقية التي كانت تهيمن على القسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، بل ووسعت نفوذها وتجارتها الى الجزر البريطانية وشواطىء اوروبا الغربية ، وبحر البلطيك . وقد استمرت هذه الحروب طوال الفترة الواقعة بين عام ٢٦٤ ق.م وعام ١٤٦ ق . م عندما سقطت المدينة بيد الامبراطور الروماني اغسطس .

(٢) كتاب « سقوط النسر الازتيكي » للكاتب المكسيكي كارلو كوكسيولي .

البائدة بعد انتصار الفاتح الاسباني كورتيز ، كل ذلك بالاستناد الى بعض الحقائق والوثائق التي تم اكتشافها فيما بعد .

وهذه الظاهرة تتكرر بعد تدمير كل حضارة ، اذ يُفتح الطريق لدورة جديدة ، حيث يستعيد المنتصرون من اجازة طويلة الى حد ما يقضونها مع التاريخ .

والواقع ان الامر ليس تماما كما قال الشاعر (الفرنسي) يول فاليري بأن « الحضارات فانية » بل ان « الحضارات تختفي بالموت العنيف » ، لانها تنشأ وتنهار بشكل دائم تقريبا في أتون الحروب . وانه لمن المؤسف الا تتخذ البشرية حتى الآن ما يكفي من الحيطة للحيلولة دون هذه الطريقة الرهيبة . لذا نرى بأنها تستحق الدراسة بعناية فائقة .

حق العنف والعدو

ان أهم وأعظم وظائف الدول هي : حماية مواطنيها من العنف ، واحتكارها لحق استخدامه عند الضرورة في الداخل والخارج . وقد اختصت كل حضارة بأسلوبها الخاص لحل هذه المعضلة الهامة . والاساس الاكثر ثباتا في هذا المجال ، يكمن في المعتقدات الدينية والمبادىء الاخلاقية والقانونية التي تنظم استخدام العنف . ومنذ اقدم العصور عرفت المخلوقات (من حيوانات وبشر) نوعين من المبادىء التي تنظم العلاقات الاجتماعية :

الاولى : تتعلق بحق استخدام العنف . فما هو الاتجاه الذي يسمح او يمنع استخدامه ومع أو ضد من ؟ والواقع ان نظام التسلسل الاجتماعي بأبسط أشكاله ليس سوى « سلم » لحقوق التأديب القضائي .

ويوجد عند بعض فصائل الطيور [1] « نظام تسلسلي بضربات المنقار » ، اذ يحق بموجبه لبعض الطيور بأن « تنقر » غيرها ، ومن واجب الطيور الاخرى تلقي « ضربات المنقار » هذه دون ان ترد ، وقد كان من العدل ان تتمتع على الاقل بحق الفرار ! . وهذا ما تسميه قوانيننا بـ « الهيبة أو الاجلال » والنظام التسلسلي يكون مموها في بعض الاحيان ولايمكن تمييزه بوضوح ، وفي حالات اخرى نجد جماعات بشرية مقسمة الى قطاعات ، كل فئة منها منغلقة على نفسها ، وتسير وفق نظام وقواعد تميزها عن غيرها من الفئات .

اما الوظيفة الثانية للدولة : فهي تعريف العدو والصديق . وبمقدار ما تتكامل المجتمعات وتتنوع ، بمقدار ما تظهر العديد من الصفات الجديدة ، ولكنها ترتبط مع ذلك بالمخطط البدائي . ومن النادر الا تشمل التقاليد والنماذج الاصلية واللاشعورية ، لشعب ما ، على عدو تقليدي وراثي ، وهذه ظاهرة معقدة ، ثابتة نسبيا ، ترجع اصولها للحروب القديمة التي تمر بفترات هادئة وفترات حادة .

وعندما يمكن العثور على « سوابق » من كل الانواع ، كما هي

---

(١) وتسمى هذه الطيور بالتاريخ الطبيعي « الطيور الداجنة » ومنها الدجاج .

الحال في تاريخ القارة الاوروبية ، يصبح الأختيار امرا لا بد منه ، فكل امة كانت في بعض الاحيان ، وعلى مرور القرون ، حليفة او عدوة بعض (أو لجميع) جيرانها . وعندما تتضخم الروح العدوانية الجماعية وتستشيط من الغضب ، تكون النتيجة هي البحث عن « نقطة تطبيق » ، وهكذا يتغير العدو ، بتغير الظروف والاحداث . وهذه الطريقة معروفة في ميادين علم النفس ، وهي تقوم على طمس الأحقاد والنزاعات الماضية نحو البعض واحياءها وتنشيطها نحو العدو الحالي بكل الوسائل .

لكن حياة الحضارات ، بشكل عام والمجموعات البشرية ذات السيادة التي تتشكل منها هذه الحضارات ، يعتريها حالات من الهدوء والراحة ، وحالات من العدوانية والتوتر ، على شكل متناوب ، وتبلغ هذه الحالة الأخيرة في النزاعات المسلحة ، فتزدهر عندها « ظاهرة الحرب » .

ولعل من المناسب قبل البدء بدراسة العلاقات التاريخية من الحروب والحضارات ، تعريف « ظاهرة الحضارة » [١] ومكوناتها التي تساعد على تمييز وتصنيف مختلف الحضارات .

---

(١) — يرجى الرجوع الى الملاحق بهذا الكتاب للاطلاع على بعض التعاريف والمصطلحات

الفصل الثاني

في قلب الحضارات

لقد تواجدت حضارات مختلفة في الزمان والمكان . ولكن كيف يمكننا تصنيفها ؟ وهل يمكن تصور معايير ومقاييس تسمح بتمييز هذه الحضارات المختلفة ؟ .

صحيح ان عددا من المحاولات التي اجريت حتى الآن في هذا المجال ، اظهرت صعوبات هذه العملية ، ولكن تجديد وخصوبة طرق اقتراب « علم الحرب » يمكن ان تسمح لنا بدراسة التفاعلات بين الحضارات والحروب ، وهذه العملية هي محاولة مستحدثة وأصيلة لتحليل الحضارات .

ومع ذلك ، من الصعب جدا وضع تصنيف مرضي للحضارات ، وان اي من المعايير المقترحة لا يمكن تطبيقه بشكل أكيد وبدون الوقوع في الخلط المحتمل .

فهل يمكن الاعتماد على معيار « العرق » ؟ اننا نشاهد امام اعيننا بشراً ينتمون الى اعراق مختلفة جدا من السود والصفر والبيض ، ولكنهم

يستطيعون مع ذلك تكلم نفس اللغة ، بل وينتمون لنفس الامة ويتبعون نفس الدراسات ويؤمنون بنفس الديانة ، وهذه الحالة كثيرة الانتشار في الايام الحالية ، لدرجة لا تحتاج الى ذكر أمثلة عنها .

الحضارات أعلى من الثقافات

لا بد ، قبل كل شيء ، من تمييز الحضارة عن الثقافة ، فهي أوسع شمولا من الثقافة ، اذ تغطي مجموع الاشكال الاجتماعية وصنوف الحياة المختلفة . وكل حضارة تتميز عن غيرها بعقلية خاصة بها ، اي بمجموعة من المعارف والتقنيات والمعتقدات والقيم الروحية والاخلاقية والجمالية ، ولكل حضارة ايضا ، مفهوما خاصا عن التسلسل الاجتماعي « النظام الطبقي » .

وبالمقابل ، فان الثقافة ـــ بالمعنى الحديث للكلمة ـــ مرتبطة بفكرة الامة . ويمكن القول مثلا : « ان الحضارة الاوروبية تشمل الثقافات الانكليزية ، والالمانية والاسبانية والفرنسية والايطالية والبولونية والروسية والاسكندنافية .. الخ » .

وتعريف الثقافة هذا هو المفضل في الايام الحاضرة ، لانه يتلاءم مع مبدأ القوميات كما كان معروفا في القرن التاسع عشر ، اي انه يقوم اساسا على اللغة . ففي ذلك الوقت ، كان الناس ينظرون للبلدان التي تحتوي في

داخلها على عدد من الكيانات اللغوية ، على انها اكثر البلدان انقساما وضعفا .

وهكذا نجد ان الخرائط المكدونية في عام ١٩٠٠ ــ عندما كانت « المسألة الشرقية » تصم الآذان في السياسة الدولية ـــ كانت ، هذه الخرائط ، ملطخة ببقع متعددة الالوان لتبين تمركز القوميات في هذه المنطقة . وكانت نتيجة ذلك تقسيم مكدونيا ، بعد انهيار الامبراطورية العثمانية ، حسب ادعاءات جميع الدول القومية المحيطة بها : الصرب ، والبلغار ، واليونان الخ .. وكانت هذه الادعاءات تستند الى حجج دامغة .

والواقع ، ان الكيان اللغوي يساعد على تحقيق الانسجام في المجتمع ، فهو يسمح منذ الطفولة ، بتبني نفس الاساطير والرجوع لنفس الابطال والادباء والمؤرخين ، وبالتالي تبني نفس اساليب التفكير . ولكن التبديل في اللغة المستعملة في منطقة ما لا يعني بالضرورة انتقال هذه المنطقة الى نموذج آخر من الحضارة . وهكذا فاننا نجد تبديلا من هذا النوع ، في كل مكان من اوروبا ، وذلك بتأثير التعليم الجماهيري ، وسهولة الاتصالات ، واستخدام وسائل الاعلام الجماهيرية ، (الراديو ، والتلفزيون ، والسينما الخ) ، مما ساعد على محو اللهجات واللغات المحلية لصالح اللغة القومية الأم ولكن هذا التغيير اللغوي يتم دون ان يبدل الحضارة السائدة .

العناصر المكونة للحضارة

تشكل الحضارة مجموع الصفات والمزايا المشتركة لمجتمع او لمجموعة من المجتمعات ، وهي تتجاوز الثقافة وتغلفها . وهذه الصفات تمثل مجموع الحلول التي أوجدها او تبنتها مجموعة اجتماعية ما تندمج بشكل عام في « جو » واسع جدا ، ومكان جغرافي لفترة طويلة جدا من التاريخ .

وتستخدم هذه الاساليب المادية والتقنية ، والمفاهيم لحل جميع المشاكل التي يطرحها وجود هذه المجموعة : الاتصالات ، واصلاح وتوزيع الاراضي واستثمار الثروات ، وكذلك الحياة الاقتصادية والفكرية والدينية والسياسية .

وكل المجموعات البشرية تعمر صدورها الرغبة بالحياة والخلود ، وهذا العامل عنصر غير مادي وهو ضروري لكل حضارة لكي تولد وتحيا وتتطور .

وجميع العناصر المكونة للحضارة متفاعلة فيما بينها باستمرار وتتطور بوتائر متفاوتة بين السرعة والبطء .

علم الجمال

ان اول ما يسترعي انتباه المراقب الذي ينظر للحضارة من الخارج دون فكرة مسبقة ، هو صفاتها الجمالية ، وادراكها للجمال بشكل عام والاساليب الفنية المعبرة عنه . وتعتبر المؤشرات الخارجية ذات دلالة هامة

بشكل خاص .. لهذا نجد كتب الجغرافيا والتاريخ تمثل الاجناس البشرية من مختلف الحضارات بألبستهم التقليدية وحليهم ، وبمقدار ما تتواجد الازياء القومية ، يمكن التعرف من النظرة الاولى على الحضارة التي ينتمي اليها الافراد بواسطة البستهم وزينتهم (تسريحة الشعر والمساحيق المستعملة) وجمالهم الجسماني .

وينقسم هذا الاسلوب العام بدوره الى عدة اقسام :

فاللباس ، في كل مكان ، يمثل الاختلافات التي لها علاقات بالجنس او التسلسل الطبقي . وبمقدار ما تكون الحضارة قديمة ومغلقة تكون الاختلافات بالالبسة الالزامية بالنسب للمذهب ، والمرتبة والفئة الاجتماعية للافراد .

وحتى في الحضارات الراهنة ــ كالحضارة الاوروبية مثلا ــ هناك البسة وازياء معينة للوظائف والاختصاصات ، وتعتبر الطابع المميز لكل فئة من هذه الفئات .

وفي الحضارات القديمة ، كانت القوانين التي تحدد انواع اللباس صارمة جدا . فقد كانت بعض الاقمشة والشارات وأدوات الزينة ، وحتى بعض التسريحات ! وتربية اللحى والشوارب والشعور الطويلة والقصيرة والمجدولة والمسدلة تعبر بدقة عن الوضع الاجتماعي ، فبعضها مخصص او ممنوع على الجنس او الطبقة او الفئة الاجتماعية التي تنتمي اليها الافراد .

وكان الغزاة المغول يفرضون على الرجال ذو الاصل الصيني ، تربية

جديلة طويلة من الشعر في قمة جمجمتهم ، كاشارة مهنية تميزهم عن المغول المحتلين . وفي افريقيا السوداء التقليدية يميز الانتماء القبلي بوشم غير قابل للزوال .

وتعتبر المنشآت المادية ، والادوات ، والتماثيل ، والكتابات ، ذات اهمية خاصة بالنسبة لمفاهيم الجمال في كل حضارة .

ويأتي بعد علم الجمال كل ما له علاقة بالحياة المادية : كفن الطبخ وطريقة التغذية ، وصناعة الفخار ، والاواني والادوات المنزلية ، والمفروشات ، والمنشآت والادوات والآلات والاسلحة ، حيث يتم الجمع بين الفائدة المباشرة والصفة الجمالية .

وفي هذه الميادين ، تبدع كل حضارة اشكالا اصيلة خاصة بها وتتميز بها عن غيرها من الحضارات ، وعندما تزول فان هذه الاشياء تعود للظهور بفضل التنقيبات التي يقوم بها علماء الآثار على شكل تماثيل واواني وكتابات ونقوش .

تقسيم العمل

يرتدي توزيع العمل في المجتمعات اهمية خاصة لانه تعبير عن صفة مزدوجة : اقتصادية واجتماعية ، فهو اولا مرتبط بالتقنية الموجودة ، وبقدر ما تكون الحضارات بدائية يكون العمل الجسماني مجهدا ، وتكون الاعمال

الزراعية وأعمال النقل التي تتم بواسطة الانسان ، في أسفل السلم الاجتماعي . وفي أغلب الحالات يكون هناك نوعان من العبودية .

وتوزيع المهمات يمثل ايضا نوعا من التسلسل الاجتماعي يختلف بين حضارة واخرى . ففي الاقتصاديات المعاشية ــ التي لم تعرف البشرية غيرها مطلقا حتى ظهور المجتمع الاستهلاكي ــ كان التوزيع الغذائي يتم على اساس الانتماء الطبقي ، او الوظيفة الاجتماعية . وهكذا يأكل الافراد حسب طبقتهم او مرتبتهم . ومن هنا كان مرض الضغط (او زيادة الدم) محتكر للطبقات الاجتماعية العليا (السادة ؟ ، أما « فقر الدم » فهو المرض الطبيعي للطبقات الدنيا (العبيد) . وفي الموائد الدينية التي عرفتها عند حضارات المحيطات في عصور ما قبل الكولومبية [1] ، كانت الوقعات ومواد الغذاء توزع لكل فرد حسب مرتبته .

وفي الحضارات التي تتميز بالتسلسل الاجتماعي والطبقي ، كانت كل فئة من السكان منغلقة على نفسها ضمن قواعد خاصة تميزها عن غيرها ، وفي بعض الاحيان يكون التمييز بين الفئات لا يثير الانتباه .

الاختراعات والتقنيات

هناك عامل بشري حاسم آخر يلعب دوراً في تطور الحضارات :

---

(١) المقصود بعبارة عصور ما قبل الكولومبية : العصور التي سبقت اكتشاف كريستوف كولومبس للقارة الامريكية ، وهي تختص بشعوب هذه القارة التي كانت تعيش فيها قبل الأحتلال الاسباني والاوروبي .

الا وهو الاختراع . في ميادين تقنيات الادوات والاجهزة والاسلحة ، والملاحة البرية والبحرية والجوية والفضائية .

والاختراعات كانت في أغلب الاحيان من اسباب تغيير في الحضارات ، وهذه التغييرات يمكن ان يرافقها الهجرات الكثيفة في بعض الاحيان .

وهكذا كان انتشار الحضارة الاوروبية يزداد بشكل مذهل منذ القرن الثامن عشر بفضل تقدم الاسلحة والبناء البحري ! صناعة السفن .

وتستند كل حضارة على مجموعة من الاختراعات التي تتحكم بنشاطها المادي للانتاج والتسليح ، ولهذه الاختراعات اثر تراكمي . فاختراع التقنيات الجديدة لايلغي القديمة ، التي تبقى صالحة للاستعمال رغم تجاوزها . واذا صنفت صناعة الاحذية ـــ على سبيل المثال لا الحصر ـــ فان تقنية الاسكافي القديمة تبقى مستخدمة رغم قدمها .

وتأتي بعد ذلك عناصر التقنية . فكل حضارة انشأت أو استخدمت اساليب خاصة لاستعمال المواد ـــ الاحجار ، والاخشاب ، والمعادن ـــ ولتربية وترويض الحيوانات ، كذلك استعمال النباتات والزراعة . والتقنيات عموما يمكن استخدامها في اوقات السلم وفي زمن الحرب .

واخيرا فان التقنيات تميز الحضارات ولكنها لا تكفي لتصنيفها . فقبل ظهور الاسلحة النارية ـــ في القرن الرابع عشر ـــ كانت الشعوب

تقابل بعضها باسلحة متكافئة . وكان التفوق يعود للشعب الاكثر حضارة والاقدر على تنظيم الجيوش وادارتها في الحرب . ولكن هذه الشعوب المتحضرة كانت تسقط في اغلب الاحيان تحت وطأة وتهور الشعوب البربرية . ومنذ سقوط الامبراطورية الرومانية حتى ظهور تيمورلنك كان التفوق العسكري للخيالة (الفرسان) المدججين بالرماح وللشعوب البدائية الرحالة ! البارث ، والمغول ، والتتاز ، والهونس والعرب ، والاتراك ؟ . ويتأكد هذا التفوق في أغلب الاحيان بالفتوحات الواسعة مثل فتوحات جنكيزخان الذي امتدت امبراطوريته من الصين (في اقاصي آسيا) الى بولونيا (في قلب اوروبا) في الفترة الواقعة بين ١١٦٠ و ١٢٢٧م .

ولكن « المدفع » وضع نهاية للغزوات البربرية . فقد استطاعت موسكو تحرير روسيا من الاحتلال السويدي . وفي الصين حيث لم يستطع الجدار العظيم صد الغزاة المغول ، استطاعت المدافع الاولى (التي صهرها بعض الرهبان الجزويت الطليان) وضع نهاية لتدخل هؤلاء الفرسان المرعبين .

وهكذا فان الاسلحة النارية والسفينة البخارية هي التي مهدت لسيادة الحضارات الاكثر ثقافة وعلما كما ساعدت الشعوب الاوروبية التي اخترعتها ، على ان تفرض سيطرتها ، في القرن التاسع عشر ، على جميع الشعوب الاخرى ، وفي جميع القارات .

الطـــب

ان تقدم العلوم الطبيعية اعطى بدوره ميزة جديدة اضافة للحضارات . وفي هذا يقول الفيلسوف ديكارت : « ان التحول الحقيقي للظروف الانسانية سيأتي عن طريق الطب وعلم الاحياء » .

غير أن آثار هذا التقدم الطبي قد تصبح مخيفة ، عندما يحدث تفاوتا هائلا بين الولادات المفرطة وبين الوفيات بالاطفال بشكل خاص ، التي يمكن خفضها الى ادنى بفضل الطب ، كما هي الحال في عدد من البلدان الفتية ، وينتج عن هذا الوضع اختلال هائل في التوازن السكاني . وهذا الاختلال هو الصفة المشتركة الآن لجميع بلدان ما يسمى بالعالم الثالث على اختلاف مواقعها واعراقها ودياناتها وسياساتها .

بنيـــة الاســرة

تحتل بنية الاسرة ، وما يترتب عليها من نتائج طبيعية ، وشروط المرأة أهمية قصوى . ونحن لا نعرف حتى الآن مجتمعات « أمومية » بمعنى الكلمة الا في المجتمعات البدائية المنقرضة تقريبا .

أما المجتمع الابوي ، فيكاد يكون منتشرا في كل مكان في العالم ، ومن المرجح انه تكرس بتأثير الحرب ، حيث استطاع الرجل ان يأخذ

مكانه في الاسرة بسبب مساهمته في الحروب ، سواء اكانت هذه الاسرة قائمة على الزوجة الواحدة ، او تعدد الزوجات .

ولاسباب لايزال في معظمها مجهولة ، فان عادة الزوجة الواحدة تنتشر في منطقة محددة تماما تشمل الغرب الاوروبي وامتداداته الاوروبية وهي تنطبق تقريبا على البلدان المسيحية باستثناء الحالة الخاصة باليابان .

اما بالنسبة لعادة تعدد الزوجات السائدة في المجتمع الاسلامي ، واحدى نتائج الدين الاسلامي الاجتماعية . فقد كانت زيادة السكان من الطبقات الحاكمة تفوق مثيلاتها في الطبقات الشعبية . ويبدو ان اهمية الشخص تقاس بعدد زوجاته (كذا على ذمة المؤلفين ؟ ، وكان طبيعيا ان تحاول الطبقات الحاكمة الاحتفاظ لابنائها بجميع المهمات السياسية والادارية . وخاصة منها المهمات المغرية ذات الامتيازات ، الامر الذي جعل الارتقاء الاجتماعي ضعيفا .

أما في البلدان والمجتمعات التي تقوم فيها الاسرة على الزوجة الواحدة . فكانت ولادات الطبقات الحاكمة اقل بكثير من ولادات الطبقات الشعبية .

اساليب التفكير والمؤسسات

وللحضارات صفة ثالثة ، فيما عدا الصفة الجمالية والحياة المادية والتقنية ، وهذه الصفة تتعلق بأساليب التفكير والمؤسسات . ففي هذا

الميدان تتوقف معرفتنا للحضارات ، قبل كل شيء على الاوابد والآثار التي خلفوها لنا ، وبشكل خاص على معرفة هذه الحضارات للكتابة او عدم معرفتها لها والكتابة هي الاثر الذي يسمح بمعرفة ما اذا كانت عليه معارف وأساطير وتقاليد الحضارات البائدة ، وكذلك الطرق التي كانت كل منها تتصور العلاقات بين الآلهة والافراد والمجتمعات . وتظهر الاساطير والقصائد الشعرية والروايات والنقوش والكتابات ، ان الحرب كانت — ولازالت — اغزر الاتصالات بين المجموعات ذات السيادة — القبائل والمدن والدول والممالك — والحضارات . ذلك ان الحرب تفصل بقوة السلاح الحواجز التي هي القاعدة العامة في معظم المجتمعات الجاهلية . فقد كانت هذه المجتمعات مغلقة بشكل عام ، ويغلب عليها التعصب العرقي وكره الغرباء ، ولا تعرف المسامحة مع الآخرين ، بل تكن لهم دائما مشاعر عدوانية .

ففي الصين القديمة واليابان ، كانت السلطة تحكم بالاعدام على الاتباع الذين يتجرؤون على الخروج من مملكتهم او اذا ثبت ان لهم اية علاقة مع الاجانب .

وطبيعي ان تكون الحرب ، بعد ذلك ، وسيلة اجبارية للاتصال بين هذه الكيانات المتعادية ، وهي التي تفتح الطريق للتعارف وتبادل الخبرات والتقليد .

الاشكـال السياسية

كانت الانظمة السياسية شديدة التنوع ومتغيرة باستمرار ، بدءا من الحكم الفردي المطلق الشبيه بالاستبدادية الشرقية الى الجمهوريات الديمقراطية مرورا بكل أنواع الملكيات الليبرالية والدستورية .

وينطبق هذا الوضع على الشؤون الاقتصادية واشكال الانتاج . ففي اوروبا نشأ اسوأ نوعين من الانظمة السياسية في القرن الثامن عشر ، احدهما في انكلترا في فترة عودة الارستقراطية الشرسة ، ويقوم على عدم المساواة المفرطة بين المواطنين ، في أمة غنية جدا ، وصناعية جدا ، والثاني في الديمقراطيات السويسرية التي تميزت بفقرها المدقع وزهدها ، وخشونة عاداتها ، الى الحد الذي دفع المنظر الاكبر للديمقراطية ، جان جاك روسو الى القول : بأن البؤس والبساطة هما الشرطان اللذان يبرران وجود هذا النظام .

القدرة على الابداع والقدرة على التدمير

ان مستويات القدرة على الخلق والابداع من جهة ، والقدرة على التدمير والعلاقة القائمة بينهما ، تميز بين الحضارات ، وقدرة كل منها على تعويض خسائر الحرب والاوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية .

الوسط الجغرافي ــ السياسي وخطوط التصدع

يمكن ان نضم الاساسات الجغرافية ــ السياسية ، للحضارات ، الى مجموعة صفاتها الاكثر ثباتا واستقرارا . فتأثير المناخ الدائم ، وطرق المواصلات والتغذية ، كلها تتحكم بالصفات الاساسية للمجتمعات البشرية الموجودة فوق سطح الكرة الارضية . ولا يقتصر ذلك على اساليب العيش والتجمع فحسب ، بل على المجابهات فيما بينها او انفصالها عن بعض .

ان الوسط الجغرافي الذي يروي ويزود بشبكات للري والمواصلات يعبر احسن التعبير بهندسة هذه المنشآت عن الحضارة واتجاهاتها ، كما تؤمن نقل الافكار والتقنيات وانتشارها وانسجامها ومدى مقاومتها ودفاعها الداخلي ، وتساهم بدفاعها الخارجي وتوسعها ، ولكنها بالمقابل ، تعرضها الى خطر النفوذ الخارجي والاعتداءات من قبل الحضارات المجاورة .

ومن الجدير بالذكر ان بعض المميزات الجيوبوليتيكية (الجغرافية ــ السياسية) تبقى ما بقيت الحضارات ، ويمكن ملاحظة حدوثها في الحضارات المتعاقبة في نفس المناطق . وقد لاحظ المؤرخ ي . ف . غوتييه **« انه بعد صراعات عنيفة متعددة ، نشأ الانفصال في القارة الاوروبية**

بين الدول الكاثوليكية والدول البروتستانتية طبقا لخط جدران الحدود الرومانية تقريبا »[1] .

وهناك ملاحظة اخرى لنفس المؤرخ تقول : « **ان المناطق التي استقر فيها الاسلام بصورة دائمة في حوض البحر الابيض المتوسط هي التي آمنت لفترة طويلة من الزمن بمذهب آريوس »[2] .**

وهكذا نرى ان الاتجاهات الفكرية تتوالد من جديد خلال فترات مديدة من الزمن ، فتأخذ أشكالا جديدة ضمن نفس الاطار الجغرافي ــ السياسي .

أما ما يتعلق بـ « المجابهات » فان « خطوط التصدع » هي الموطن الدائم تقريبا للصدامات الكبرى بين الجيوش عبر مسيرة التاريخ ، وهي ايضا اماكن مرور الغزوات والهجرات الكبرى . وحول هذه الخطوط تتكرر النزاعات الكبرى ، مثل النزاعات التي وقعت على جوانب نهر الرين ، ونهر الدانوب ، وبحر المانش ، وبصورة خاصة ، البحر الابيض

---

(١) اقام الرومان خطا منيعا من الجدران لحماية الامبراطورية من غزوات البرابرة في شمال القارة الاوروبية في القرن الثاني الميلادي ويمتد تقريبا من منابع مصب نهر الراين ومصب نهر الدانوب على البحر الاسود .

(٢) آريوس : كاهن ولد في الاسكندرية عام ٢٥٦ ميلادية وتوفي عام ٣٣٦ م واسس فيها طائفة الاريين المسمى بمذهب الاريانيسم الذي ينكر وحدة جوهر الاقاليم الثلاثة كما ينكر الوهية السيد المسيح .

المتوسط ، والبحر الاحمر ، وبحر البلطيك ، حيث إصطدمت حولها الحضارات تباعا طوال قرون عديدة .

ويمكن المقارنة بين هذه الخطوط وبين التصدعات المحيطية التي تقسم الكرة الأرضية وتشق قيعان المحيطات ، وحولها تحدث الهزات الارضية وثورات البراكين .

غير ان هناك انواعا من « التصدعات » التي تحدث بين مختلف المجموعات البشرية ، ويأتي في المقام الاول منها : الحدود الفاصلة بين الاعراق بالمعنى البيولوجي للكلمة . والاعراق هي المخلوقات الاجتماعية العرقية ، التي تنتمي لنفس الحضارة وتنطق نفس اللغة وتملك نفس الثقافة وتتعايش لاجيال عديدة وتنتهي الى خلق كيانات اجتماعية بيولوجية حقيقية تحتوي جميع انواع التمازج السكاني الذي عرفته طوال تاريخها .

وعلى هذا الاساس يمكن تمييز خط تصدع بشري ، يمر عبر الصحراء الكبرى ليرسم الحدود الفاصلة بين الاعراق البيضاء والاعراق السوداء ، او الخط الذي يفصل بين الاعراق البيضاء المنغولية عبر هضاب وفيافي آسيا الوسطى .

وان استقرار هذه « التصدعات » البشرية يعود لاسباب متغيرة وعديدة ، وتعود في الغالب الى انواع الحياة التي يفرضها المناخ والموارد الطبيعية .

وفي الماضي كانت هذه الحواجز لا يمكن التغلب عليها لان حياة

الناس تتحكم بها الى حد بعيد عوامل طبيعية بيئية ، اما الاعراق التي استطاعت التكيف وقهر بعض هذه العوامل فقد نجت وتطورت . ومن الامثلة في هذا المجال يمكن القول ان اختراع وسائل التدفئة المستمرة سمحت باستيطان المناطق التي كانت لا تصلح للاستيطان مثل كندا وسيبيريا . يضاف الى ذلك عامل المرض : كالسل القاتل للسود الذي يستوطن في شمالي الصحراء الكبرى ، والحمى الصفراء ، والامراض الاستوائية المرعبة بالنسبة للبيض . وفي القطب الشمالي استطاع شعب الاسكيمو وحده التكيف على المناخ ، ولايزال هؤلاء يعيشون على الصيد ويشكلون قبائل صغيرة قليلة العدد . اما سكان الصحارى والهضاب فهم من القبائل الرحل التي تعيش على تربية الابل وبعض المواشي .

ويبلغ تأثير العوامل الجغرافية ــ السياسية الذروة في الحروب الكبرى التي تولد وتنضج على جوانب خطوط التصدع . وهذه الخطوط ليست اسطورية بالنسبة للتاريخ ، ولكنها خطوط اجناس بشرية واجتماعية ، وهي التي كانت سببا في تغيير الحضارات . ففي العالم الغربي ، على سبيل المثال ، شهد التاريخ الفتوحات الرومانية والغزوات البربرية ، والفتوحات العربية والتركية (الاسلامية) واخيرا الفتوحات الاستعمارية[1] .

---

(١) درس معهد « علم الحرب » تطور الجبهات العدوانية هذه منذ عام ١٧٤٠ حتى عام ١٩٧٤ . وفي الكتاب الذي صدر عنه بعنوان تحدي الحرب عام ١٩٧٨ .

العقليات هي الأساس

تتميز الحضارات بواسطة العقليات السائدة والمعروفة عنها ، وهي عبارة عن مجموع المعارف ، والافكار والمفاهيم والقيم . وتشتمل العقليات عامة بما فيها العقليات البدائية جدا على ثلاثة عناصر تشكل اطارها الدائم .

العنصر الاول : يمكن ان يطلق عليه « علم الكون » ، أي الشروح والمعارف الصحيحة او الوهمية المتعلقة بالكون واصوله وبنيته وعمله .

والعنصر الثاني : يتألف من التقنيات بجميع اشكالها ، أي مجموع السبل والعمليات والاساليب المستخدمة للتأثير على المادة او الجسم البشري .

أما العنصر الثالث : فيرتبط بالاخلاق التي تشمل جميع الاحكام والقيم والقواعد الدينية والعادات والقوانين المنظمة للعلاقات بين الناس .

والعقليات هي العنصر الاكثر استقرارا للحضارات ، فهي تلتصق بالاشخاص وتقاوم الضغوط والانفصال . ولهذا « لايمكن التغلب على

الآخرين دون اقناعهم » ومن المعروف ان روبنسون[1] احتفظ بعقليته وهو معزول عن العالم في جزيرة خالية .

وتهدف كل « عقلية » لان تكون « كُلا » متماسكا ، وهي بناء منطقي تتداخل فيه الاجزاء بعضها ببعض ، ولا يمكن فصلها الا بالتقليد او الاكراه او التلقائية . هذا مع العلم ان الاختراعات والاكتشافات التي جاءت مناقضة للمعارف السائدة احدثت خللا في توازن العقليات وادت مع الزمن الى ايجاد عقليات جديدة .

البقـــاء والتداخـــل

على الرغم من وجود عقلية عامة ، يمكن ان نلاحظ ، بين مختلف المجموعات البشرية التي تنتمي لنفس الحضارة ، اختلافات عديدة موزعة بشكل غير متساو . لذا يجب التساؤل فيما اذا كان العنصر المَميز لحضارة ما يتكونِ من « تقنياتها المتقدمة » أم من « تقنياتها وعقلياتها » الاكثر انتشاراً؟ .وبمعنى آخر : من هو الانسان الاكثر تمثيلا للحضارة ؟ اهو الفرد المتوسط أم النخبة ؟ . وهذا السؤال نفسه يُطرح أيضاً في مجال

---

(١) روبنسون كروزويه : عنوان قصة للكاتب دانييل دوفو (١٧١٠٤ م) مستوحاة من مغامرات نجار امكوسي يدعى سيلكريك ، نجا من الغرق فوجد نفسه وحيدا فوق جزيرة خالية ، واستطاع ان يقضي فيها ٢٨ عاما وان يمارس حياة سعيدة قبل ان تنقذه احدى السفن ويعود الى وطنه .

« علم الجمال » والايديولوجيا ، والعلوم والتقنية . وقد طرح بالفعل مؤخرا بشكل ملموس ، عندما جرى النقاش حول « دور بيوت الثقافة » . وكانت هذه البيوت ، عندما أنشئت ، مخصص لجماهير الشعب ، ولكن الكثيرين اصبحوا يميلون لجعلها مخصصة للطليعة ، وللرسم التشكيلي ، والموسيقى الحديثة (ذات الاثنا عشر صوتا) والمسرح الطليعي[1] ، هذا على الرغم من ان هذه الاشكال الفنية لم تُختبر بعد ولا تهم الا أقلية من الاختصاصيين او ممن لديهم بعض الالمام بهذه الفنون .

ومن هنا تأتي خيبة الامل عندما نلاحظ فقدان حماس الجزء الاعظم من الجمهور الذي اريد تثقيفه ، بفتح المجال امامه للاطلاع على هذه المنتجات الطليعية الحديثة ، الغامضة بالنسبة اليه .

ان ذلك نوع من الخلط والتمثل المغلوط للتقنيات العملياتية والصناعية التي تفرض نفسها بسرعة على الجميع بفعالياتها القابلة للقياس ، اما القيم الجمالية والاخلاقية التي تعودِ للتقاليد فتلقى اجماعا واسعا ، ولا تتبدل في الرأي العام ، الا ببطء شديد . فقد كان لا بد من قرون من التبشير وصلت الى حدود الاستشهاد ، لكي تنغرس في النفوس القيم المسيحية القائمة على التسامح والحرية ، وتتشكل بذلك عقلية جديدة مناقضة لعقلية القرون الوسطى . وبالمقابل ، كانت عدة سنوات كافية

---

(١) هذا المسرح امريكي الاصل يتطلب اشتراك الجمهور فعليا بالتمثيل وغايته اثارة احداث تؤدي الى خلق فني مرعب .

لكي يعترف الجميع بتفوق تقنية الخطوط الحديدية على العربات التي تجرها الجياد والعربات الفاخرة والطنابر التي تجرها الثيران .

وبمعنى آخر ، يبدو لنا أنه لا بد من التمييز بين التقنيات من جهة والمعتقدات والقيم من جهة اخرى ، في مجال تصنيف وتقدم الحضارات .. فبالنسبة للتقنيات يرجع الفضل في احداث التحسينات العملياتية ، لنخبة من البحاثة والعلماء ، وهي تفرض نفسها وتنتشر بسرعة عظيمة ، غالبا ما تتم في عهد جيل واحد . اما في مجال « القيم » فان الامر على عكس ذلك تماما ، اذ لا بد من الاخذ بعين الاعتبار العقلية المتوسطة ومدى مقاومتها للتغيير ، والشيء الطبيعي ان تكون التغييرات في هذا المجال اكثر بطئاً لانها تعتبر اساسا في الشؤون العاطفية والفكرية ، اما التقاليد والعادات الجمالية العميقة فتنتقل ببطء من جيل لآخر .

أما طرق المعيشة (أو ما يسمى باللغة الدارجة ــ الموضة) فليسبت سوى استثناء ظاهريا وتقليدا سطحيا ، تختفي ، في اغلب الاحيان ، بنفس السرعة التي تظهر فيها ، وهي تتوقف على المواصلات ، ومن هنا تأتي سرعة انتشار احداها واختفاء الاخرى في ايامنا الحاضرة ، وذلك بفضل وسائل الاعلام وكثافة الاختلاط بين السكان .

فـروع الحضـارة

ان تفاوت سرعة تبدل مختلف الاجزاء المكونة لعقلياتنا ، توضح

مدى التباين او التنافر الذي تتميز بها كل حضارة . فالاشياء الحديثة ــ المقلدة او المخترعة ــ تنتشر بسرعات متفاوتة في مختلف قطاعات الرأي العام .

والحالة الاكثر غرابة هي النهضة في أوروبا الغربية ، فحتى ذلك الوقت كان رجل الدين والنبيل والفلاح في هذه الانظمة الحضارية الثلاثة يعتنقون نفس العقيدة ، ومع « النهضة » اصبحت الثقافة واللغة الجديدة تتم خارج التفاهم الشعبي لانها بقيت حية بعد القرون الوسطى . وقد تكرس هذا الطلاق الى حد كبير حتى أيامنا الحاضرة . وكان لا بد من بذل جهود تعليمية جماهيرية هائلة لردم هذه الهوة ، وقد تم ذلك خلال القرن التاسع عشر بفضل الانقلابات الجذرية في الحربين العالميين والتمازج الواسع بين السكان .

ان عملية بقاء الحضارات القديمة ، تشبه تنضيد الطبقات التي تتوضع فوق بعضها البعض خلال قرون عديدة . وعندما اعيد اكتشاف هذه الحضارات مؤخرا ، لوحظ انها متواجدة في الحضارات الحديثة تقريبا رغم سباتها الطويل . ويمكن للمزايا الحضارية الرئيسية ان تظهر من جديد في الازمات الصعبة ، والمعاناة النفسية والاجتماعية المولدة للرعب والقلق . وفي هذه الحالات يمكن ان نشاهد عودة ظهور ما يسميه العالم النفساني « يونغ » [١] بـ : « النماذج التاريخية المثالية » .

---

(١) يونغ : عالم نفساني وطبيب سويسري (١٨٧٥ ــ ١٩٦٢) ويعتبر احد مؤسسي علم التحليل النفساني .

وفي الدول العظمى الحديثة ، يمكن العثور على جميع انواع المجتمعات البعيدة عن « الحضارة الرسمية للدولة » ، وهي ترتبط من نواحي عديدة الى هذه او تلك من الحضارات القديمة . وكذلك الامر بالنسبة للعادات والذكريات الجماعية والعقليات والحالات النفسية ، التي ترجع كلها للنماذج المثالية القديمة . وتتفجر فجأة من الذاكرة تبعا للظروف .

العصــور البشريــة

من الامور المتفق عليها ، قبل الحضارات التاريخية ، التمييز بين « العصور » ، وهذا النوع من التمييز غامض جدا ولكنه يتلاءم مع اوضاع انسانية بعيدة جدا لا نعرف عنها الا الاشياء التي وصلتنا مؤخرا عن طريق بعض الآثار النادرة . وقد صنفت هذه العصور على اساس « التقنية المادية السائدة » كتقنية الادوات والاسلحة . فالعصور الحجرية ، تبدو لنا بأنها تتفق مع حياة بدائية جدا . ويستثنى من ذلك حضارة الازتيك والانكا اللتان كانتا تمثلان حضارات ذات مستوى رفيع في الادب والفن رغم استعمالهما لاسلحة وسكاكين من الحجر ، كما كانتا تعرفان المعادن الثمينة .

وتأتي بعد ذلك « العصور النيوليتية » (أو عصور الحجر المصقول الاخيرة) وتمتاز بسيطرة الزراعة وتدجين الحيوانات ، ويليها « عصور البرونز » و « عصور الحديد » .

وقد عمد بعض المؤرخين المعاصرين الى تصنيف الحضارات بالنسبة للطاقات التي كانوا يملكونها . ومن هؤلاء المؤرخين : السيد مامفورد . وفي رأيه ان الطاقة الاولى والوحيدة التي عرفتها البشرية لفترة طويلة من الزمن كانت « طاقة الجسم البشري » وهي التي كانت تستخدم « للجر والعمل » كما كانت « القوة العسكرية الوحيدة » أيضا ، لان المقاتل (جندي المشاة الهوبليت اليوناني ، والفالانج المكدوني ، والليجيون الروماني) هو الممثل الاول في المعارك البرية ، بينما كانت السفينة التي تسيرها الرياح والمجاديف تهيمن في المعارك البحرية في البحر الابيض المتوسط .

وبعد طاقة الانسان العضلية ، جاءت « طاقة الحصان » (الفصل السابع ملحمة الحصان) .

وابتداء من العصر الوسيط وعصر النهضة اضاف الانسان الى هاتين الطاقتين المذكورتين ، طاقات جديدة استمدها من « الهواء والماء » .

بعد ان ظهرت صور الحصان على الصخور ، على شكل طريدة فحسب ، اذا به يظهر في بلاد الاناضول واشور ومصر مروّضا يستخدمه الانسان للركوب والجر . وهكذا ابتدأ « عصر الحصان » الذي استمر حوالي ثلاثة الاف عام . ومن المحتمل ان تكون « الفروسية » احدى الوسائل الرئيسية التي أنشئت بواسطتها الامبراطوريات الشرقية العظمى في عصور ما قبل التاريخ . وقد اعتاد الملوك الاشوريون والفرس والفراعنة ،

تمثيل انفسهم وهم يعتلون عرباتهم الحربية التي تجرها الجياد . اما أباطرة الرومان فيظهرون في النقوش والتماثيل وهم يركبون عربات تجرها اربعة خيول .

وكانت آخر فصل في تاريخ الفروسية المجيد الذي عرف معارك تاريخية فاصلة فمن ادرينوبل (١) الى فتوحات جنكيزخان ومن معركة القيلو (٢) الى رايخشهوفن (٣) ، كان هذا الفصل المأساوي في الحملة اليائسة التي شنها الفرسان البولونيون عام ١٩٣٩ ضد دبابات البانزر الالمانية .

ان ظهور المحرك في بداية القرن التاسع عشر ، ضاعف بشكل اعجازي القوى البشرية والحيوانية ، وبينما لم تتغير قوة الحصان الا قليلا رغم كل ما أحدث من تحسينات وتجديدات في السرج والمقود والركاب طوال الاف السنين التي تم فيها ترويض الحصان وتدريبه ، الا ان المحرك شهد تحسينات كبيرة رائعة في فترة قصيرة من الزمن . كما حدثت تغييرات هامة

---

(١) ادرينوبل : هي مدينة أدرنه التركية الحالية ، التي احتلها السلطان مراد الاول عام ١٣٦٠ م أعيدت لليونان عام ١٨٢٩ ، بموجب المعاهدة التي عقدها الاتراك مع قيصر روسيا ثم استعادها الاتراك بعد الحرب العالمية الاولى عام ١٩٢٣

(٢) القيلو : هي مدينة روسية حدثت فيها معركة طاحنة بين نابليون بونابرت والروس البورسيين في شباط عام ١٨٠٧ م . ولكنها لم تكن حاسمة .

(٣) رايخشهوفن : بلدة على الراين الاسفل . حدثت فيها المعركة التي التزم فيها ماكماهون أمام البروسيين في ٦ اب ١٨٧٠ وتشتهر المعركة بالانقضاض العظيم الذي قام به الفرسان الفرنسيين على القوات البروسية .

في القوى المحركة ، فبعد ان استعمل البخار في البداية ، اخذ الانسان يستعمل البترول ثم الكهرباء وهو يستعمل الذرة في الايام الحاضرة كوقود للمحركات .

اضطراب الحضارات

لقد ترتب على هذا الوضع الجديد زلزلة في البنى السياسية أولا ثم البنى العقلية للحضارات القديمة الامريكية والاسيوية والافريقية .

ففي القرن الخامس عشر بدأت تتهاوى حضارات الازتيك والانكا فور ظهور القوات الاسبانية بقيادة كوريتر ودوبيزار في اراضي القارة الجديدة .

وفي الصين ، كما يقول احد المؤرخين ، لم يبق هناك انسان يدعى « ابن السماء » ولا دولة تدعى « امبراطورية الاوباش » [1] .

أما اليابان فقد انضمت الى مدرسة الغرب ، بعد زيارات التهديد التي قامت بها السفن الحربية الامريكية لموانئها ، واندفعت بنفس الوقت في صناعة المدرعات والتضخم السكاني [2] .

---

(١) امبراطورية الاوباش : المقصود بها امبراطورية قطاع الطرق التي عرفتها الصين في القرن ١٩ .

(٢) منذ القرون الوسطى حدد اباطرة اليابان عدد سكان الارخبيل ب (٢٥) مليون نسمة وانه لا يجوز تجاوز هذا العدد في أية حال من الاحوال ، ولكن هذه السياسة اهملت في عام ١٨٦٨م وبدأ التزايد في عدد السكان يقفز قفزات ضخمة منذ ذلك التاريخ في اليابان .

ومع ذلك فان الامبراطوريات (غير الاوروبية) التي سعت لتقليد الحضارة الغربية ، لم تفعل ذلك بمحض ارادتها ، ولكنها تخيلت ان ذلك هو الوسيلة الوحيدة لانقاذ او استعادة قوتها ومجدها القديمين .

وقد ارادت هذه الامبراطوريات جميعها ، باستثناء الشعوب التي قهرتها روما ، الاقتصار على أخذ العلم والتقنيات الغربية ، ونبذ اسلوب معيشتها وافكارها الاخرى ، او بمعنى آخر تطبيق العلوم والتقنيات على عقليات ومؤسسات قديمة بالية حرصوا على الاحتفاظ بها بكل ثمن .

كانت الامبراطورية العثمانية اسبق من اليابان في محاولتها لتقليد الحضارة الغربية ، فقد اراد صغار ضباط الجيش ، الذين تربوا على الطريقة الغربية ، المضي بالتقليد الى أبعد مدى ممكن ، وانتهى بهم الامر الى حد قلب نظام الحكم القديم .

وحدث مثل هذا الامر في دول شرقية اخرى كالصين ومصر ، ولكن محاولاتها لم تقترن بنتائج عملية دائمة .

الغرائز العدوانية

يمكن العثور في قلب جميع الحضارات على « العقد العدوانية » التي تتكون من طفرات العنف الفردية والجماعية ، ومن خصائص هذه

الطفرات انها تطغى عند ظهورها على جميع انواع التفكير العقلاني والفكر النقاد ، وتقضي على قدرة الانسان السليم التي يمكنه بواسطتها التحكم بالهزات ، وتقييم المخاطر بشكل صحيح ، وتترك وراءها شعورا وهميا « بالحصانة » يمكن ان نطلق عليه « عقدة أخيلا » .

وفي المجتمعات المنظمة تتميز الاحداث التي تنمي الروح العدوانية ، بالقدرة على ايقاظ « المركبات العدوانية الراقدة » في اللاشعور — أي ايقاظ الافعى النائمة كما يقول المثل الدارج — . ويترتب على هذا الوضع النفساني الجديد ، انبعاث المزايا المنحدرة من الحضارات البائدة ، التي كانت بمثابة الاساسات العميقة لعقليتنا .

ان التفكير العاطفي ، واستحواذ الخوف من الخطر (او ما يسمى بمركب ديموفليس) والاخطاء التي تتكاثر عادة في حالات الذعر ، كل ذلك يدفعنا للتفتيش عن « عدو مسؤول » نلقي عليه مسؤولية مخاوفنا واخطائنا .

وهكذا تطغى على تفكيرنا بصورة لا شعورية جميع هذه الاستدلالات الخاطئة . وتنبعث من جديد عادات الطقوس الدينية والاضاحي التي تقدم للآلهة لنيل شفاعتها او للتكفير عن الخطايا ، التي كانت مستعملة في المجتمعات القديمة البائدة .

ويذكر التاريخ ان مجلس الشيوخ الروماني (السينا) أمر باحياء

طقسي قديم يرجع الى شعب الايتروسك[1] قوامه « دفن عدد من العبيد وهم احياء » ، وكذلك في الفترة التي كان فيها جيش هانيبال (القرطاجي) يهدد العاصمة روما بالدمار ...

والحقيقة التي لا بد من الاعتراف بها ، هو اننا لا نعرف من الحضارات الا « الواجهة » التي تتلاءم الى حد ما مع « قمة الهرم المبتورة » او بمعنى آخر ما كان يتلاءم مع الطبقات العليا الحاكمة في معظم الحضارات .

وفيما عدا ذلك ، هناك اللاشعور والظلام والتشوش ، وما تبقى من ارث الحضارات السابقة مما يذكرنا بمجدها او شقائها ، وهي أشياء مستعدة للانبعاث من جديد لاسباب يسعى « علم الحرب » لكي يحدد : الوسط او البيئة والظروف التي يستحوذ فيها الخوف والعاطفة على الناس . ففي مثل هذه اللحظات تسود فيها اقصى واكثف انواع الخلط والاضطراب ، وتتفجر فيها العواطف الجماعية الهوجاء .

لذا فاننا نلاحظ في أوقات الحرب ، ظهور نوع من تسارع الذعر بالافكار والاعمال حيث يختلط فيها بشحنات غير متوقعة ، وغير متكافئة ، كل ما ورثناه من الحضارات البائدة .

---

(١) الايتروسك : شعب ظهر في اواخر القرن الثامن قبل الميلاد في توسكان (شمالي ايطاليا) ، وأنشأ مدنا غنية ، ومدوا سلطاتهم حتى سهل اليو . ولكن روما استطاعت اخضاعهم في الفترة الواقعة بين القرن الخامس والقرن الثالث قبل الميلاد .

اما أولئك الذين ارادوا تصنيف الحروب وفق الحضارات المختلفة ، فقد اقتصروا ، في الواقع ، على وصف التقنيات المتقدمة والاسلحة المتطورة والاختراعات الحديثة ، وغاب عن اذهانهم ان وراء هذه المنجزات المادية تكمن « مواقف الاجداد المتراكمة منذ العصر الحجري » والتي تبقى قابلة للانبعاث من جديد في المحن والأزمات الكبرى .

ومن المعروف ان جميع المدارس العسكرية في العالم ، تدرس النماذج والنظريات الاستراتيجية منذ اقدم العصور حتى أيامنا الحاضرة . وفي ميدان السياسة الخارجية يرجع عادة الى الحروب القديمة والخطب التي ألقاها ثوسيديد[1] ، والصفحات التي كتبها ماكيافللي[2] ، لانها لاتزال صالحة حتى اليوم بل هي مليئة بالعبر والدروس ، وتفوق بفائدتها كتب المؤلفين المعاصرين .

ولدراسة العلاقة العضوية ــ التي لا تنفصم ــ بين الحروب والحضارات لا بد من الرجوع الى الحضارات البعيدة بما في ذلك حضارات ما قبل التاريخ ، والصعود منها الى الحضارات الحديثة القائمة .

(١) ثوسيديد : مؤرخ يوناني ولد في أثينا عام ٣٩٥ قبل الميلاد وهو مؤلف « تاريخ الحرب البيلوبونيزية » وقد اشتهر بموضوعيته . ويعتبر من أعمق المؤرخين القدماء.

(٢) ماكيافللي : رجل دول ومؤرخ ايطالي ولد في فلورنسا (١٤٦٩ ــ ١٥٢٧) ميلادية شغل عدة مناصب سياسية ودبلوماسية في حكومة فلورنسا . اعتزل العمل السياسي والف كتابه المشهور « الأمير » والذي يوحي بأن الغاية تبرر الوسيلة في ميدان السياسة .

الفصل الثالث

جولة عبر العصور والحضارات

الاجداد : ما قبل التاريخ القبلي

الاجـداد الاوائل

يذكر المؤرخ الفرنسي جان بيير ، في كتابه عن « الحرب وتطوراتها » :

« ليس لدينا سوى القليل النادر عن الصراعات التي اصطدم فيها البشر في العصور القديمة جدا . وما من شخص يمكنه وضع نماذج الهجرات والاضطرابات والمكائد التي اشتبكت واختلطت فيها الاقوام والقبائل والمجموعات البشرية خلال آلاف السنين ، في أماكن عديدة ومتباعدة » .

ويعتقد المؤرخ الالماني ستيغمن في كتابه حول « الحرب وطبيعتها وصفاتها عبر القرون » :

« ان الحرب تبدو للناظر كحالة طبيعية جدا وبدائية جدا . وكان بودنا ان نتعرف على النزاعات القديمة كما وقعت بالفعل في الازمنة الموغلة في القدم ، ولكننا — بكل اسف — لانملك اية معطيات تسمح لنا بتكوين فكرة صحيحة عن هذه النزاعات . لذا لا بد ان نبحث عن الكائنات

البدائية والحيوانات الاكثر تنظيما لكي نستخلص العناصر الاساسية التي يمكن ان تفسر لنا ردود الفعل عند اجدادنا الاوائل ومواقفهم وتصرفاتهم الحربية » .

ان الحيوانات الثديية الضخمة ، وحتى تلك التي تعيش كجماعات مثل السعادين ، أو كقطعان مثل الثور الامريكي والوعول ، لا تقدم لنا مطلقا اية معطيات مفيدة عن تصرفات الحيوانات .

فاذا كانت خلال تنقلاتها وهجراتها تدمر او تقتل كل ما يعترضها من حواجز فليس لديها الا تلك القوة العاتية العمياء . والغريزة وحدها هي التي تدفع هذه الحيوانات للهجرة والتنقل ، غير انه لا يبدو ان لديها اي مخطط مسبق او اية سلطة تدير العمليات المتفق عليها .

وفي بعض الاحيان يمكن مشاهدة بعض الحالات التي تجري فيها معارك منعزلة بين الذكور الذين يتنافسون على الاناث او يدافعون عن مرعى ما ، ولكن هذه الحالات أيضا ليس فيها أي أثر للتفكير العسكري في أبسط صوره البدائية المتخلفة .

ومع ذلك يمكن ان يلاحظ عند بعض انواع الفئران ، خضوع لتنظيم ما ، يكاد يكون واضحا .

وهذا يقودنا للتفكير بأن الحرب لا ترجع جذورها العميقة للجانب الحيواني لدى الانسان ، ولكنها تكمن في طبيعة الانسان نفسها ، وفي واقع كونه يعيش في مجتمعات عاقلة ومنظمة ، كما ترجع بنفس الوقت الى

ما ورثه عن اسلافه منذ الولادة وما اكتسبه خلال تاريخه الطويل .

الحشــرات الاجتماعية

ان الحشرات الاجتماعية هي التي تقدم لنا الامثلة الواضحة والمعطيات الدقيقة حول سلوك « المحارب » في الكائنات الحية البدائية .

فالنمل مثلا ، يعيش في مجتمعات منظمة ، وهو يعمل ويجمع الثروات لصالح الجماعة ، حسب قواعد تبدو ثابتة ومرسومة مسبقا (مخططة) بشكل صارم . وعلى هذا الإساس نرى ان جماعة النمل لديها شيء ما يجب الدفاع عنه ضد مطامع الجوار . وهناك جماعة اخرى من النمل ، تسعى ، على عكس ذلك ، للاستيلاء على ثروات الاخرين المكدسة ، واسر العمال لاستخدامهم كعبيد .

ويلاحظ عند هذه الانواع من النمل (النمل الاشقر ، والنمل الاخضر الضارب الى الزرقة ، والنمل الاحمر القاني بلون الدم) انها تشن حملات منظمة ذات طابع عسكري واضح ، اما اعداؤها او بالاحرى فرائسها ، فهي النملة العاملة السوداء الرمادية .

والنمل المحارب يهاجم الحشرات المماثلة للاستيلاء على صغارها وتسخيرهم كعبيد . وتستخدم في هذه الاعمال العدوانية أسلوبا لا بد ان

يكون خاضعا لارادة قيادية ، لان هذه العمليات تتم بذكاء وتنسيق على الشكل التالي :

تسير ارتال النمل باتجاه واحد ، ثم تقوم بالهجوم دفعة واحدة على القلعة المقصودة (او عش النمل المعادي) ، ويجري بعد ذلك تدمير المدافعين المتمركزين في الداخل ، ونهب الاغذية المخزونة ، واسر صغار النمل .

وفي بعض الاحيان يستولي الرتل المهاجم على عش النمل المعادي ، ويبدو ذلك وكأن الهجوم يطبق وفق خطة عمليات موضوعة مسبقا وتنفذ حرفيا .

وهذا المثال الذي أوردناه عن عالم « النمل » هو تجسيد لما يمكن ان تكون عليه الحروب ذات الاهداف الاقتصادية . ليس في عالم الحيوان فحسب ، بل وفي عالم الانسان البدائي ، وهو يعطي صورة عما يمكن ان تكون عليه تصرفات المحارب في المجتمعات الانسانية البدائية في عصور ما قبل التاريخ ، وهو يشكل بداية لتطور الحروب عبر العصور .

مساهمات العرافة (أو علم خصائص الشعوب)

ان الملاحظات التي وضعها علماء الاجناس حول المجتمعات البشرية البدائية جدا والتي يصادف بعضها في هذه الايام ، تلقي بعض

الاضواء حول « حرب البدائيين » . فعادات هذه الجماعات البشرية ــ الموجودة في أفريقيا واستراليا وغينيا الجديدة ــ تختلف تماما عن عادات المجتمعات البشرية الاخرى على الرغم من الحضارات المجاورة لها غيرت عندها بعض الشروط البدائية . ويؤكد العلماء ان هذه المجتمعات وجدت في حالة « انعدام الحرب » الامر الذي غير سلوكهم وعاداتهم .

وفي اواسط غينيا الجديدة يوجد جماعات قريبة جدا من الحياة البدائية ، حيث تفرض التقاليد والعادات على الفتيان الشباب ان يبرهنوا على كفاءاتهم كمحاربين وذلك يغزو جماعة اخرى ويقتل احد افرادها ويحمل رأسه الى قبيلته كرمز لقوته ورجولته وقدرته على القتال .

وهذا التقليد يحافظ عليه من جيل الى جيل كفضيلة تضفي على صاحبها مجدا خاصا وكان هذا التقليد معروفا لدى شعب الغولوا عندما يخوضون حربا منظمة ضد اعدائهم ، أما هؤلاء الفينيون المتخلفون ، فيمارسون هذا التقليد افراديا وبشكل معزول لا علاقة له بالحرب المنظمة .

وفي المغرب العربي قام بعض العلماء الفرنسيين بدراسة قبائل الاطلسي في بداية فترة الانتداب الفرنسي ، ويمكن الاعتقاد ان « المحاربين البربر » كانوا انذاك بعيدين تماما عن الحياة المشابهة لحياة البدائيين في عصور ما قبل التاريخ ، لذا لا يمكن استخلاص نتائج مقبولة من الملاحظات التي أتت بها هذه الدراسة الحديثة .

وتؤكد المعلومات الموضوعية ان « المزاج العدواني » لدى الاقزام الافارقة ضعيف جدا في هذه الايام ، بينما كان هناك محاربون قساة متوحشون يمكن مصادفتهم في مختلف انحاء القارة الافريقية في زمن بعيد جدا .

وفي جزر المحيط الهادي تأخذ الحرب « شكل عملية صيد بشري » ويعتبر الانسان طريدة مخصصة للتغذية ، زد على ذلك ان « الغالب » يمكن ان يستفيد من خدمات « الطريدة المغلوبة » التي يتغذى بها عند الحاجة .

وفي افريقيا وامريكا كانت هناك بين وقت وآخر غزوات خاصة يقوم بها الداهوميون والازتيك ، للحصول على « الاضاحي » البشرية المخصصة لآلهتهم الجشعة .

وهكذا نصل ـــ في دراستنا ـــ الى حد الاعتقاد ، **ان اعظم شيء بالنسبة لعدد كبير من الحضارات البدائية ، هو « الحرب ! »** . فالشباب يربون من اجلها . وتنمى لديهم الافكار الراسخة بأنها « الاهتمام الرئيسي الامثل للانسان » ، وغالبا ما كانت تعطى الصفة المقدسة للمحارب وفق تطبيقات ومعتقدات واسعة الانتشار .

وكان الهنود الحمر في امريكا الشمالية يحملون عاطفة خاصة للحروب ، وكانت قبائلهم تمارس القتال طيلة ايام السنة ، ويمكن التأكيد بأنهم لو كانوا أحسن تسليحا لاستطاعوا ابادة البيض الذين غزوهم من قارة اخرى ، وهم مرتاحو الضمير ومرتاحين لسلامة وقوة عاداتهم الخاصة .

ملاحظـات معروفـة

إننا نجد عند المؤرخ اليوناني تيسيديد معلومات قيمة حول « اليونانيين القدماء البدائيين » ، اقتطفها من القصص الاسطورية ، وهي تعطينا فكرة عن سلوكهم وتصرفاتهم . يقول المؤرخ :

« لم تكن ارض اليونان في القديم مستوطنة باستمرار ، بل كانت مسرحا للهجرات . وكان السكان الجدد يهجرون الاراضي التي احتلوها دون مقاومة ، تحت ضغط المهاجمين الاجانب . ومن جهة اخرى كان اليونانيون كبقية جيرانهم من البرابرة ، يمارسون القرصنة في البحار ، بقيادة رجال افذاذ ، وفي البر ، كانوا يشنون حملات للنهب والسلب ضد البلدان المجاورة » .

ويضيف المؤرخ : « وكانت طريقة الحياة ، في اليونان القديم ، مشابهة تماما لحياة البرابرة » وكانت الحروب تجري بين مدن متجاورة ذات حدود مشتركة . ولم يذهب اليونان القدماء مطلقا الى بلاد بعيدة ليشنوا عليها الحرب او ليخضعوا شعوبها . وفي معظم الحالات كانت الحروب تؤدي الى احتلال المدن المعزولة والمجاورة لبعضها البعض .

واليونانيون لا يجتمعون على شكل ائتلافات متحالفة ومتكافئة بالحقوق والواجبات ، ولم يكونوا يجتمعون تحت قيادة المدن الاكثر قوة » .

ان هذا السلوك الذي يصفه المؤرخ تيسيديد يشبه الى حد بعيد

سلوك قبائل جزر المحيط الهادي التي كانت تتقاتل من جزيرة الى أخرى في حروب قبلية صغيرة ، تخلو من المغامرات الجماعية الكبرى .

لوحة بالعادات الحربية للقبائل السامية الاوروبية

كان العبرانيون أتباع « موسى » بمسالمين على صورة قائدهم . ولكن عاداتهم تبدلت في عهد القائد « يوشع » الذي كان يتصرف كفاتح شرس .

وهكذا يروي التاريخ ان سكان مدينة « أريحا » أبيدوا على يد جيش يوشع ، ولم ينج منهم الا القليل الذين استطاعوا الفرار واللجوء الى الجبال متخلين عن ثرواتهم واراضيهم ، التي وزعت على القبائل الاسرائيلية الاثني عشر .

وعندما شعرت هذه القبائل بتهديد الفلسطينيين اختارت قادة وملوكا لها مثل شاؤول وداوود . وفيما بعد كانت القبائل الاسرائيلية تقاتل بقيادة « الحكماء » للمحافظة على تراثها .

وفي شبه الجزيرة العربية حافظت القبائل العربية على النظام القبلي الذي بقي على حاله في القرون الاولى من عصرنا . وتتكون القبائل العربية من الاسر التي ترتبط برابطة الدم والمسؤولية الجماعية والحق وحتى واجب الثأر تثير النزاعات الدموية بين القبائل . وأحيانا تنشب الحرب بين قبيلة واخرى بدافع الرغبة بالثأر ، ولكنها غالبا ما تكون لاسباب وضرورات

حيوية : كالحاجة الغذائية ، او المرعى ، او بسبب الزوجات ، او العبيد .

والحرب عند القبائل العربية الرحالة ، تكون على شكل هجمات عنيفة مفاجئة تتلوها المذابح والنهب ، وتجري هذه الغزوات باعداد محدودة من المحاربين .

وقد جرت العادة ، توقف مثل هذه الحروب الصغيرة في فترات ارتحال القبائل والبدوي محارب بالفطرة وهو معتاد على الحياة القاسية المجدبة ويتحمل التقشف وشظف العيش .

وقد اعطى الدين الاسلامي لعرب الجزيرة شكلا جديدا للحروب ، كما زودهم بادراك جديد ، عندما اقترح عليهم تحقيق « هدف سام عظيم » ، فاذا بالقبائل المتناحرة تنصاع لقيادة واحدة وتنذر نفسها لهذا الهدف بحماس صوفي فريد .

وفي اوروبا الغربية اظهر النورمان والجرمان طبائعهم الحربية . فقد قام النورمان بغزوات بعيدة عندما سهلت تقنيات الملاحة مغامراتهم . وكانت مراكب « الفايكنخ » الضخمة تسير بالمجاديف والاشرعة ، وكانت اقدر على الملاحة في اعالي البحار من الزوارق الخفيفة السابقة .

يضاف الى ذلك ان النورمانديين حصلوا على تفوقهم باستخدام الاسلحة التي صنعوها من الحديد السويدي . وهكذا رأيناهم يركبون

البحر بشجاعة ويغزون سواحل الشعوب الاوروبية الآمنة التي لم تعتد مثلهم على الصراع .

وكان « الجرمان » بدورهم ، يعيشون مجتمعين على شكل قبائل رحالة مستقلة ليس لها اي ارتباط بالارض ، كما لم يكن بينها وحدة سياسية . وكان المجتمع الجرماني يحافظ على النظام الابوي ، القائم على العصبية العائلية . وكانت الاسرة منظمة بشكل صارم يوجب على افرادها الطاعة والتعاون المتبادل .

أما القبيلة الجرمانية ، فكانت تخضع لسلطة مجلس من القادة ، الذين يجري اختيارهم من قبل الجمعية القبلية . ويختص مجلس القادة ، باصدار الاحكام وتعيين الشباب المحاربين . ومن واجب هؤلاء المحاربين القيام بغارات النهب والسلب والقتال دفاعا عن القبيلة اثناء ترحالها . وتتحدث الاساطير الجرمانية ، عن الاسلحة التي كان يستخدمها المحاربون فتصفها بأنها كانت تتفوق على أسلحة بقية الشعوب ، وقد اعطتهم محسنات جعلتهم في طليعة المحاربين الاوروبيين القدماء .

الهجـرات

ان المصدر الوحيد للمعلومات عن انسان ما قبل التاريخ هو. الاعمال التي انجزها علماء الآثار لان الوثائق المكتوبة لم تكن متوفرة في تلك العصور .

وقد لاحظ هؤلاء العلماء ان السكان تبدلوا اكثر من مرة في بعض المناطق وان حضارة اختفت لتحل محلها حضارة اخرى دون ان تعرف الاسباب بشكل اكيد ودقيق . ومن المحتمل ان يكون ذلك بسبب الانسجام الاجتماعي والتفوق بالاسلحة او لاسباب وراثية بسيطة اصبحت بعض القبائل والاقوام اقوى من غيرها ففرضت نفسها على جيرانها وتغلغلت فيهم تدريجيا خلال فترات طويلة ، او حلت محل السكان الاصليين .

وهكذا انتشرت قبائل « السلت » ، التي كانت تعيش في اواسط اوروبا ، في بلاد الغول والجزر البريطانية وشمالي ايطاليا ، في منتصف « عصر الحديد » الثاني او اواسط الالف الاخيرة قبل الميلاد .

وقد استطاعت هذه الشعوب فيما بعد ازالة السكان السابقين او ازالة حضارتهم على الاقل ، وجعلت هذا الجزء من اوروبا الغربية سلتيا بكامله ، دون أن تلاقي أية مقاومة ...

وفي الهند وقعت احداث مشابهة دون ان تكون هناك حروب بالمعنى الصحيح ، فقط لوحظ تبدل السكان عندما قدمت قبائل الآريا من الهضاب الواقعة شمالي الهند واكتسحت البلاد وفرضت عرقها وحضارتها عليها .

وفيما بعد طرد الاتراك سكان الاناضول البيزنطيين باتجاه المناطق الساحلية واحتلوا كامل المناطق الداخلية من شبه الجزيرة .. وبعد عدة

قرون استطاعوا الاندفاع نحو البحر الاسود شمالا والبحر الابيض المتوسط غربا وأكملوا احتلال جميع الأراضي وحلوا محل السكان المسيحيين اليونان (وأنشأوا في بداية القرن العشرين الجمهورية التركية الحالية) .

ظواهر مماثلة حدثت في التاريخ الحديث

وفي القارة الافريقية ، طُردت قبائل البوشيمان من موطنها الاول . ونحن نعرف الآن الرسوم والنقوش التي خطها أجدادهم والتي تشهد على حضارة متقدمة عن حضارة الجماعات التي كانت تعيش على الصيد وقطف الثمار . لقد طرد شعب البوشيمان الى المناطق المعزولة من صحراء كالاهاري (١) من قبل قبائل البانتو (٢) الغزاة . وفي الزمن الحديث قدم الاوروبيون الى القارة السوداء وأكملوا عملية التدمير لهذا الشعب ، أما الشراذم المتبقية من صيادي شعب البوشيمان فلا تزال تنتقل تائهة في الصحراء وتعاني أشد انواع الفقر والشقاء ، وتعتمد في غذائها على الثمار والاعشاب البرية والتهام الجراد وديدان الاخشاب . ويبدو ان هذا الشعب الباسل في طريقه الى الزوال بسبب التدهور الشامل وعمليات الابادة غير

---

(١) صحراء كالاهاري : تقع في افريقيا الجنوبية بين نهر الزامبيز ونهر الاورانج . وهي عبارة عن سهل مرتفع رملي تتخللها بعض المستنقعات المالحة في الشمال وتمتد فوق معظم اراضي بوتشوانا .

(٢) قبائل البانتو : مجموعة قبائل افريقية تقطن جنوب خط الاستواء في افريقيا الجنوبية .

المباشرة التي تشن ضده بمنتهى الفعالية والشراسة حتى أيامنا هذه [1] .

الانسـان الطـريدة

من المرجح ان الانسان البدائي الاول ، كان يقتات من الثمار والاعشاب وصيد الطرائد الصغيرة والكبيرة . ويبدو أنه أقدم في بعض الظروف على اصطياد أمثاله من بني البشر واستخدمهم كمادة غذائية كبقية الطرائد من الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات . ولم يلبث ان استخدم الاضاحي البشرية في طقوسه الدينية لارضاء الآلهة او اتقاء شرور الطبيعة العاتية .

ولعل في هذا السلوك ما يدل على ان الاقتصاد البدائي الذي لم يكن يتطلب الايدي العاملة ، وفي مثل هذا الوضع يصبح « الاسير الحي » عديم الفائدة وباهظ التكاليف ، ومن الافضل الاستفادة من لحمه في الغذاء .

---

(١) البوشمان : شعب رحال يعيش في صحراء كالاهاري . وهو من إقدم شعوب افريقيا الجنوبية ويعتبرون من الاقزام لان قامتهم لا تزيد عن ١٫٥٢ م ، وبشرتهم تميل الى الاصفرار وجبهة عريضة مربعة ، وجمجمة طويلة ، ويتميزون باحديداب في عمودهم الفقري ويتراوح تعدادهم الحالي بين ٦٥٠٠ الى ٧٠٠٠ نسمة . ويعانون من أسوأ انواع الاضطهاد العنصري من قبل الحكومة العنصرية في جنوب افريقيا . (المعرب) .

ومن المحتمل أيضا « **أن أشكال الحرب الأولى كانت عبارة عن عمليات صيد يقوم بها الانسان البدائي ضد أخيه الانسان !** » .

ومن العادات التي كانت مألوفة عند معظم الشعوب القديمة ، الاحتفاظ بنساء واطفال القبائل المغلوبة (والشعوب) وتسخير الرجال الاصحاء المسالمين في الاعمال الشاقة (وهذه العادة تدل على مرحلة اجتماعية متطورة واقتصاد يتطلب اليد العاملة كالزراعة ...) .

وفي بلاد ما بين النهرين كانت العبودية تحتل مكانا هاما في الزراعة والاعمال الحرفية . وهناك الكثير من الدلائل التي تشير الى انه في المجتمعات التي لا قيمة فيها للوجود البشري ، كان العبيد يعاملون معاملة وحشية لا اثر فيها للشعور الانساني والشفقة . ففي المجتمع الاشوري مثلا كان الاحرار ينظرون للعبد نظرتهم للحيوانات ، ويحق للسادة تأجير عبيدهم .

وقد راقب اوائل المكتشفون في افريقيا الشروط المعاشية للعبيد الافريقيين في بلادهم الاصلية ، فوجدوا ان الزنوج الغزاة يهاجمون القوى الساحلية لاصطياد العبيد ، وأحيانا يتوغلون الى الداخل عندما يندر وجود « الطرائد البشرية » .

وكانت بعض القبائل الافريقية تمارس مهنة « صيد العبيد » لاستخدامها الخاص ، او لبيعهم الى الاجانب .

وهكذا وجد الاوروبيون البيض سهولة في ممارسة هذه المهنة المعروفة

لدى الافارقة منذ قرون ، وطوروها وأعطوها ابعادا هائلة تتناسب مع حاجتهم الماسة للايدي العاملة ، وأصبحت تجارة الرقيق تدر ارباحا خيالية [١] .

ومن الجدير بالذكر ان تجارة الرقيق دمرت ثقافات الجماعات الافريقية والقوميات المجاورة ، حيث دخلت في صراعات دموية رهيبة وكانت « الصفة الانسانية » تُحرم على القبائل التي تنتمي للقوميات الاخرى .

ومن الوقائع الثابتة ، ان بعض رؤساء القبائل لم يترددوا من بيع رجال قبيلتهم ، وخلقوا بذلك حالات أدت الى التفكك الاجتماعي وهدم الروابط المتينة التي أنشاها الاسلاف .

ولعل في مأساة « الطفل يوسف » الذي باعه أخوته لاحدى القوافل (لقاء ثمن بخس دراهم معدودات) ، ما يدل على ان القرابة لم تكن كافية عندما تتدخل اعتبارات اخرى .

وفي روما ، حدد القانون الروماني بدقة حقوق المالكين « الاسياد » على عبيدهم . ومما كتبه السيد كاركوبينو في هذا المجال : « يتميز الرجال الاحرار بانفصالهم التام وتفوق اصولهم عن جمهور العبيد ، الذين يعتبرون كالماشية بوجوه بشرية ، فلا حقوق لهم ولا ضمانات ولا شخصية

---

(١) تذكرنا تجارة الرقيق (او التجارة بالطاقة البشرية) بأرباح شركات البترول العالمية التي تحقق ارباحا طائلة من (تجارة الطاقة النفطية) .

اعتبارية ، وهم يخضعون كالقطيع لطاعة السيد المالك ، مثلهم في ذلك كمثل الاشياء والحيوانات التي لاعلاقة لها بالبشر » .

وكان لا بد من الانتظار حتى القرن الثاني الميلادي ، لكي يصدر اول تشريع متسامح يخفف القيود عن العبيد ويضع الاسس التي تسهل تحريرهم .

وهكذا كانت « الطرائد البشرية » تحتل مكانا بارزا كمصدر للطاقة رخيصة الثمن تسببت بنشوب الحروب الكلاسيكية في العصور القديمة . وقد استمرت مطاردة « العبيد الافارقة » حتى القرن التاسع عشر ، وكانت استمرارا لعادة قديمة جدا نشأت مع فجر الحضارة .

ومن الجدير بالذكر ان هناك بعض المساعي التي بذلت في بعض الحضارات كانت تهدف لحماية الفرد من التطرف وانفجار العنف . فاتخذت الجرائم والجنح كمعايير لتحديد العقوبات حسب اهمية الجنحة او الجريمة من جهة ووضع الشخص الاجتماعي الذي كان موضوعا للجريمة من جهة اخرى . وعلى هذا الاساس اعتبرت جريمة قتل العبد او تشويهه اقل شدة من قتل او تشويه الرجل الحر . وللحد من عمليات الثأر وفرض النظام الذي يرضي الآلهة تصورت قبائل الجرمان وبعض الشعوب البدائية الأخرى فرض فدية مناسبة يدفعها مرتكب الجرم للضحية او لعائلته . وتتناسب هذه الفدية (أو ما يسمى بالدية) مع اهمية الجرم ومرتبة المجني عليه الاجتماعية . وجرت العادة ان يساهم جميع الاعضاء في اداء الدية أو ثمن الدم وفقا للقوانين الجنائية انذاك .

وهكذا نجد أن من بين واجبات القبيلة التدخل لصالح افرادها ، لكي تؤمن لهم بعض الحماية . ولكن هذه الحماية لم تكن كافية بسبب خشونة العيش وعنف العادات القبلية .

وقد ساعد استمرار النظام القبلي في افريقيا السوداء على استخلاص بعض الملاحظات الهامة ، فتبين بالمقارنة ان التنظيمات الاجتماعية . والعلاقات العائلية ، والزعامة ، والدول ، بقيت على حالها تقريبا خلال آلاف السنين وحتى زمن الاستعمار الاوروبي .

ويمكن ان نستثني من هذه القاعدة مملكتا مالي وداهومي اللتان وصلتا الى درجة متقدمة من الحضارة واصبح لهما اشعاعا واسعا . وكان لكل من هاتين الدولتين جيشا نظاميا يقوم على نظام التطويع المؤقت للمحاربين الذي يشبه نظام فرسان القرون الوسطى في اوروبا . وكان المحاربون يرتدون دروع الزرد والخوذ المعدنية .. ووصلت هذه الجيوش الى درجة عالية في عمليات الحصار الطويل : ومن الأمثلة البارزة على ذلك حصار مدينة جينية [1] الذي استمر سبع سنوات .

وفي مملكة بينان كان على رأس الحضارة ملك مقدس وطاغية حقيقي ، يتمتع بحقوق الهية مطلقة ، وكان الى جانبه مجالس سرية سياسية ــ دينية .

وفي مملكة داهومي التي اشتهرت بمقاومتها الباسلة للتغلغل

---

(١) مدينة جينية : احدى مدن جمهورية مالي بالقرب من الحدود مع ساحل العاج .

الفرنسي ، كان الجيش على درجة عالية من التنظيم منذ بداية القرن التاسع عشر . وقد امتاز بشكل خاص بلوائه المشهور الذي يدعى « لواء الامازون » الذي كان يخوض المعارك ضد الممالك المجاورة وفق قواعد تكتيكية دقيقة جدا .

وفي منطقة البحيرات الكبرى الافريقية [1] كانت الانظمة تقوم على سلطة زعماء القبائل ونظام الرق .. وقد اشتهرت المجتمعات في هذه المنطقة بشراستها وشغفها بالحروب التي تعتبرها « لحظات عامرة وكثيفة في حياة الانسان وظاهرة تأسيسية تدخل في التنظيم السياسي والاقتصادي » .

وفي الهند الصينية ، كان المحاربون في شعوب اللاووس يقومون بحملات سلب ونهب تعتمد على الوجدان الجماعي وقيمة الفرد ومبادهته الشخصية ، وهي الصفات الاساسية التي يجب ان تتوفر في القادة المحاربين الذين يتم تعيينهم بالانتخاب من قبل المحاربين انفسهم .

وقد ترتب على هذا التناوب الدائم بين السلم والحرب ، واستمرار الغزوات والنزاعات وتجارة الرق ، امتزاج بين القبائل والشعوب . بل لقد نتج عن آفة تجارة الرق انتقال سكان بعض المناطق بكاملهم . ويروي المكتشفون الذين تجولوا في القارة الافريقية حوالي عام ١٨٧٠ م ان هناك قبائل اختفت تماما في عام ١٩٠٠ ، كما تشردت قبائل اخرى .

---

(١) أهم وأكبر هذه البحيرات هي بحيرة فيكتوريا التي تتقاسمها كل من اوغندا وتنزانيا ، وبحيرة رودلف في كينيا وبحيرة تنجانيكا على الحدود التنزانية الكونغولية (الاطلس او نيفرسال) .

وفي نهاية القرن التاسع عشر استطاع مغامر مشهور يدعى رباح [1] الاستيلاء على مساحات واسعة من الاراضي في وسط القارة الافريقية واباد مئات الآلاف من السكان المحليين قبل ان يزيله الفتح الفرنسي .

القوميات الحديثة والحروب القبلية

كان من نتائج اجتماع القبائل والشعوب خلال قرون نشوء الامم ومن ثم قامت الدول والممالك والامبراطوريات التي اختزنت في ذاكرتها احداث ومجابهات اسلافها القدماء .

ومن هنا نجد ان الاحاديث تروي عند جميع الامم ، عن الاعداء التقليديين ، حتى ولو لم يكونوا دائما نفس الاطراف . والجدير بالذكر في هذا المجال .. ان المشاكل الاقتصادية لعبت دورا هاما في الخصومات وكانت في معظم الاحيان تستغل العداوات التقليدية القديمة .

ومن المعروف ان حرب ١٨٧٠ بين فرنسا والمانيا كانت تحمل بشكل او بآخر طابع انبعاث الصراع القبلي القديم ، اذ لم يكن لهذه الحرب اي سبب اقتصادي ، ولم يكن ينقص سكان البلدين المجالات

---

(١) المدعو رباح مسلم واكثر الظن انه عربي من شمالي افريقيا اسس امبراطورية واسعة امتدت من بحر الغزال الى تشاد بين عام ١٨٩٢ — ١٩٠٠ حيث سقطت على يد الاستعمار الفرنسي وكان الفرنسيون يسمونها امبراطورية الرق .

الحيوية الضرورية . وكانت مبررات الحرب هي مسألة وراثة العرش الاسباني ، الذي سبق ان تمت تسويته قبل نشوب هذه الحرب . ولكن العداوة بين الشعبين الفرنسي والالماني التي يرجع تاريخها لعدة قرون خلت ، بقيت على اشدها ، ودفعت الطرفين لنبش هذا الارث القديم والدخول في صراع مسلح عنيف .

وفي أغلب الحالات ، كان مصدر النزاعات الدموية التي لا تعرف الرحمة ، يعود للاختلاف في بنية الحضارات المتجاورة . فمنذ فجر العصر الحجري الأول ، كانت الجماعات الرحالة تنازع سكان الحواضر (المدن والقرى) على الثروات والاراضي . وكانت الصدامات بينهما تأخذ في البداية شكل غارات متفاوتة في حجمها وقوتها ولم تكن دائما عنيفة . ولم تكن الغلبة في مثل هذه المنازعات من نصيب طرف واحد بالذات فأحيانا كانت القبائل الرحالة تطغى على السكان المتحضرين ، واحيانا اخرى تكون الغلبة فيها لسكان المدن والحواضر ، وذلك حسب درجة تطور الاسلحة ومستوى ونوع تنظيم القوات ومدى التصميم على المقاومة .

وقد انتهى هذا التناوب بالانتصارات ، مع ظهور الاسلحة المتطورة ، عندما اصبح سكان الحواضر يملكون وسائل صناعية اكثر اهمية واشد فعالية ، فكان لهم التفوق على البدو (القبائل الرحل) .

وفي جميع الاحوال ، كان للقبائل من الطرفين « آلهتها » التي تتدخل في نزاعاتها . وتميزت العصور القديمة بوضع « الحروب » تحت اسمى شعار يعبر عن حضارتها ، أي تحت شعار آلهتها .

الفصل الرابع

حروب الآلهة

تجمع الاساطير والروايات القديمة ، على ان حروب الآلهة « كانت تجري على الارض قبل ظهور الانسان ، في العصور التي كانت فيها الفوضى تطغى على كوكب الارض » .

وتشبه هذه الاساطير ، الحروب ، بالصراعات القبلية القديمة ، اذ نجد فيها كائنات واعراق مختلفة تقف في مواجهة بعضها لتتصارع حتى الموت .

فكانت سلالة الآلهة ذات الجمال الجسماني الرائع ، تقطن في منازل جميلة فوق الجبال الشامخة المضيئة التي تخلب الالباب ، أما سلالة الشياطين كالتنين الجبار والعمالقة الاسطوريين والمشوهين المخيفين ، فتختبىء في باطن الارض « أمهم الرؤوم » .

علم الاساطير (أو الميثولوجيا اليونانية)

تروي الاساطير اليونانية أن « حربا أهلية » نشبت فجأة بين

أعضاء أعظم أسرة الهية ، ألا وهي أسرة ملك الآلهة ، أورانوس . فقد ثار عليه ابنه كرونوس ، وخلعه عن العرش ، بعد ان مثل به وشوهه بشكل وحشي لكيلا يلد من جديد آلهة غيره ، ثم ألقاه في العدم .

ولكي لا يلاقي الاله الاعظم الجديد كرونوس نفس مصير أبيه على يد أحد ابنائه ، عمد الى التهامهم فور ولادتهم . ولكن زوجته « الآلهة هيرا » استطاعت إخفاء احد أبنائها ويدعى « زوس » ، وذلك بأن أطعمت زوجها حجرا مغلفا بالقماش بدلا من طفلها . وهكذا نجا « الاله زوس » وترعرع في أماكن سرية ، وعندما اشتد ساعده وعظمت قوته ، هاجم والده « الاله كرونوس » وخلعه عن العرش ، وحرر أشقاءه من معدة أبيه واستقر فوق قمة جبل الاولمب (في اليونان) .

وبالرغم من هذا الانتصار العظيم ، فان النزاعات بقيت على أشدها . ذلك ان الاله كرونوس استعان بسلالة التنين الرهيب ، التي حررها الاله زوس ليريح الارض من فتن وثورات هؤلاء العمالقة الاشرار . غير ان هؤلاء العمالقة الشياطين لم يخلدوا الى السكينة ، بل بادروا فور تحريرهم بالهجوم على « مقر الآلهة » وقذفوه بالصخور وجعلوها أكواما وكدسوا الجبال فوق الجبال ، ووضعوا جبل بيلون فوق جبل أوساد [1] ليصعدوا الى السماء . ولكن الاله زوس حشد ضدهم ، عمالقة مشوهون

(١) بيلون واوساد، جبلان متجاوران في منطقة تيساليا في اليونان يبلغ ارتفاع بيلون ١٦٥١م ، وتقول الاساطير ان العمالقة عندما ثاروا ضد الاله زوس وضعوهما فوق بعضهما لكي يصعدوا الى السماء .

ينتمون الى سلالة شيطانية أخرى ، وهم عبارة عن كائنات عملاقة لكل منها مئة ذراع وخمسين رأسا . وطلب من العملاق الاعور « سيكلوب » بأن يزوده بالصاعقة التي صنعها في قلب الارض .

وهكذا احتدم صراع رهيب لا رحمة فيه بين التينان والعمالقة ، وكانت القذائف التي يستخدمونها في حربهم تتساقط في البحر ، فتشكل سلاسل من الجزر ــ وبذلك تكونت الجزر العديدة التي تحيط بشبه الجزيرة اليونانية ــ . واستمر الصراع سجالا بين الطرفين الى أن تدخل فجأة الاله زوس في المعركة : فأشرع الصاعقة التي صنعها العملاق سيكلوب ، وشارك اشقاؤه في القتال ، وانتهت المعركة بعد ذلك بسرعة خاطفة بالانتصار الشامل للالهة . وتم سحق أسرة التنين الاسطوريين ، ودفنهم تحت الصخور والجبال التي كان يقذفها العمالقة ذوات المائة ذراع (جنود الاله زوس) .

وعندما استتب الامر الاله المنتصر زوس ، اعتلى على العرش ليهيمن على الآلهة كلها وخيم السلام على الارض مما أتاح للبشر فرصة الظهور .

روايات الهند الاسطورية

من الملفت للنظر ان الملاحم الشعرية الهندية تروي ايضا احداث الحروب القبلية في الهند . ومن اشهر هذه القصائد الملحمية : الريغ فيدا والباغها فاتا بورانا .

وتقول هذه الملاحم : أن الاله « اندرا » كان يمتلك الصاعقة ، ولكنه يختلف عن « الاله زوس اليوناني » بأنه هو نفسه بطل الوظيفة الحربية . وتصفه الرواية الاسطورية بأنه : رجل فظ خشن عظيم القامة ، مولع بالانتصارات الحربية ، وقادر على القيام بأعظم الاعمال الباهرة .

ويعكس هذا « الاله » شعبا عدوانيا ، يختلف تمام الاختلاف عن شعب الهند الحالي ، ولكنه بدون شك صورة صادقة عن الشعب القديم الذي كان يقطن في الهند عندما وضعت هذه القصائد .

وتحكي ملحمة الـ « ريغا فيدا » مآثر الاله أندرا : وكيف كان يهاجم المدن المحصنة وكيف يقاتل في ساحات المعارك ، فتقول : وهكذا يضرب الاله اندرا — الذي لا يغلب — يضرب أعداءه حاملا في يديه الصاعقة المميتة ضد الشيطان « فيترا » ، وكرام للقوس يمتطي اندرا العربة التي يجرها عداءان قطرتهما الصلاة خصيصا اكراما للاله العظيم .

وأندرا — كما تصفه الاساطير الهندية — هو الزعيم القائد لسلالة الآلهة والى جانبه العواصف والرياح . أما اعداؤه فينتمون الى جنس آخر ، وقبيلة أخرى ، مؤلفة من شياطين فيترا .

أما الرياح ، فهي المحاربون الاشداء الذين يمتطون العربات .

« أيتها الآلهة ما روت ، ان جيشك ينقض والنشوة تغمر نفوس افراده ، انهم يمتطون العربات التي تجرها الوعول السود ، وتزدان مقدماتها باللون الاحمر القاني » .

وفي الملحمة الشعرية المسماة الباغها فابورنا تقدم قبيلة دوفاس المحاربين للاله اندرا ، وهو الذي يدير العمليات ممتطيا الفيل ايريفتا . أما جيش الاعداء فهم من قبيلة آزوراس ويقوده الشيطان فيترا :

« عندما نشب الصراع الرهيب بين ديفاس وآزوراس » . ذكرت جميع القبائل التي اشتركت فيه ، ووصفت الاسلحة التي استخدمها المحاربون بكل دقة : الهراوات ، والقضبان الحديدية ، والسهام ، والرماح ، والخناجر . وكان هناك ايضا اسلحة متطورة : شديدة الخطورة : كالاسلحة الملتهبة ، والقذائف الهمية التي تطلق على قطعات الاله اندرا من القوة الشيطانية . « ولكنها ـــ أي الاسلحة الشيطانية ـــ لم تصب الكتائب التي تحيط بأندرا ، لان الآلهة كانت توقفها بيدها السريعة » .

وهكذا تشتبك في هذه الحروب قبيلتان متخاصمتان احداهما قبيلة الآلهة ، والاخرى قبيلة الشياطين .

وفي أساطير هندية أخرى ، نرى أن البطل الرئيسي فيها يدعى راما ، وهو ينحدر من أسرة الشمس .

وتقول الرواية الاسطورية ان الشيطان رافانا الذي ينحدر من أسرة القمر ، يقوم باختطاف زوجة راما ، ولكي يسترجع هذا الاخير زوجته المخطوفة يطلب العون من السعادين .. وهكذا تقع الحرب بين قبائل من أصول مختلفة كما كان يتصور الانسان في العصور القديمة .

الحروب المقدسة في مجمع الآلهة الجرمانية

تتميز الآلهة في علم الاساطير الجرمانية بالقسوة والشغف بالحروب وتختلف عن الهة الحرب اليونانية المستنيرة .

فالملك الجرماني فوتان ، مقاتل فظ ، يزج نفسه في المعارك بشراسة . أما اله الحرب ثور ، فهو السيد الذي يستحوذ على اعجاب الشبيبة الجرمانية المحاربة ويعتبر مثلها الاعلى .

وفي الاساطير الجرمانية ، نجد اجناسا مختلفة ايضا تشترك في حروب الآلهة : كالعمالقة الذين يقومون بالاعمال الخيالية الباهرة ، والاقزام المهرة الذين يتقنون صناعة الاسلحة بأنواعها العجيبة في باطن الارض .

وهناك أنصار البطل سيغفريد (١) وأنصار البطل سيقموند (٢) من المحاربين الاشداء الذين يعيشون (ويقاتلون) على ضفاف نهر الرين حيث تكثر الفتيات الحسان .

ومن الجدير بالذكر ان المحاربين الجرمان ينتظرهم مصير يحسدون عليه بعد موتهم في ساحات المعارك ، حيث يدعون للاقامة في جنة الآله واتون التي يُطلق عليها اسم « والهالا » . وفي هذه الجنة تتواصل المعارك

---

(١) سيغفريد : بطل من ابطال الاساطير الجرمانية ، تغنى الشعراء ببطولاته ووضع الموسيقار فاغنر أورع أعماله الموسيقية الخالدة .

(٢) سيقموند : بطل آخر من ابطال الاساطير الجرمانية .

والصراعات لتأمين السعادة التي تتلاءم مع رغبات وميول المحاربين ، وتتخلل هذه المعارك الحفلات والموائد الفخمة التي تشتهر بأطيب أنواع الاسماك والمشروبات الروحية ، مما يضمن لهؤلاء الابطال (أنصاف الآلهة) المتعة والسعادة المستمرة [١] .

مميزات حروب الآلهة

كانت الخصومات بين الآلهة اليونانية ، والآلهة في الهند ، في أغلب الاحيان ترتدي طابع النزاعات بين الاسر المالكة أو الاقطاعية . فالاله زوس ، يحل محل والده ويفرض سيطرته على أشقائه . والاله السيد اندرا (الهندي) يسحق الشيطان فيترا .

وفي ظل هذه الآلهة تشتبك الكائنات العجيبة في معارك دموية طاحنة .

ومنذ فجر العصور الاولى عندما احتل الانسان مكانه تحت الشمس تحول الصراع بين الآلهة الى صراع بين البشر انفسهم .

واذا كان البشر قد حلموا بآلهتهم فان الآلهة بدورها تختار محميها من البشر ، فهي تساعدهم في المعارك وتحميهم من ضربات الاعداء الذين تدعمهم آلهة اخرى .

---

(١) هناك بعض الشبه بين الجنة الجرمانية والجنة التي يصفها القرآن الكريم .

ويدلنا المؤرخ هومير في كتاباته على الاشياء التي تفضلها الآلهة ، كما يدلنا على أحقادها وحوافزها . فهيرا زوجة الاله زوس ، تمقت سكان طروادة ، وأفروديت (آلهة الجمال والحب اليونانية) ، تبسط حمايتها على الطروادبين . أما باريس [1] مختطف هيلين الذي كان عليه ان يفصل بين أجمل ثلاث الهات فوق جبل الاولمب ، فأختار افروديت رغم غضب الآلهة هيرا .

وكانت هاتان الآلهتان متواجدتين باستمرار لدى المعسكرين المتحاربين طيلة حرب طروادة ، وقد تدخلتا في هذه الحرب .

وقد أثار ميلفياس المهان ، غضب باريس المختطف ، ونشب القتال على شكل مبارزة بين فارسين على مشهد من الجيوش المحتشدة . وتقابل المحاربان ، وحمل كل منهما على الآخر محاولا البطش بغريمه . وعندما يحتدم النزال بينهما تتدخل آلهة الجمال والحب (افروديت) فجأة لخوفها على حبيبها ، فتختطفه وتغطيه بالسحب وتحمله الى غرفة هيلين خلف أسوار المدينة .

وفي مبارزة اخرى بين أخيلا وهكتور [2] تقوم آبولون بتغطية

---

(١) باريس : احد أبطال الاساطير الاغريقية ، وهو الابن الثاني لبريام وهيكوب وزوج أونون ، ومختطف هيلين زوجة ميليناس التي سببت حرب طروادة .

(٢) أخيلا : هو ابن الملك ميرميدون أشهر أبطال هومير الشاعر والمؤرخ اليوناني والذي قتل هكتور في معركة طروادة ، ولكنه أصيب بجرح قاتل من سهم مسموم قذفه به البطل باريس . وأسطورته معروفة في الياذة هوميروس التي عنوانها احتلال طروادة ـــ وهكتور : أشجع ابطال طروادة ، والابن البكر لبريام ، وزوج اندروماك .

البطل الطروادي بسحبها وتخفيه عن عيون أخيلا الهائج .

ولم يكن الاغريق محرومين من الحماية الالهية . فقد كانت آلهة هيرا التي أهانها باريس بالتوسل دون انقطاع للاله زوس لكي يسمح بتدمير طروادة .

وكان المحاربون انفسهم من سلالة الآلهة ، فأخيلا هو أبن الآلهة تيتيس التي تزوجت برجل عادي . أما الاسرة التي تحكم طروادة فتنحدر ايضا من الآلهة . كما كان المحاربون ديوسكوريس وكاستور وبوللكس يعرفون باسم « جيمو » وهم أبناء الاله زوس من زوجته ليدا . وكانوا يظهرون في المعارك ويشاركون في القتال الى جانب الرومان في صراعهم ضد قبائل اللاتيوم(١) .

وهكذا نلاحظ ان الآلهة والابطال الاسطوريين يتواجدون في ساحات المعارك التي يتصارع فيها بنو البشر ، وذلك بعد ان انتهت مراحل الحروب الملحمية العظمى بين الآلهة انفسهم على جبل الاولمب .

آلهة المدن

كان لكل مدينة في العصور القديمة آلهتها الخاصة . وينطبق هذا

(١) اللاتيوم : منطقة في ايطاليا الوسطى تقع على البحر التيرينين وتتشكل من عدة مقطاعات ضمتها روما في القرن السادس ق . م .

المفهوم ايضا على العصور التوراتية العبرانية . وقد تشكلت المدن حول الاسر التي يجمعها جد مشترك وتدين بطقوس منزلية مشتركة (موحدة) . ثم مالبثت كل عشيرة من العشائر تقدس اجدادها وتضعهم في مصاف الآلهة ، وتحولَ هؤلاء مع الزمن الى آلهة المدينة .

وكان من واجب الآلهة حماية المدينة والمشاركة في حياتها اليومية ودعمها في صراعها مع المدن الاخرى المجاورة .

ويقول الكاتب المؤرخ « فوستيل دوكولانج » : « عندما تشتبك مدينتان في حرب من الحروب ، لم يكن رجال هاتين المدينتين وحدهم الذين يتقاتلون ، وإنما تأخذ آلهة كل من المدينتين دورا أساسيا في الصراع . ويجب الا يخالج الاذهان شيء من الظن بأن هذا الامر لم يكن سوى خيال شاعري ساذج ! لان القدماء كانوا يؤمنون ايمانا شديدا بهذه الاسطورة . وكانوا مقتنعين بأن الآلهة تقاتل الى جانبهم في خضم المعارك : فهم يدافعون عن الجنود ويدافع الجنود عنهم .

وأثناء القتال ضد عدو ما ، كان كل طرف يؤمن بأنه يقاتل ضد آلهة الطرف الآخر ، او المدينة الاخرى . بل كانت تقاليد الحرب تتطلب الحقد والكراهية لآلهة الاجانب ، كما تسمح بضربهم وقتلهم وأسرهم في بعض الحالات » .

وكانت الجيوش تحمل معها في تنقلاتها تماثيلها ومذابحها (هياكلها) أو رموزها المقدسة كما يرافق هذه الجيوش الآلهة والكهنة والسحرة والعرافون من كل طرف .

ويعتقد كل طرف أن الآلهة التي تقاتل الى جانبه هي الاقوى . ولم يكن في تقاليد الحرب مكان للتسامح او الرحمة بالخصم . وكل الديانات تحرض المحاربين على البطش بالاعداء ، وهي تحلل قطع رؤوس الاسرى والاجهاز على الجرحى . فالاجانب ليس لهم نفس الآلهة ولذلك فهم محرومون من كل الحقوق .

وكانت الحرب شاملة لا تقتصر على المقاتلين فحسب ، بل وتشمل السكان وثرواتهم بأنواعها ، ويحق للمنتصر تدمير المدينة المستولى عليها ، ولم يكن المنتصرون يترددون في تدمير المدينة المحتلة في أغلب الاحيان . ومن الامثلة البارزة في هذا المجال المصير المأساوي الرهيب الذي لاقته مدينة قرطاجة الزاهرة .

وتمتاز المعارك والحروب التي نشبت ابان الهيمنة الاغريقية ، بالدور الاساسي الذي كان يلعبه السحرة ، والذي كان يفوق الى حد كبير ادوار كبار القادة والمهارات الحربية .

وكان الشعب اليوناني يحيط حياته وحروبه بهالة من السحر ، وقد وصف المؤرخ والشاعر العظيم هيرودوت ، هذا الوضع بأسلوب مؤثر لانه ، هو نفسه ، يؤمن بالمعجزات .

ومن أشهر المعارك التي تعطي فكرة واضحة عن هذا الواقع من النواحي الاستراتيجية والتكتيكية ، هي معركة بلاتيس [1] .

(١) بلاتيس : مدينة يونانية قديمة تقع على المنحدر الشمالي لجبل سيتيرون ، وقد استطاع فيها القادة اليونان بوزانياس واريستيد ان يهزموا الفرس في عام ٤٧٩ ق .م .

وفي هذه المعارك احدث احترام العادات والتقاليد المقدسة معجزة حقيقية . ويروي هيرودوت ان القائد الفارسي ماردونيوس لم يأبه لانذار الكاهن الذي نصحه بتجنب خوض المعركة ، وهاجم الجيش اليوناني في اللحظة التي كان يبدل مواقعه . أما القائد الاسبارطي يوزانياس الذي كان على رأس الجيش اليوناني ، فقد سار في المعركة حسب رأي السحرة الذين حذروه من الهجوم ، لكيلا يعرض مشاته خلال الانقضاض لخطر السهام الفارسية ، ولم يبدأ هجومه الا بعد ان تلقى الامر من الآلهة هيرا التي استدعاها لمساندته .

« ومما لا شك فيه ان هذا الاجراء لم يحدث الا في اللحظة التي كانت فيها الجبهة مهددة بالتصدع وعندما كان المقاتلين الفرس قد ألقوا دروعهم » .

ومن الملاحظ — استنادا لهذه الروايات — ان قادة العمليات الحربية آنذاك ، كانوا موقنين بأنهم محاطون بقوى اضافية تعزز امكانياتهم المعنوية والعقلية مما يجعلهم قادرين على اختيار اللحظة النفسانية الملائمة للعمل والحركة .

وفي ملحمة الالياذة ، كما في الملاحم المماثلة الاخرى ، نجد ان الآلهة تقاتل جنبا الى جنب مع الرجال ، وتمد يد المساعدة للقادة والكهنة وتمنحهم النصائح الثمينة . وكانت هذه التقاليد تشكل جزءا لا يتجزأ من فن الحرب . وكان من المستحسن ان تذكر آثار العجائب ودور الآلهة عندما تقرع الاجراس لتعلن النصر .

وهكذا فقد كان الانسان مرتبطا بالتزامات صارمة تجاه آلهته الخاصة . وعندما توقع معاهدات السلم ، تُشهد كل مدينة آلهتها عندما تُعلن القسم على احترام هذه المعاهدات .

ويذكر فوستيل دوكولانج خطاب بلاتيوس للاسبارطيين الذي قال فيه :

« لقد عقدنا معاهدة ، وأرقنا الخمر اكراما للآلهة ، فأشهدنا عليكم آلهة اجدادكم ، وأشهدنا نحن الآلهة التي تمثل بلادنا » .

وكان الامر دائما على هذا المنوال أثناء الحروب التي كانت تختلط فيها الآلهة بالمقاتلين ، وكان لا بد اذن من ان يشتركوا في عقد معاهدات السلم .

أما في بلاد ما بين النهرين ، فكان الملك يقود جيش المدينة كقائد حربي ، ولكن آلهة المدن هي التي تسير للحرب ، وتحرز الانتصارات ، وتعقد معاهدات السلم بين آلهة المدن المتحاربة .

الـــه التـــوراة

في زمن التوراة العبراني ، كان الاخلاص للقانون الديني هو القاعدة المطلقة للحصول على العون الالهي . وبعد وفاة « موسى » كان يهوه[1]

---

(١) يهوه : هو اسم الاله في التوراة (العهد القديم) . وهو رب العبرانيين (اليهود) الذي جباهم ـــ كما يدعون ـــ على العالمين ، واختارهم للاستيطان في فلسطين « أرض المعياد » وهذا

يتوجه الى يوشع[1] ويطلب اليه ان يبدأ العمل ويجتاز نهر الاردن ويستولي على البلد الذي وعده بها . ويقول له : « يجب ان يبقى هذا القانون دائما على شفتيك ، وان تفكر به في الليل والنهار ، وعندها ستكون سيدا في مغامراتك وستنال النصر ، او لم اقل لك بان تكون قويا ، وان تصمد ، وألا تخاف ولا ترتعد لان « يهوه » الهك سيكون معك في كل مكان تذهب اليه » .

هكذا خاطب الاله يهوه خادمه يوشع .

وتروي التوراه أيضا أن جدعون [2] تلقى ايضا اوامره من الاله

الاسم أصله من فعل (هيه) أي « هو » . والله أساسا « هو الذي كان والذي سيكون والذي يخلق » . ولايجوز ان يلفظ هذا الاسم إلا مرة واحدة في السنة من قبل الحاخام الاكبر في القدس بمناسبة عيد الغفران . ولاله العبرانيين عدة اسماء منها « الله الحي ، واصل الحياة » وتعتبره العقيدة شخصا من البشر باق اله الابد وهو يتكلم ويستمع ويرى ، ويشعر ، ويضحك ، ويتألم ، وله عيون ، وأيدي وآذان ، ويهوه يتميز بصفات عسكرية واضحة ، فهو : السيد البطل ، وصاعقة الحرب ، وهو اله حسود يعرض على اتباعه ان يكون حبهم وطاعتهم له وحده . ويهوه أو الآلوهيم ، القادر و« الشاداي » او الاله المتعالي خالق السماء والارض وسيد البلاد . وهو الاول والآخر . وآخر هو « آدوناي تشفا أوت أو سيد الجيوش » . ومن صفاته الكثيرة انه « الصخرة » . وهو يبدو للاتقياء كالنار تلتهم كل ما تصادفه . (من كتاب الفكر اليهودي تعميم اندريه شاروكي ١٩٧٥م) .

(١) يوشع : قائد اليهود بعد وفاة موسى ، وهو الذي احتل ارض كنعان ، وهو الذي قال عنه التوراة بأنه طلب من الشمس ان تتوقف في كبد السماء ريثما بنجز انتصاره . والكتاب الذي يحمل اسمه يذكر تفاصيل احتلال ارض كنعان ، وتقسيمها بين قبائل اسرائيل الاثني عشر . وأخيرا فهو من بين الانبياء الذين يذكرهم القرآن الكريم ، كما تذكر كتب التاريخ بأنه احتل مدينة اريحا وأباد سكانها ، ثم دمرها واشعل النار فيها (المعرب) .

(٢) جدعون : احد حكماء اسرائيل الذي انتصر على المديانيين في القرن الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد .

يهوه ، اذ قال له : « استيقظ واتجه الى معسكر العدو لانني سأضعهم بين يديك » .

ومن الممكن ايراد الكثير من الامثلة على تدخل « الاله يهوه » في تاريخ اليهود . ومن الملاحظ ان عاداتهم ومعتقداتهم ليست ارحم من عادات الشعوب القديمة الأخرى . والاله « يهوه » ليس اله للحب ولكنه « يفرض » على اتباعه « تدمير اعداء عقيدته ، بل واولئك الذين تجرؤوا على نسيانه » . فبعد هزيمة البنياميين (احدى قبائل اسرائيل الاثني عشر) « ذبح انصار اسرائيل بحد السيف ، جميع سكان المدن التي استولوا عليها ، وقتلوا الحيوانات والمواشي ، ودمروا كل ما وجد في طريقهم ، ثم اشعلوا النيران بجميع المدن التي صادفوها في منطقة بنيامين » .

وهكذا إن جميع الآلهة القديمة ، « واله اسرائيل الواحد » ، صورة طبق الاصل عن البشر ، فهم قساة وسفاحون ، لا تتسرب الى قلوبهم الرحمة بالنسبة لكل من هو أجنبي ...

وكان على البشرية ان تنتظر القرون الطويلة (المليئة بالبربرية والطغيان) حتى تشهد « نبوءة المسيح » فتكتشف لاول مرة « اله عالميا » للبشر اجمعين ، شبيها بالبشر في مثل أعلى واحد .

آلهة روما

كان لروما خلال قرون طويلة ، عدد كبير من الآلهة من أصول

ومصادر متنوعة ، وذلك ان روح التسامح التي شاعت بين الحكام والشعب الروماني ، افسحت المجال لتتعايش هذه الآلهة بسلام في جو هذه المدينة الخالدة .

وكانت روما ، في بداية تاريخها ، مغلقة ومتعصبة لارائها وتقاليدها شأنها في ذلك كشأن بقية مدن ومجتمعات العصور القديمة . وكان سكان روما يتكتمون باسم « الههم الرئيسي » لكيلا يتمكن الاعداء (الغرباء) من لفظ هذا الاسم المقدس ، لاعتقادهم بأن مجرد « التضرع » لهذا الاله قد يؤدي لانتقاله الى المعسكر الآخر .

وحدث اول انفتاح لروما نحو الخارج عندما قامت بتبادل الطقوس الدينية مع مدينة « لانيفيوم » المجاورة . وبهذه المناسبة ادخل اله المدينة المذكور الى معابد روما واصبح منذ ذلك الوقت في عداد الآلهة الحامية لها .

وبعد ذلك ، قامت روما بعملية مماثلة مع مدينة « كايير » في منطقة « أيتروري » ، وكان ذلك بمثابة تبادل من نوع جديد . ففي فترة الغزو « الغولي » ، لجأت آلهة روما عند آلهة مدينة كايير . ولاقت هذه الآلهة الاكرام والحماية والتكريم من سكان المدينة الذين عاملوها كما يعاملوا آلهتهم . ونظرا للوفاق التام الذي حصل بين الآلهة ، فقد ارتبطت هاتان المدينتان برباط ودي وثيق وعاشتا جليفتان ، وكان التحالف بين آلهة المدينتين سببا في اقامة تحالف أبدي بينهما .

ومنذ ذلك التاريخ اخذت روما تستقبل تدريجيا آلهة الشعوب

المغلوبة كشرط اساسي لولائهم واتفاقهم جميعا داخل الامبراطورية . وكان لجميع هذه الآلهة الاجنبية « حق المواطنية » في عاصمة الامبراطورية دون تمييز . ومع ذلك ، كان هناك اله واحد يحتل مكانة ممتازة بين جميع الآلهة : ألا وهو الامبراطور ...

ومن المعروف في معظم الحضارات القديمة ان الامبراطور (أو الملك) كان مقدسا كالآلهة بل كان في كثير من الحالات « الاله نفسه » . وقد عرفت « الحضارة السومرية » موقفا مماثلا حيث اكد رجال الدين أن « الملكية منزلة من السماء منذ آلاف السنين قبل حدوث الطوفان (الذي يطلق عليه اسم طوفان نوح في التقاليد العبرية والاسلامية) » .

وفي مصر ، لم يكن « فرعون » رئيسا للدولة فحسب ، بل هو ممثل الآلهة على الارض ، وهو نفسه من الآلهة ، ويمارس فرعون سلطة باسم « الحق الالهي » وهو مكلف بالاقامة على الارض ليضمن خصبها وازدهار قطعانها .

وفي روما ايضا اصبح من الطبيعي جدا ، النظر لـ « الامبراطور » باعتباره « الروح القدس » ، على ألا يتعارض ذلك مع التسامح والاحترام لآلهة الشعوب المحتلة ...

وعندما جاءت المسيحية تدعو لاله واحد عالمي (اله لكل البشر) ، ظهرت وكأنها ضد القوانين والتقاليد السائدة ، لذلك عمدت السلطات الى تحريمها واضطهاد اتباعها ، ولم يستطع « دين التوحيد » في

البداية ، الوصول الى النفوس التي اعتادت خلال الاف السنين خدمة الآلهة المتعددة . وعندما بدأت الامبراطورية الرومانية تواجه الازمات والمتاعب ، ظهرت المسيحية وكأنها تجسد الامل وتحمل في طياتها قوى سحرية خارقة ، تنقذ البشر من الشرور والآلام .

وكان الامبراطور قسطنطين ، هو أول من اكتشف قوة الصليب (او الدين الجديد) في اللحظة التي كان يتأهب فيها لشن معركته ضد الأمبراطور السابق ماكسانس [1] . فقد سمع صوتا يناديه « بهذه الشارة ستنتصر » . وحدثت المعجزة بالفعل بعد انتصار قسطنطين خاصة بعد ان اصدر مرسومه الامبراطوري المشهور أو مرسوم التسامح الذي سجل في صدوره تاريخا اسياسيا في تطور الافكار الدينية في روما . ومنذ ذلك التاريخ اصبحت الحرب تعلن تحت شعار دين الدولة ، الذي يضمن تماسك الامبراطورية .

وأصبح هدف الحرب ـــ بعد ان تبنت الامبراطورية الرومانية الدين المسيحي ـــ مطاردة الهراطقة ، وابادتهم ، وبعد ذلك بفترة طويلة او بالاحرى بعد ان اتخذت الامبراطورية من مدينة القسطنطينية مقرا لها وعاصمة للدولة البيزنطية « أصبحت الحرب جهادا مقدسا ضد الكفار وضد الهراطقة من مختلف الانواع والاجناس » .

---

(١) ماكسانس (٢٧٠ ـــ ٣١٢م) أصبح امبراطورا لروما بين عام ٣٠٦ و ٣١٢ م . وقد هزمه الامبراطور قسطنطين في معركة بونت ميلفيوس عام ٣١٢ ، حيث قتل في نفس المعركة .

من الجدير بالذكر ان هذا التطور الجديد ، كان عميقا جدا وبعيدا عن روح التسامح التي عرفتها الامبراطورية الرومانية في بداية عهدها .

آلهة العرب

قبل ان تصبح « مكة » مدينة مقدسة بنظر المسلمين في انحاء العالم كانت « مدينة للتجار » ، تحمل اليها القوافل القادمة من سورية واليمن ، البضائع المختلفة ، حيث يتم التبادل والمقايضة بين التجار من مختلف البلاد .

وهكذا كانت « مكة » مكان التقاء بين مجتمعين احدهما « حضري » مستقر والآخر « بدوي » رحال . وكان لكل من هذين المجتمعين آلهته الخاصة به ، كما هو الامر عند جميع الشعوب والقبائل في العصور القديمة .

وعلى هذا الاساس ، قام في « مكة » ما يمكن تسميته بـ « مجمع الآلهة » يكرم فيه جميع آلهة القبائل العربية .

وعندما جاء الاسلام ، كان من الطبيعي ان تصبح مدينة « مكة » مكانا مقدسا للدين الحنيف الجديد الذي دعا اليه الرسول محمد (ﷺ) . وكان دين (محمد ﷺ) دينا توحيديا أزال جميع الآلهة التي كانت تعبدها القبائل العربية وأعلن أن « لا اله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله » .

الفصل الخامس

المجازر الجماعية والحضارات

التي سبقت اكتشاف القارة الامريكية

(أو ما يسمى بحضارات ما قبل الكولومبية) [1]

(١) حضارات ما قبل الكولومبية : اصطلاح وصفي يعني الحضارات التي قامت في القارة الامريكية (الشمالية والوسطى والجنوبية) قبل اكتشاف كريستوف كولومبس لهذه القارة في ١٢ تشرين الاول ١٤٩٨ م في رحلته الثانية باتجاه الغرب منطلقا من اسبانيا .

في هذه الازمة نفسها ، وفي الطرف الآخر من إلعالم ، وفي مجال جغرافي مستقل كانت الحضاراتِ التي سبقت اكتشاف أمريكا (من قبل كريستوف كولمبس) تعبد آلهة اخرى خاصة بها .

عندما توغل الاسبانيان كورتيز وبيزار في قلب القارة الامريكية في مطلع القرن السادس عشر ميلادي ، فوجئا بوجود حضارتين عظيمتين تقعان على محور مكسيكو ــ ليما ، (وهو الخط الذي يصل بين عاصمة جمهورية المكسيك وعاصمة جمهورية البيرو) . وهاتان الحضارتان هما :

١ ــ حضارة الازتيك في المكسيك .

٢ ــ حضارة الانكا في البيرو .

وهما حضارتان متشابهتان في عدة نقاط ــ ذلك انهما حتى عصر الحجر المصقول ، لم تكونا تعرفان استخدام معدن الحديد ، ولا حيوانات الحمل ، ولا استخدام العجلة ــ ولكنهما مختلفتان في اسلوب تنظيم

المجتمع والمفاهيم الدينية . وكانت السلطة في حضارة الانكا اكثر مركزية منها عند شعوب الازتيك ، ولم تكن هذه السلطة في خدمة آلهة متعطشة للدماء .

لقد نشأت هاتان الحضارتان نتيجة تطور بطيء لثقافات تبناها غزاة حل كل منهم بدوره محل الحضارات التي سبقت وصوله . وهكذا تكون من مجموع تراكم هذه الثقافات « مركبا حضاريا » يشمل جميع المكتسبات وطرق التفكير والتصرفات .

وقد لاحظ المؤرخ جان ديسكولا [1] في هذه الامكنة التي وطأتها أقدام الغزاة الاسبان « ان الفاتحين الهنود سبقوهم الى هذه الامكنة قبل عدة قرون » . ذلك ان البشر يقتتلون في اغلب الاحيان فوق نفس ساحات المعارك . أما الحضارات السابقة مثل حضارة المايا فقد زالت ودفنت تحت الغابات . وعندما جاء الفتح الاسباني انقطع التوازن الذي كان قائما ، ودمر قبل كل شيء ، الحضارات الاكثر تقدما ، اما الحضارات الاكثر فظاظة وخشونة ، فظهر انه من المستحيل تمثلها .

والواقع ، ليس لدينا حتى الآن معلومات دقيقة عن الحضارات القديمة . أما المعلومات المتوفرة فتقتصر على الحضارات الاخيرة التي سبقت وصول الغزاة الاسبان للقارة الجديدة .

أما سكان المدن والقرى الاوائل الذين استقروا في المناطق الملائمة

---

(١) جان ديسكولا : في كتابه « الغزاة » الذي نشرته مؤسسة فایارد عام ١٩٥٤ .

المحاطة بالجبال الشاهقة او الصحارى ، فكان عليهم انجاز اعمال جبارة لكي يستصلحوا الاراضي الزراعية ، فقد أنشأوا السدود وادي المكسيك لينظموا مياه البحيرة ، وحفروا اقنية الري في سهول الآند لارواء السهول الزراعية المتدرجة على سفوح الجبال والوديان المنخفضة . فمن أين جاء هؤلاء المزارعون المهرة ؟ هناك عدة فرضيات متناقضة وضعها العلماء والخبراء بالحضارات الامريكية القديمة .

ففي رأي الاستاذ ريفيه ، ان ثلاث تيارات مختلفة جاءت الى هذه القارة :

١ ـــ التيار الاول قدم عن طريق مضيق بهرنغ .

٢ ـــ وجاء التيار الثاني من القطب الشمالي بفضل ارتفاع الحرارة في الالف الخامسة قبل الميلاد .

٣ ـــ أما التيار الثالث فهو التيار الميلانيزي [١] الذي استمر طوال الالفي عام التالية وتطور بموجات متعاقبة ، ـــ ومد بولينيزي [٢] تتناقض مع نظرية الاستاذ ثور هايرداهل ، الذي كان يعتقد ان تيار الهجرة كان ينطلق من القارة الامريكية باتجاه الجزر البولينيزية .

(١) الميلانيزي : اصطلاح في الجغرافيا الطبيعية يعني تيار العرق الاسود .

(٢) بولينيزي: وهي مجموعة الجزر المتسلسلة في المحيط الهادي ، شرقي استراليا ، وميلانيزيا ، وميكرونيزيا ، ومن بينها ارخبيل بولينيزيا الفرنسي . ونيوزيلاندا وجزر ساموا وهاواي الامريكية ، وجزر تونغا ، وايليس وفونكس البريطانية . وجميع هذه الجزر باستثناء نيوزيلاندا ، يسكنها شعوب ذات قامات مدينة ، وبشرة فاتحة ، تعيش على زراعة جوز الهند والصيد والسياحة .

ولكي يبرهن ثور هايرداهل على صحة هذه الفرضية (الأخيرة) قام باجتياز المحيط الهادي الجنوبي على متن طوافة بدائية اطلق عليها اسم « كونتيكي » . وفي رأي هذا العالم ان التماثيل الضخمة الموجودة في جزيرة باك (والتي وصفها بدقة المكتشف مازيير) لها نفس المميزات التي تتصف بها الاعمال الفنية في حضارات امريكا الجنوبية .

وهكذا تكون الحضارات المتعاقبة في امريكا قد تطورت في مناطق سكنية محددة تماما ، واقامت انظمتها في الامكنة التي تقام فيها الطقوس الدينية والتبادل التجاري .

أما المدن الكبرى مثل مكسيكو او كوزكو فأصبحت مع الزمن مراكز تجمع هامة ، رغم امكانيات الانتاج المحدودة بسبب تخلف التقنيات وافتقار الحضارة بشكل خاص لمعدن الحديد وحيوانات الحمل .

أما في الصحارى والغابات فكانت تعيش فيها جماعات رحالة لم يتجاوز تنظيمها الاجتماعي مستوى التنظيم القبلي . وكان هؤلاء السكان يعيشون على صيد الماعز البري والطرائد الصغيرة الاخرى ، ولم يعرفوا زراعة الذرة التي كانت انذاك العنصر الاساسي لغذاء السكان المتحضرين ، واكتفوا باستهلاك نوع من العنب البري المتوحش ، وجذور النباتات ليكملوا بها غذاءهم . ولم يرتق هؤلاء السكان مطلقا الى مستوى الحضارات ، ولم يخلفوا وراءهم اي آثار تذكر . أما أحفادهم الباقون ، فهم في طريق الانقراض ، بما في ذلك اولئك المنحدرين من العرق الاحمر ، وقد كانوا الى عهد قريب جدا محاربين اشداء مرعبين .

حضارات المكسيك الجنوبي واليوكاتان [1] القديمة

هناك حضارات قديمة اخرى نشأت وتطورت في جنوبي المكسيك وغواتيمالا الحالية . وعندما وصل الفاتحون الاسبان الى القارة ، كانت هذه الحضارة قد اختفت منذ زمن بعيد ، ولم يعثر منها على أي أثر . ومن الطبيعي ان تكون الحضارات التالية المعروفة قد تأثرت بها وورثت عنها .

ومن هذه الحضارات المنقرضة ، تلك المسماة بحضارة « الاولميك » على الشاطىء الجنوبي من خليج المكسيك ، وحضارة الزابوتيك ، على المنحدر المطل على المحيط الهادي ، وحضارة المايا في شبه جزيرة يوكاتان .

وأقدم هذه الحضارات ، هي حضارة الاولميك الغامضة ، والتي بلغت ذروة ازدهارها في القرون الاولى بعد الميلاد . وتظهر لنا حضارة الاولميك في الرؤوس الضخمة المنحوتة من الصخور الصلبة ، والمبعثرة وسط الغابات ، كما تظهر لنا من خلال التماثيل الصغيرة المصنوعة من الاحجار الكريمة التي عثر عليها المنقبون بين الآثار القديمة . ومن أهم هذه الآثار مدينة فانتا القديمة . ويبدو ان شعب الاولميك كان يعرف نوعا من الكتابة الغريبة التي لم يتم حلها وتفسيرها بكل اسف حتى يومنا هذا .

---

(١) اليوكاتان : شبه جزيرة في المكسيك تقع بين خليج المكسيك وبحر الانتيل ، وتتألف من سلسلة هضاب كلسية ، مغطاة بالغابات . وهي ضئيلة السكان ، وكانت في الماضي مركزا لحضارة المايا .

ولكن رموز تقويم هذا الشعب تدلنا على تاريخ بعض الآثار بشكل دقيق .

ولدينا صورة اخرى عن حضارة ريفية لم تعرف المدن الكبرى كما لم يكن فيها دولة موحدة . وكان الكهان وحدهم هم الذين يلعبون الدور الرئيسي في ادارة هذه المجتمعات ، أما عامة الشعب فكانوا يعبدون القوى الحيوانية ، وخاصة منها « النمر الامريكي الارقط » الذي تشاهد صورة وجهه في تماثيل الانسان النمر الفريدة من نوعها .

ويبقى تاريخ الاولميك لغزا لم يتم حله حتى الآن . ويبدو ان افكارهم الدينية انتشرت بطريقة ما ، ولا تعرف فيما اذا كان انتشارها نتيجة لحملات حربية ام انه سلك طرقا سليمة .

ولكن الحضارات التي عُثر عليها فيما بعد ، كانت متأثرة بشكل أكيد بالنظام الكهنوتي الاولميكي ، والتي تقوم على تقديم الاضاحي البشرية للآلهة .

أما حضارة الزابوتيك ، المشابهة من عدة وجوه بحضارة الاولميك ، فتبقى غامضة ايضا . وقد كتب عنها المؤرخ الاسباني بورغوا ، في القرن التاسع عشر ما يلي : « لم استطع العثور على معلومات حول وجود هذا الشعب الذي كان كما يبدو ذو صفات أصيلة . ويدعي افراد هذا الشعب بأنهم ينحدرون من النمر الامريكي (الجاغوار) ، وبعض الحيوانات الكاسرة الاخرى المشهورة بشجاعتها » .

ونعتقد انه كان لايزال في امريكا الوسطى بقايا من العناصر التي تمثل هذه الحضارة ، في فترة الفتح الاسباني . كما ان لغتهم لاتزال مستعملة حتى أيامنا الحاضرة . ومن المؤسف انه لم يبق من آثارهم الراقية الماضية سوى الاهرامات التي تخلب الالباب ، والمعابد الموجودة في مونت البان وبعض الاوابد الاخرى .

ويبدو انه كان لهذا الشعب حضارة من النوع الاولميكي ، غير انهم امتزجوا بالشعوب الرحالة الغازية القادمة من الشمال والمسماة بالمكستيك الذين نعرفهم بشكل أحسن ، لانهم خلفوا وراءهم مجموعة اخبار مكتوبة على جلود الوعول والايول ... وقد ساعدت هذه الاخبار تتبع تاريخهم منذ نهاية القرن السابع الميلادي ، مما يدل على ان تنظيمهم لم يبلغ مطلقا مستوى الدولة الحقيقية .

أما « حضارة المايا » فكانت مختفية تماما هي ايضا عن وصول الاسبان الى القارة الامريكية . لذلك لم يلاحظوا آثارها الى جانب الاوابد القائمة في الامكنة التي سبق لهذا الشعب ان استوطنها .

وقد دلت التحقيقات والمكتشفات ان شعب المايا ، كان يقطن في شبه جزيرة يوكاتا وجمهورية غواتيمالا الحالية ، حيث تشاهد الآن الآثار الرائعة التي تختفي في غابات في اعلى المرتفعات .

وتشهد المعابد في مناطق بالنيك وتيكال وكوبان ، على حضارة ذات مستوى رفيع ، تتألف من مدن مستقلة على شكل دول ، تديرها جماعات من الكهنة والمحاربين .

وكان هؤلاء الكهنة ــ الملوك يتمتعون بسلطات مطلقة يستخدمونها باسم الآلهة . اما كتابتهم الشبيهة بالهيروغليفية فلم تحل رموزها حتى الآن ، ولكننا نعلم بأنهم كانوا يملكون آلة حاسبة لقوانين النجوم دقيقة جداً .

وحوالى القرن العاشر الميلادي هجر شعب المايا المدن فجأة ، ولم تعرف اسباب هذه الهجرة حتى الآن .

فهل كان ذلك بسبب الثورات او الغزو ام الكوارث الطبيعية ؟ الواقع أن الامر لا يزال محاطا بالغموض الى يومنا هذا . ومن المحتمل ان هذه الحضارة انهارت بدورها في القرن الثاني عشر الميلادي . ويرجح ان انهيارها كان تحت ضربات الغزاة من الجنوب في هذه المرة . وليس هناك من الدلائل ما يؤكد ذلك بشكل قاطع .

وفي القرن الرابع عشر الميلادي ، لم يبق اي اثر من هذه الحضارات فقد غطت الغابات كل شيء .

الحضارات المكسيكية

حضارة الازتيك

على الرغم من كثرة الاحاديث عن امبراطورية الازتيك ، الا ان الفاتح الاسباني « كورتيز » لم يجد امامه دولة حقيقية او امبراطورية عند وصوله الى وادي مكسيكو .

لقد كان الازتيك من أواخر القادمين الى هذه الهضاب العالية حيث استولوا عليها وفرضوا انفسهم بالقوة والبطش . وكان الناس انذاك يكنون لهم الكراهية والحقد وينعتوهم بشتى الاوصاف ، وينسبون اليهم حملات النهب والسلب ، ويطلقون عليهم اسم .« المحاربين الجهلة القادمين من الشمال » .

وتدل المعلومات ان المحاربين الأزتيك كانوا يتصفون بجرأة لا تضاهى في القتال . وقد ارتكبوا أفعالا في منتهى الفظاعة والوحشية ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي لايمانهم الشديد بالحرب ودورها في خلاص وتوازن العالم ، (الدنيا) والمتعة والراحة في (الآخرة) وان الانسجام العالمي يتوقف على العبقريات المريضة التي لا تعود اليها القوة والنشاط الا بدماء اعظم الرجال وخاصة دماء المحاربين البواسل .

وفي احدى القصص التي اوردها الكاتب الفرنسي جاك سوستيل في كتابه ، عن « الحياة اليومية للازتيك » يمكن ان نقرأ النص التالي :

« لا شيء يفوق في أهميته خدمة الآلهة ، فلكي تتمكن الشمس من اضاءة الارض بنورها ، لا بد ان تغذى بقلوب البشر ... ولتحقيق ذلك لا بد من تفجير الحروب .. لان الحرب هي الوسيلة الوحيدة التي تسمح بالحصول على الدماء والقلوب البشرية ... » .

والواقع ان الديانة والحضارة الازتيكية ، ليستا سوى مجموعة متفرقة

من الافكار والاشكال والتصرفات (السلوك) المأخوذة عن الحضارات السابقة والشعوب المجاورة .

وتؤكد الشواهد والتنقيبات ، ان تواجد الانسان في وادي مكسيكو يرجع الى ٣٠٠٠ عام ق . م . ذلك ان الشعوب المنحدرة من الشمال وجدت في هذا الوادي على البيئة الملائمة للاقامة والعيش . فطورت زراعة الذرة ، ومارست الصيد في البر والبحر ، ولكنها غادرت هذه المنطقة حوالي نهاية الالف الثانية وبداية الالف الاخيرة قبل الميلاد . ولم يعثر على آثار هذه الحضارة ، التي بسطت نفوذها على القسم الاعظم من امريكا الوسطى ، الا في القرن الرابع الميلادي .

وتشير الآثار التي عثر عليها في مدينة تيهوتيهوكان ـ التي تبعد بحوالي خمسين كيلو مترا شمال شرقي مدينة مكسيكو الحالية ـ ان الآلهة التي كان يعبدها هذا الشعب هي : الافعى المجنحة آلهة الرياح (كيتز إلكواتل) ، واله المطر (تلالوك) . أما أهرامات الشمس والقمر فهي منشآت ضخمة توحي بالعظمة والجلال ، وتدل على ان (الكهنة ـ الملوك) هم الذين كانوا يقودون شعب الأزتيك المتحضر الذي أغرقته أمواج الاقوام الرحل القادمين من الشمال في القرن السابع الميلادي وهم من التولتيك .

كان القادمون الجدد الى وادي المكسيك ، من التولتيك ، وهم الذين انشأوا مدينة تولا (اوتولان) التي أعيد بناؤها حديثا . وقد اخضع التولتيك السكان الأصليين ، وضموا آلهتهم الى مجمع اربابهم ، واخذوا ـ

عنهم العادات والتقاليد ولكنهم احتفظوا لانفسهم بعادة تقديم الاضاحي البشرية للآلهة ، واضافوا لتماثيل « الافعى المجنحة ، والانسان الذي يجمع بين الطير والافعى ، اضافوا اليها تماثيل النسر والنمر الامريكي الارقط » .

وقد استمر تطور حضارة التولتيك طوال قرن ونصف ولكنها لم تصل الى درجة انشاء دولة حقيقية ، بل استمر النزاع الداخلي بين المدن بهدف الاستيلاء على الاسرى لتقديمهم كأضاحي للآلهة المظفرة (الافعى المجنحة كوتيزال كواتل) . المعروفة بشراهتها وشغفها بالدم البشري . وكانت هذه العادة سببا لمجازر رهيبة ارتكبها هؤلاء القادمون الجدد .

بقيت حضارة التولتيك الى ان قدم شعب آخر يتكلم نفس اللغة ، ولكنه اكثر خشونة واتقانا وشغفا بالحرب والقتال .

وتروي الاساطير الممزوجة بالحقائق ، ان الشعب الجديد تمكن من طرد « الافعى المجنحة » ويجبرها على الهجرة . ويستدل من هذه الاساطير ان هذه الافعى المجنحة المغلوبة لم تكن « اله » بل كانت « ملكا » أو « كاهنا ـــ ملكا » اطلق على نفسه لقب الاله . وقد ظهر هذا التشويش بشكل واضح في فترة وصول القائد الاسباني دوكورتيز ، وكانت مضاعفات هامة .

وبعد سقوط مدينة « تولا » عام ١١٦٨ م ، وصل الى وادي المكسيك الاعلى شعوب شمالية نصف ابربرية هي « الشيشيميك » . وحدث بعد هذه الفترة تطور واضح في المدن ، ونشبت حروب وصراعات

عنيفة بين الاسر الحاكمة ، بهدف الاستيلاء على السلطة . وتمكنت احدى هذه الاسر التي أنشأت عاصمتها « تينوكتيتلان » (أو مكسيكو الحالية) ، عام ١٣٢٥ م ، فوق جزيرة في بحيرة « تيكسكوكو » تمكنت هذه الاسر من تزعم الرابطة الرئيسية في المنطقة .

كانت بدايات الازتيك صعبة جدا ، ولكن ملكهم « ايتزكواتل » ، الذي حكم في الفترة الواقعة بين ١٤٢٨ م و ١٤٤٠ م ، استطاع عن طريق التحالفات الذكية ، ان يصبح السيد المطلق للهضاب المكسيكية العالية . ومع ذلك لم ينشيء الازتيك دولة موحدة ، كامبراطورية الانكا التي أنشئت في نفس الفترة تقريبا .

لقد عُرف عن الازتيك اتقانهم لعبة فرض الضرائب الباهظة ، وعمليات النهب والسلب ، بقساوة لا تعرف الرحمة . كما عرفت آلهتهم بتعطشها لامتصاص الدماء والتهام قلوب البشر التي تُنتزع من صدور القتلى المغلوبين أو المستسلمين ... وكلما ازداد عدد الاضاحي كانت آلهة الازتيك تكافىء المحاربين بانتصارات جديدة واعداد كبيرة من الاسرى ، وهذا يعني مزيد من القلوب البشرية الجديدة التي تُلقى كعلف للاله الطاغية الذي لا يشبع ...

وتروي بعض القصص التي كان يتداولها السكان الاصليين قبل وصول الاسبان « انه تم تضحية (١٨٠٠٠) رجل في احد الاحتفالات التي اقامها الازتيك تكريما لاله الشمس لكي يسمح لها بأن تطلع في كل صباح !! » .

والحقيقة ان الإرستقراطية الدينية المحاربة (أي الكهنة والعسكريين) هي التي اشاعت الطغيان العسكري بزعامة الكاهن الاكبر . فكان على الراشدين من الرجال ، لكي يحصلوا على مرتبة او كيان اجتماعي مرموق ، ان يدخلوا في سلك الكهنة او مهنة الحرب . ويستند النظام على قواعد اقتصادية متينة . وبلغ تعداد المدينة الجزيرة (تينوكتيتلان) مئات الآلاف من السكان ، وأنشئت فيها المعابد والقصور الرائعة والاسواق المزدهرة التي يجري فيها تبادل الذهب والاقمشة والكاكاو الخ ... وكانت هذه المدينة عاصمة مركزية لاتحاد واسع من المدن ذات الاستقلال الذاتي ، غير انها ملزمة بدفع الضرائب للمدينة الام واتباع سياسة مشتركة ، الامر الذي تطلب وجود عدد من الموظفين لادارة وتأمين سير الاعمال في هذه الدولة الاتحادية .

وبالرغم من ان الازتيك كانوا ورثة لشعب التولتيك الا ان حضارتهم اقتطفت ايضا من جميع الحضارات السابقة والمجاورة . وتعتبر المباني والكتابات الهيروغليفية والمسمارية ، وتطور فن النحت ، الصفات البارزة المميزة لهذه الحضارة . ومع ذلك فان الديانة وحدها كانت تهيمن بعظمتها المأساوية ، على الحياة الاجتماعية والصناعية والفنية ، ولهذا السبب اعتبرها الاسبان « حضارة مجرمة » على الرغم من انها كانت من وجوه عديدة في مستوى الحضارة الاوروبية .

ومن الغريب المؤسف ان هذه الحضارة العظيمة سرعان ما انهارت أمام حفنة من المحتلين الاسبان ، الذين لم يصلوا الى حد ازالة ذكرياتها من

أذهان الشعب المكسيكي الذي أخذ يستعيد امجادها ويحن اليها في هذه الايام .

حضـــارة الانكـا

شغلت امبراطورية الانكا ، في امريكا الجنوبية ، مساحة تزيد عن (٣٥٠٠) كم ، على امتداد شواطىء المحيط الهادي ، واستطاعت تمثيل وامتصاص جميع الحضارات التي سبقتها ، ونجحت احدى قبائل منطقة كوزكو في البيرو ، السيطرة على هذه المساحة الشاسعة الواسعة ، وأنشأت فوقها دولة حقيقية ذات وحدة ثقافية وسياسية وعسكرية .

كان على قبائل الانكا الذين لا تتوفر المعلومات الكافية عنها في بداية ظهورها ، كان عليها ان تدخل في حروب مضنية طويلة ضد القبائل المجاورة ، استمرت طوال قرنين دون ان تقترن بنتائج ثابتة . ولكنها استطاعت بعد هذه المرحلة الشاقة ان تفرض هيمنتها بفضل العمليات العسكرية الرائعة .

ويمكن للجغرافيا الطبيعية ان تعطينا فكرة عن المصاعب الهائلة التي واجهت هذا الشعب ، وتفسر لنا عبقرية هؤلاء السكان الذين عاشوا فوق هذه الاراضي الجبلية العسيرة التي ليس من بين صفاتها الخصوبة ، فأكثر الزراعات القديمة التي عرفت في هذه المنطقة ، نشأت حول مدينة (شافان) على ارتفاع يزيد عن (٣٠٠٠) متر فوق سطح البحر .

وكان على رأس حضارة الانكا ، قادة من الكهنة الاذكياء ، اما شعب الانكا ، فتتألف من المزارعين المهرة الذين اتقنوا فنون الري وزراعة السفوح العالية المدرجة . كما اتقنوا بشكل جيد ، قطع الاحجار ونحتها وانشاء المعابد والمساكن .

أما عبادتهم فكانت مكرسة اساسا « للنمر الامريكي الارقط » ، وقد دلت الحفريات والتنقيبات الاثرية على وجود بعض الحيوانات الكاسرة الاخرى التي نقشت صورها على الجرار والسيراميك ، مما يدل على انها كانت في عداد آلهتهم المقدسة . وتدل هذه الآثار والفنون التي خلفها شعب الانكا بأنهم كانوا يفتقرون الى الود ودماثة الخلق ، ويميلون للمشاكسة والصراع مع الشعوب المجاورة .

وحوالي عام (٥٠٠) ق . م نشأت الوحدة الثقافية مع انتشار ديانة شعوب شافان ، ولكنها سرعان مازالت لاسباب لاتزال مجهولة حتى يومنا هذا . وقد يكون ذلك بسبب موجة جديدة من الغزاة الا انه لا يتجاوز حدود الفرضية التي تحتاج الى تأكيد .

وهناك حضارة اخرى قريبة من البحر خلفت وراءها ابنية هائلة ، الا وهي حضارة الموشيه ، التي بنت معبد الشمس الذي تغطي قاعدته مساحة ثلاثة هكتارات . والى جانبه معبد القمر وهو أصغر منه حجما . اما الجرار التي اكتشفت حتى الآن فتدل على ان نشاطات هذا الشعب موزعة على طبقات اجتماعية متنوعة ، وتظهر الرسوم المنقوشة على هذه الجرار بعض المحاربين المسلحين بالهراوات الثقيلة والرماح ، وبعض القادة

الذين يعتمرون بخوذ مخروطية ويرتدون العباءات المزينة بالرسوم والشعارات ، كما تظهر فوقها رؤوس الأعداء المغلوبين تقدم للآلهة والقادة .

وقد خضعت هذه الحضارة البائدة لنفوذ شعب الشيمو الذين يقطنون في الجبال المحيطة بمدينة (تيهواتكو) على ارتفاع يزيد على (٤٥٠٠ ؟ م)فوق سطح البحر .

وتدل المعابد التي لاتزال قائمة حتى الآن ، على انها بنيت بأدوات متطورة نوعا ما ، الا ان جمعها وترتيبها المتناهي بالدقة ، يدلان على مستوى حرفي ممتاز .

اما العبادة ، فمكرسة لـ « الرجل ـــ الاله » الذي يشبه « الاسد الامريكي بوما » وتتساقط من عينيه الدموع البشرية . ومن المؤسف اننا لا نعرف حتى الآن شيئا عن هذه الحضارة التي انمحت آثارها حوالي عام (١٠٠٠) ميلادية (القرن العاشر الميلادي) .. كما لا نعرف الى اي جهة ذهبت !... غير انها خلفت وراءها ثقافة متقدمة وقامت بعمل بناء رائد يبشر بمنجزات المستقبل .

وحوالي القرن الثالث عشر الميلادي ، اخذ شعب الانكا بالظهور ، الا انه لم يبدأ جولته الصاعدة الا في عام ١٤٣٨ م فقط ، وكان ذلك بفضل زعيم فذ يدعى « باكتاكوتيه » وبلغ هذا الشعب ذروة ازدهاره في زمن وصول الاسبان الى امريكا (اي في نهاية القرن الخامس عشر) واستمر هذا الازدهار طوال القرن السادس عشر .

استوطن السكان الانكا في منطقة (كوزكو)[1] واستطاعوا بفضل فن عمارة متقدم جدا ، خال من النقوش ، ان يكونوا الرواد الاوائل في فن التحصينات . ومن الامثلة الرائعة على هذا الفن ، قلعة مدينة كوزكو ، التي تحميها جدران على شكل مثلث ، ويبلغ طولها حوالي (٥٤٠) م ، وتتشكل من (٦٦) زاوية حادة تسمح بالرماية الجانبية .

ولا تقتصر عبقرية الأنكا على ميدان الدفاع فحسب ، وانما تجلت ايضا بالمهارة الدبلوماسية الفائقة ، التي ضمنت لهم السيطرة على الشعوب المجاورة عن طريق المفاوضات في اغلب الاحيان . وهكذا استطاعت امبراطورية الانكا الوصول الى احسن النتائج بأبخس الاثمان ، وكانت الحكومة المركزية تحافظ على الزعماء المحليين في المدن والمناطق التي تستولي عليها ، وتحترم دياناتهم وتقاليدهم وتضمها الى ديانة الانكا الاصلية[2]

وعندما تقتضي الظروف اعلان الحرب ، كان الانكا يستفيدون من تفوقهم الهائل في ميدان التنظيم ، وبفضل استخدامهم جمل اللاما كحيوان للحمل . ففي بلاد جبلية عسيرة المسالك ، حيث لا وجود للعربة ، فان النقليات تتم على ظهور البشر . وقد سمح استخدام اللاما بمضاعفة

---

(١) كوزكو : مدينة في جمهورية البيرو ، تقع في اواسط سهول الاند ، متوسط ارتفاعها حوالي ٣٦٥٠ عن سطح البحر وكانت مدينة كوزكو عاصمة لامبراطورية الانكا ، ثم أصبحت من أعظم المراكز الاسبانية ، وتضم عددا من الاثار الخالدة القيمة .

(٢) تذكرنا هذه الطريقة الذكية بالاسلوب الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية في عهدها الاول (المعرب) .

الاحمال المنقولة ، هذا بالاضافة الى ان هذا الحيوان زهيد الكلفة فغذاؤه من نباتات المراعي ، ويمكن استهلاك لحومه لغذاء الانسان .

واذا كانت عبقرية الانكا قد برزت بوضوح في الفن والحياة الفكرية ، فانها برهنت عن كفاءة عالية في اقامة دولة اتحادية معقدة ذات طابع اشتراكي ، غير ان هذا الشعب المؤلف بغالبيته من الحرفيين المهرة ، لم يعرف الكتابة ، ولكنه استخدم طريقة خاصة للاحصاء والحساب ، تقوم على استخدام الخيوط التي تسمح ألوانها وعقدها بتسجيل الوقائع والكميات والانواع .

كانت حياة الامبراطورية منظمة حول « الانكا » اله الشمس ، الذي يرمز اليه بها ، وتتجه نحوه جميع الادارات . اما حياة الشعب العملية فتقع برمتها على كاهل الدولة .

فالارض : مقسمة الى اربعة اصناف ، وتجري زراعتها بموجب صيغ اشتراكية تحت اشراف اداريين مرتبطين مباشرة بالانكا القائد الاعلى .

وطرق المواصلات : وصلت الى مستوى عال بالتطور والتنظيم ، وبلغ طولها الاجمالي حوالي (١١٠٠٠) كم . وكان نظام هذه الطرق ، يسمح باشراف الدولة الشديد على مختلف المناطق مهما بعد عن العاصمة . وكان على جوانب الطرق جدران منخفضة تحميها في المناطق المسكونة ، ويحرم السير عليها من قبل الناس العاديين وتقدم امكانيات

هائلة للسعاة الذين يتبادلون الرسائل ضمن مسافات تتراوح من (٢ ــ ٣) كم . مما يساعدهم على ايصال الرسائل والبرقيات الشفهية بسرعة كبيرة الى اقصى حدود الامبراطورية . وقد وصلت المسافات التي كان يقطعها السعاة خلال يوم واحد الى (٢٠٠) كم الامر الذي سمح بتوسيع الامبراطورية واحتلال مملكة الكيتو أي (الاكواتور الحالية) .

وقد اقام شعب الشيمو في الاكواتور تحصينات رائعة ، تشتمل على نظام دقيق جدا من المنعات الا انها لم تكف لحماية هذا الشعب من سيطرة الانكا ، الذين هاجموا هذه التحصينات من الخلف مستخدمين مناورات بارعة تكللت دائما بالنجاح . وترتب على هذه الهزائم قيام حالة من الشعور بالنقص عن شعب الشيمو تجاه الانكا المحتلين . ولكن الانكا كعادتهم لا يدمرون البلاد المحتلة ولا يسيئون معاملة شعبها ، ويحتفظون بالآلهة المحلية ويقيمون معها تعاونا مفيدا للطرفين .

وفيما بعد ، اتجه شعب الانكا الى الجنوب ، فسيطروا على وديان التشيلي على مسافة (٢٥٠٠) كم عن العاصمة كوزكو ، وهناك وضعوا شارات حدود الامبراطورية مؤكدين قرارهم بألا يذهبوا الى مسافة ابعد من ذلك .

أما من ناحية الشرق ، فان الغابات المتوحشة خلف القمم الشاهقة حالت دون أي توسع بهذا الاتجاه .

وهكذا امتدت دولة الانكا على مجمل الشريط الساحلي (الذي يشكل سهول الاند) المطل على المحيط الهادي .

واذا كانت الحضارات السابقة قد اختفت كثقافات مستقلة الا انها كما يبدو لم تتعرض لابادة شاملة ، واحتفظت الامبراطورية بشيء من التنوع ، وساعد انتشار لغة الكيشوا على تحقيق بعض التوحيد دون ان يصل ذلك الى درجة الانسجام الشامل . ومن الجدير بالذكر ان قصر عمر امبراطورية الانكا (١٥٠) عام لم يسمح لها بالوصول الى أحسن النتائج .

ولكن المجازر البشرية لم ولن تكون الصبغة المحزنة المميزة للحضارات التي سبقت وصول كريستوف كولومبس الى القارة الامريكية ، فقد شاهدنا ان هذه المجازر استمرت ولا تزال ، على مدى التاريخ ، بأشكال مختلفة مراوغة ، ولاسباب عديدة لا ترضي الآلهة .

ففي القرنين التاسع عشر والقرن العشرين ، امتدت الحروب الى جميع القارات بما في ذلك القارة الاوروبية .

واذا كانت الحروب المحلية الحالية ، لا تشتمل الا على القليل من المعارك بسبب فقر الاطراف المتنازعة ، فهناك على العكس الكثير من الهجرات والتهجير الاجباري ، والمجاعات والاوبئة التي يذهب ضحيتها سنويا الملايين من البشر . ولعل في مأساة الشعب الكمبودي ما يكفي لتجسيد المحنة التي تعاني منها البشرية .

الفصل السادس

الحتميات الجغرافية ـــ السياسية

لقد خضعت جميع الحضارات المعروفة فوق سطح الكرة الارضية ، الى حتميات جغرافية ـــ سياسية (جيوبوليتيكية) ، استمرت طوال التاريخ ، بدرجات متفاوتة ، تؤكد حتميتها .

وكما اخترقت كرتنا الارضية خطوط التصدع الجوفية العظيمة ، التي حدثت على جوانبها الهزات الارضية والثورات البركانية ، فانها تشتمل ايضا على « خطوط تصدع » خاصة بعلم الحرب من الناحيتين العلمية والاجتماعية . وعلى جوانب هذه الخطوط نشبت الحروب ، ووقعت الاحداث الحاسمة والهجرات المسلحة ، عبر التاريخ .

ويبدو ان العامل الجغرافي البحت يغلف ويتجاوز العامل البشري والتاريخي . ويلاحظ من تتبع احداث التاريخ ان جماعات بشرية اصطدمت في نفس الامكنة ، في فترات مختلفة عبر القرون ، دون ان يكون لها شيء مشترك مع الجماعات التي سبقتها وقاتلت فوق نفس ساحات

القتال هذه . وهذا يعني انه لم يكن بين هذه الجماعات انتماء عرقي او نسب قومي ، أو دين مشترك حتى ولا حضارة مشتركة .

المناطق المفضلة وخطوط التصدع

عندما تكونت الدول الكبرى في المناطق المفضلة ، اخذت تنزع للاحاطة بخطوط التصدع . فهل هذا يعني ان المغامرات والغزوات والفتوحات المختلفة تأتي بين وقت وآخر حول هذه الخطوط ؟ .

اذا القينا نظرة فاحصة على خريطة جغرافية ، ظهرت لنا الحدود كخطوط دامية لكثرة ما جرى فوقها من حروب في الماضي ، خاصة بين الدول المنظمة تنظيما صارما ، ولايمكن بشكل عام تغيير هذه الحدود الا بحروب جديدة .

يوجد على سطح الكرة الارضية مناطق مفضلة برهنت على مدى العصور بأنها اكثر ملاءمة من غيرها لسكنى البشر وللاعمال الزراعية ، اولى نشاطات الانسان الحضر (المتحضر) ، عندما توقف عن الاعتماد على قطاف الثمار والصيد . ففي هذه المناطق المعتدلة وجد الانسان افضل الشروط للعيش . أما تلك المناطق التي تقع الى الشمال من مدار السرطان فتشكل شريطا متصلا تقريبا يمتد من شواطئ الاطلسي الى شواطئ المحيط الهادي ويبلغ طوله الاف الكيلو مترات . ويمكن ان ندخل فيه

الشريط الساحلي في افريقيا الشمالية ، الذي يبدأ من المغرب ، ويصل الى مصر ، ثم يتصل بالهلال الخصيب في اسيا الصغرى .

وهكذا اصبح الجزء الشرقي من حوض البحر الابيض المتوسط ، في الواقع ، منطقة لقاء بين الحضارات منذ اقدم التاريخ بل ومنذ عصور ما قبل التاريخ .

اما ما وراء المحيط الهادي ، فان المنطقة المعتدلة تمتد حتى اواسط الامريكيتين : ففي المكسيك والبيرو ، كانت مهد حضارات رائعة ، ولكن هذه الحضارات تطورت بدون احتكاك مع العالم الخارجي قبل وصول الفاتحين الاسبان . وخطوط التصدع في هذه القارة ، هي بلا شك ، اقل وضوحا من تلك الخطوط المماثلة الموجودة فوق القارات الآسيوية والاوروبية .

وفوق هاتين القارتين (آسيا واوروبا) ـــ الملتحمتين بشكل يجعل خطوط التصدع الموجودة فوقهما متصلة بدون انقطاع ـــ بدأت الحضارات العظمى تتطور منذ الاف السنين قبل الميلاد . فالى الشمال من المنطقة المعتدلة الخصبة ، توجد منطقة من الفيافي الشاسعة ، كانت مرتعا تجوب فيه شعوب من الفرسان الرحل تسوق قطعانها باحثة عن المراعي الخصبة ، وخاضعة لتقلبات الطقس السنوية .

وعندما يصادف هؤلاء التائهون في طريقهم ارضا مزروعة ، لا يستطيعون مقاومة مغريات ثرواتها المتراكمة ومياهها الثرة . ارياف خصبة

ومدن مزدهرة ، لذلك تراهم يباشرون ضغوطا متواصلة على ملاكي الاراضي المتحضرين ، ساعين جهدهم للتغلغل بينهم والاستيلاء على اراضيهم المرغوبة ، بالطرق السلمية او بالقوة (الحرب) .

والواقع اننا لا نعلم شيئا عن المجابهات الاولى التي وقعت بين الجماعات البشرية في الفترة الاولى لظهور الانسان ، ولكننا نعلم بشكل أحسن الهجرات التي حملت الشعوب من المناطق المغطاة بالضباب في اوروبا الشمالية نحو السماء المشمسة في ايطاليا واليونان ومصر ، خلال الفترة الواقعة بين القرن الخامس عشر والقرن الخامس قبل الميلاد ، أي ما يسمى العصر البرونزي والعصر الحديدي .

ان تفوق هذه الشعوب البربرية الرحالة بالتسليح ساعدها على تغلب الشعوب المتحضرة التي لم تكن قد بلغت نفس المستوى في صناعة المعادن !!؟ .

وهكذا كان الامر بالنسبة لغزوات قبائل « السلت » فقد انطلقت الموجات الاولى التي تجاوزت نهر الرين ، في اواسط الالف الاخيرة قبل الميلاد ، من الاراضي الدانوبية ، وانتشرت غربا باتجاه فرنسا وشمالي اسبانيا والجزر البريطانية ، وكان هؤلاء هم سلت حضارة التين [١] .

---

(١) التين : منطقة اثرية تعود الى عصر ما قبل التاريخ وتقع على الجانب الشرقي من بحيرة نيوشاتيل في سويسرا . وقد اعطت اسمها للحضارة التي قامت فيها واستمرت من القرن الخامس قبل الميلاد الى الفتح الروماني .

ويلاحظ فوق جميع هذه الاراضي ، رغم مرور الزمن ، تأثير السلت القوي على السكان الاصليين ، وادخال نوع من الحضارة الريفية .

ومن المحتمل الا يكون هذا الاختراق الهجومي الذي قام به السلت عبر نهر الرين ، الاول من نوعه . فمنذ ذلك الزمن والاختراقات تتوالى دون توقف في جميع الاتجاهات ، مع غزوات الرومان في جرمانيا ، وغزوات الجرمان والسامبر والفندال ، والبورغونديين والفرنجة نحو الغرب ، وآخر هذه الغزوات — بعد لويس الرابع عشر ونابليون — شهدت الجيوش الانكلو — ساكسونية والفرنسية [1] تتوغل في عام ١٩٤٥ في قلب المانيا .

وفي السهوب الصحراوية الشرقية الآسيوية ، كانت الشعوب الرحالة تمتلك الاعداد الهائلة من المحاربين الفرسان الخفيفي الحركة المزودين بتسليح ممتاز .. وسوف تلعب هذه الشعوب الرحالة دورا رئيسيا في تاريخ الهجرات البشرية وتشكيل الامبراطوريات ، وسيستمر هذا الدور حتى زمن قريب جدا .

مناطق الاحتكاك والصدام بين الحضارات

وهكذا اذن ، كانت هناك مناطق احتكاك ، منذ الازمنة الاولى التي استولى فيها الانسان على الارض ، وفوق هذه المناطق اصطدمت

(١) يبدو ان السادة الباحثين اغفلوا ذكر الامريكيين في غزو المانيا ، كما لم يتعرضوا للتوغل الالماني نحو الشرق والغرب (المعرب) .

مختلف الحضارات وانطبعت كل من هذه الحضارات بمميزات خاصة ملازمة لها . وكانت اكثر الحضارات مرونة ، تلك التي نشأت على مفترق الطرق ، فقد حاولت التغلغل والتسلل الى قلب الحضارات المستقرة . وحاولت هذه الحضارات المستقرة الدفاع عن حدودها ورد الغزاة بواسطة جيوش ، كما أقامت الحواجز والموانع الاصطناعية ، كجدار الصين العظيم والجدران الدفاعية الرومانية [١] .

ومن أهم مناطق الاحتكاك الكبرى التي عرفها تاريخ البشرية هي المناطق الواقعة في حوض البحر الابيض المتوسط ، وفي شمالي الصين .

وفي التاريخ الحديث تركزت معظم المجابهات العنيفة في قلب القارة الاوروبية على جوانب الدانوب والرين والاودير ، التي تشكل خطوط التصدع الاكثر وضوحا في الظروف الراهنة .

وفي الالف الخامسة والرابعة قبل الميلاد ، كانت الدول البدائية التي تشكلت في حوض ما بين النهرين تنازع على السيادة . وكانت هذه المنازعات أول ظاهرة للصراع بين الساميين من جهة وغير الساميين من جهة أخرى ذلك الصراع الذي سيستمر دون انقطاع حتى ايامنا الحاضرة [٢] بأشكال مختلفة متفاوتة في الوضوح . وكان التفوق السامي

---

(١) الجدران الرومانية المسماة : لولينس ، هي موانع اقامتها الامبراطورية الرومانية في اوروبا بموازاة نهر الدانوب والرين من البحر الاسود الى بحر الشمال (المعرب) .

(٢) كان الباحثين مقتنعون بشكل نهائي ان الصراع بين الشرق والغرب شيء أبدي حتى في عصر الذرة والفضاء ، عصر الصراع الايديولوجي ، والاستقطابات الكونية التي تجاوزت على مايبدو خطوط التصدع (المعرب) .

ممثلا بالملوك الساميين : سرجون [1] وحمورابي [2] . وتلا ذلك ما يمكن ان نسميهُ « بالتفوق الآري » ممثلا بسيروس ملك الفرس والاسكندر المكدوني .

وبعد ذلك بزمن طويل من القرن العاشر والقرن الثاني عشر الميلادي ، كانت المجابهات من الصليبيين والعرب المسلمين ، والتي يمكن اعتبارها امتدادا لهذه الخصومات .

وفي اسيا الصغرى ، أي في المنطقة المسماة بالهلال الخصيب كانت المجتمعات الزراعية التي توصلت الى الحضارة في زمن مبكر جدا ، كانت تعيش تحت التهديد الدائم من الشعوب البربرية المحيطة بها : سكان السهوب العالية ، والهضاب ، في شمال القفقاس ، والشعوب الرحالة في شبه الجزيرة العربية والرحالة في الجنوب .

الحدود وطرق الغزو

كانت حدود مصر الآسيوية ترتدي اهمية عظمى . فنحن نعرف الهجرات التي تعاقبت في الالف الثانية ق . م . منطلقة من سيناء حاملة معها الى الدلتا القبائل السامية . وبعد ذلك بقليل كانت الاقوام القادمة

(١) سرجون : مؤسس الامبراطورية السامية الاكادية (٢٤٠٠) ق . م (سرجون الاول : ملك آشو (٢٠٤٨ ـــ ٢٠٣٠) ق . م

(٢) حمورابي : ملك بابل (١٧٣٠ ـــ ١٦٩٥) ق .م مؤسس امبراطورية بابل الحقيقي ويشكل قانونه المعروف باسمه أقدم مجموعة قوانين معروفة في تاريخ البشر .

من شمالي سورية هي التي اخترقت الحدود المصرية وانتشرت في الدلتا وفرضت سيطرتها على السكان الاصليين ، ولكن هؤلاء استطاعوا مع الزمن امتصاص الغزاة واعطوهم بعض اشكالهم وتنظيمهم العسكري .

وعلى هذه الحدود نفسها ، التي تتميز الآن بقناة السويس ، يصطدم الاسرائيليون والعرب الذين ينحدرون من العرق السامي ، ولكن الدين يفرقهم .

وفي هذه المنطقة التي تلتقي فيها القارات الثلاث ، افريقيا وآسيا واوروبا ، لم تتوقف طوال الاف السنين الرحلات ، ذهابا وايابا ، ولم تنقطع النزاعات والحروب التي تتخللها فترات متقطعة من السلام .

وكل الجيوش في العصور القديمة تصادمت في حروب طاحنة على طول شواطىء البحر الابيض المتوسط ، وعلى المحور المار من قسرقميش [١] ، وكاديش [٢] ، ومجدو [٣] ، هذا المحور الذي يشكل العمود الفقري الحقيقي للمناطق الواقعة شرقي البحر الابيض المتوسط (الشرق الادنى) .

---

(١) قرقميش : مدينة سورية قديمة تقع على نهر الفرات . وقعت فيها المعركة الحاسمة التي هزم فيها بنوخذنصر ملك بابل ، فرعون مصر نيكاو الثاني في القرن السابع قبل الميلاد .

(٢) كادش : مدينة سورية تقع على نهر العاصي وقعت فيها المعركة الحاسمة بين جيش الحثيين وجيش رعمسيس الثاني (١٢٨٨) قبل الميلاد . وعلى أثرها وقع الصرفان معاهدة في عام ١٢٧٢ تعطي لمصر فلسطين والساحل السوري .

(٣) مجدو : المدينة الفلسطينية التي هزم فيها الجيش السوري والمصري ، الجيش المغولي في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي .

ومن الجدير بالذكر ان المناطق التي تتحكم بالممرات الرئيسية لهذا المحور الاستراتيجي تتمتع بأهمية عظيمة . فقرقميش هي المخرج من آسيا الصغرى الى نهر العاصي وانهار بلاد ما بين (دجلة والفرات) ، أما مدينتا « رفح » وبيلوز [1] ، فتفتحان ابواب مصر باتجاه الشرق ومدينة سوز [2] تفتح ابواب فارس .

والى الشرق ، تقع مدينة بختيار الافغانية في جنوبي بحر الآرال ، وهي ممر عظيم الاهمية ، تستريح فيه القوافل قبل وصولها الى سمرقند ، وتقع هذه الفتحة الاستراتيجية الحيوية على طريق الحرير باتجاه الصين ، وهي نقطة الانطلاق الى الهند للقادمين من حوض البحر الابيض المتوسط .

أما في الاتجاه المعاكس ، أي من الشرق الى الغرب ، يوجد خط تصدع عظيم يحاذي الصين من الشمال ، ويسير بموازاة نهر هوانغ ـــ هو ويلتف حول الكتل الجبلية الهندية ، ثم يمر الى الشمال من بحر الآرال وقزوين ، والبحر الاسود ، ويسير بعد ذلك بمحاذاة مجرى نهر الدانوب الى أن يصطدم بحاجز نهر الرين[3] .

هذا ويعتبر وادي الدانوب ووادي الرين خط توغل (طريق غزو)

---

(١) مدينة مصرية قديمة تقع بالقرب من بور سعيد .

(٢) مدينة سوز : مدينة قديمة ، كانت عاصمة لمملكة عيلام ، دمرها آشور بانيبال عام (٦٤٠) ق . م ثم اصبحت مقرا للامبراطورية الفارسية في عهد داريوس وخلفائه .

(٣) ان هذا الخط العظيم يوضح التلاحم بين القارتين الآسيوية والاوروبية ويفسر المصطلحات الجغرافية التي اطلقت على القارتين اسم (اوراسيا) .

أو حاجز طبيعي ، تبعا للاتجاه الذي تسلكه الغزوات او الهجرات البشرية .

وفي الشرق ، عندما فشل ضغط شعوب السهوب الآسيوية بالتغلب على مقاومات الصين ، اتجه تيار هجرتهم نحو الغرب ، وساروا مع خط التصدع الذي اصبح خطا للغزوات ، ثم حاولوا الاتجاه جنوبا نحو بلاد فارس والاناضول بين بحر قزوين والبحر الاسود . وفي الحالات التي فشلوا فيها باقتحام هذه المناطق ، رأيناهم يتابعون سيرهم غربا عن طريق وادي الدانوب ، وانتشروا في شرقي القارة الاوروبية قبل ان يصطدموا بالاقوام الجرمانية والسلتية .

أما الشعوب الاخرى التي ستسلك هذا الطريق فيما بعد فهم : الهون في القرن الخامس الميلادي ، والمغول في القرن الثالث عشر الميلادي . وقد تركت هذه الشعوب في طريقها آثارا بارزة لهذا العبور .

ويقدم البحر الابيض المتوسط أمثلة اكثر تعقيدا ، فالحضارات الاكثر لمعانا في العصور القديمة تأسست في حوضه الشرقي.. وحول مياه هذا البحر استطاعت الامبراطوريات الكبرى ان تتشكل وتستمر وتزدهر . كما كانت الاحتكاكات بين الحضارات والشعوب ، عديدة جدا ومتنوعة ، ليس لها شبيه في اية نقطة اخرى فوق سطح الكرة الارضية . وعلى سبيل المثال ، بقيت الصين معزولة عن العالم الخارجي طوال قرون عديدة ، واستطاعت مع ذلك تطوير حضارتها الخاصة الاصيلة .

ويشكل البحر الابيض المتوسط ، في الواقع ، « حزمة » من خطوط التصدع تشتمل على الطرق البرية الساحلية ، والطرق البحرية التي ترتسم فوق مياهه في جميع الاتجاهات . وقد شهد هذا البحر العظيم الكثير من هجرات الشعوب من الشمال الى الجنوب ، ومن غابات البلطيك المظلمة الى مناطق السماء المضيئة في اليونان وكريت واسيا الصغرى ومصر .

ونحن نعرف ان الفينيقيين واليونان ، استخدموا الطرق البحرية وأسسوا المراكز التجارية النشيطة على جانبيه :

فقد أقام اليونان مراكزهم في ايطاليا الجنوبية والساحل الفرنسي واسبانيا وصقلية ، واقام الفينيقيون مراكزهم في شمالي افريقيا ، واسبانيا وقرطاجة ، التي اصبحت فيما بعد منافسة للمدن الفينيقية الأم وستتنافس مع روما على سيادة الجزء الغربي من البحر المتوسط .

وعندما ظهر الاسكندر المكدوني رأيناه يؤمن مؤخراته حول البحر المتوسط فبسط سلطته على مصر ويؤسسس المدينة التي سميت باسمه قبل ان يتجه نحو الشرق لاحتلال الامبراطورية الفارسية والهند .

اما الرومان فحولوا البحر المتوسط الى « بحيرة داخلية » لامبراطوريتهم وحاولوا دون انقطاع نقل حدودهم بعيدا الى ما وراء خطوط التصدع التي اتينا على ذكرها ، ليعطوا لدولتهم المجال الحيوي اللازم ، واقاموا عليها التحصينات المنيعة التي امتدت من جدار هادريا في الجزر

البريطانية ، الى جدران الاناضول وجدران افريقيا الشمالية ، مرورا ، بالموانع المتقطعة التي استخدموها لسد الثغرات من مصب الدانوب الى مصب الرين .

وفي القرن الخامس الميلادي سارت قبائل الفاندال بمحاذاة سواحل المتوسط عبر اسبانيا وافريقيا الشمالية ووصلت الى روما عن طريق البحر انطلاقا من تونس .

وفي القرن السابع ، انطلق العرب بدورهم من سورية التي احتلوها بسرعة خاطفة ، وسلكوا الطرق البرية المؤدية الى قلب اسيا ، واندفعوا بنفس الوقت غربا بمحاذاة شواطىء البحر المتوسط الجنوبية فبلغوا شواطىء المحيط الاطلسي المغربية ، وعبروا مضيق جبل طارق (والذي سمي باسم احد قادتهم) الذي يفصل بين القارتين الافريقية والاوروبية ، واحتلوا اسبانيا وصعدوا شمالا حتى اواسط فرنسا .

وهكذا نرى ان هذه الطرق ، كانت هي نفسها ، عبر القرون طرقا دائمة للغزوات ، وقد يكون من المفيد اقتفاء اثر الجيوش البريطانية في تونس وليبيا ومصر عام ١٩٤٣ ، وجيوش الحلفاء التي انطلقت من افريقيا الشمالية الى شبه الجزيرة الايطالية ، لكي ندرك ان الطرق التي كانت تسلكها الغزوات في الماضي لاتزال تسلكها الجيوش الحديثة في الازمنة الحالية .

ولعل في ذلك اكبر دليل على تحكم الجغرافيا بالتاريخ البشري .

والخلاصة : لقد رأينا خلال هذا الاستعراض السريع للمجابهات البشرية عبر العصور والسنين اننا كنا دائما امام عالمين متجابهين :

العالم الداخلي الكثيف ، الذي يغطي شمالي قارتي اسيا اوروبا ، أي عالم القطب او نقطة انطلاق جميع الهجرات العظمى ، والعالم الجزيري او شبه الجزيرة الاوروبية والاطلسية والمتوسطية التي تمتد نحو آسيا ذات الرياح الموسمية .

وهذان العالمان كانا يلتقيان في اغلب الأحيان في نقطة الالتقاء عند فوهة الهلال الخصيب السوري ـــ العراقي .

وفي العصور الوسطى ازدادت اهمية القارة الأوروبية ، فقد اخذت الحضارة الغربية تحل محل الحضارات القديمة ، وانتقل بذلك مركز الخطر باتجاه المحيط الاطلسي .

والواقع ان « مسرح العمليات الشرقي » بالنسبة لاوروبا ، يتسم باللقاءات بين قوى اوروبا المسيحية وجيوش الغزاة الآسيويين ، وفي هذا المسرح هزم الروس الجيوش المغولية في مدينة كازان عام ١٥٥٢ م ، وفي عام ١٥٧١ م الحقت الاساطيل الاوروبية الموحدة بقيادة دون جون الاسباني ، الهزيمة بالاسطول العثماني الاسلامي ، في معركة ليبانت الحاسمة ، وبعد ذلك بقرن واحد استطاع النمساويون وضع حد نهائي لتغلغل الاسلام في اوروبا ، عندما سحقوا القوات العثمانية على ابواب مدينة فيينا .

اما المسرح الاوروبي ، فهو الذي يسمح باستخلاص الدروس الدقيقة عن الحروب ، وينقسم هذا المسرح الى اربعة مناطق طبيعية كبيرة :

— اوروبا الشمالية المنفتحة على البحار الشمالية .
— منطقة الدانوب المتجهة من الغرب الى الشرق ، والتي ترسم خط الحدود بين شعوب الشمال الجرمانية من جهة وحضارات البحر المتوسط من جهة اخرى . وعندما اصبح ضغط شعوب الشرق أعظم شدة كانت هذه المنطقة عبارة عن طريق للغزو حمل هذه الشعوب نحو الغرب باتجاه الاطلسي ، والى الجنوب نحو البحر المتوسط .
— أوروبا الغربية التي تنفتح في وقت واحد على المحيط الاطلسي والبحر الابيض المتوسط .
— اوروبا المتوسطية والبلقانية التي تنفتح على افريقيا واسيا الصغرى .

وفوق طريق الغزو هذا ترتفع بعض الحواجز الطبيعية : فنهر الفيستول والاودير يرسمان خط الحدود بين الشعب السلافي في الشرق والجرمان في الغرب ، اما نهر الرين ، فكان خلال زمن طويل يشكل حاجزا عظيما ، قبل ان يصبح « وسيلة اتحاد » عندما توفرت الشروط السلمية [1] في غربي اوروبا .

---

(١) يشير المؤلفون الى التفاهم الذي تم بين بلدان اوروبا الغربية بعد هزيمة المانيا الهتلرية وبشكل خاص التفاهم بين فرنسا والمانيا الغربية ، الذي ادى الى قيام منظمة السوق الاوروبية

ويمكن القول ان « أضراس الغول الرومانية » التي تمتد بين مصب الدانوب ومصب الراين ، مرورا بسهول الديكومات [1] ، تفصل بين عالمين :

— عالم اوروبا المطلة على البحار الشمالية .
— وعالم اوروبا المتوسطية أ(المطلة على البحر المتوسط) .

وعلى هذا الاساس يمكن ان نذكر عددا من المناطق التي تستقطب المجابهات والمعارك وممرات الهجرات المسلحة الكبرى . وان خطوط التصدع التي تصطدم عليها الدول يمكن ان تنتقل من امكنتها بحسب توسع الدول او تقلصها . وغالبا ما يكون ذلك بسبب الاختلاف بالتنظيم والتسليح : ففي الماضي اصبح الهكسوس اسيادا لمصر بفضل تفوق عربتهم الحربية واسلحتهم الحديدية ، وافتقار المصريين لاسلحة مماثلة .

وفي العصور الحديثة كانت الاسلحة المدرعة (أو الفرسان) السلاح الحاسم خلال الحرب العالمية الثانية ، وان انتصارات هتلر في المراحل الاولى من هذه الحرب ، يرجع سببها ، الى ان خصومه لم يكونوا قد تكيفوا واعتادوا على مثل هذا النوع من العمليات السريعة .

هناك نظرية مقبولة تقول : « **عندما تسهل التقنيات الهجوم** ،

المشتركة ، واتجاه اوروبا الغربية في السنوات الاخيرة نحو الوحدة السياسية الذي يعبر عنها البرلمان الاوروبي المنتخب عام ١٩٧٩ (المعرب) .

(١) سهول الديكومات : تقع بين نهر الرين غربا ونهر الدانوب شرقا ، وقد ضمها الرومان لامبراطوريتهم في القرن الاول الميلادي .

تولد الامبراطوريات » . وقد برزت هذه الظاهرة في العصور القديمة ، عندما استطاعت الامبراطوريات الاشورية والفارسية والرومانية الاستيلاء على اراض واسعة جدا .

وعلى العكس ، عندما تؤمن شروط الساعة التفوق لصالح الدفاع ، يبرز الميل نحو تضاؤل « السيادات » .

ففي المناطق الجبلية المنيعة في اليونان القديمة ، استطاعت المدن المحصنة التغلب على الجيوش المهاجمة بفضل استماتة مقاتليها البواسل بالدفاع ، واحتفظت بسياداتها . وعندما ازدادت امكانيات العدو الهجومية ، فقدت هذه المدن سيادتها .

وفي العصور الوسطى ، ساعدت قصور الاقطاعيين على التملص من السلطة الملكية المركزية ، وذلك بفضل جدرانها المنيعة التي صمدت لآلات الحصار المعروفة انذاك .

وهناك عدد من الدول الصغيرة التي عاشت مستقلة تقريبا في قلب بعض الممالك الكبرى ، وقد استمر هذا الوضع الى ان أتت المدفعية لتقدم للملك الوسيلة الفعالة لاسقاط جدران قصور الاقطاعيين المحصنة وتحطم مقاومة النبلاء ، وتضم الدويلات الصغيرة المعاندة .

خطوط التقسيم

لقد رأينا ، فيما سبق ، ان المجابهات الكبرى المسلحة والغزوات ،

تقع دائما حول خطوط التصدع ، غير ان هناك انواعا اخرى من الخطوط التي تفصل بين مختلف المجموعات البشرية .

ومن بين خطوط التقسيم هذه ، تأتي الخطوط التي تفصل بين الاعراق بالمعنى البيولوجي للكلمة . ولما كانت هذه المجموعات « اجتماعية — عرقية » ، فانه يتكون في داخلها تدريجيا الانتماء لنفس الحضارة . والاشتراك باللغة والثقافة ، والتعايش المستمر خلال اجيال عديدة ، بالاضافة الى جميع الاختلاطات التي تترتب على ذلك ، وينتهي ذلك عادة الى خلق كيانات اجتماعية — بيولوجية ، حقيقية .

ويمكن لخطوط التقسيم هذه ، ان تفصل كيانات سياسية وان تركب عدة دول او تقسمها ، عن طريق الفتوحات والهجرات والتبادل .

ومن ابرز هذه الخطوط :

١ — خط شمالي افريقيا ، حيث يشكل الصحراء الكبرى حدا هائلا بين البيض والسود . ويجدر الاشارة الى ان من بين التفسيرات التي اعطيت لهذا التقسيم بالاضافة الى حاجز الصحراء ، ذلك التفسير الذي قدمه المؤرخ ي . ف . غوتييه . ويعتقد هذا المؤرخ ان الامراض الوبائية وعلى رأسها الحمى الصفراء ، كادت تقضي على البيض في الجزء الافريقي الواقع جنوبي الصحراء .

٢ — خط تقسيم افريقي جنوبي ، ناتج عن الاحداث التاريخية ، كالهجرات الاوروبية على اثر الحروب الدينية ، والهجرات الكبرى لقبائل اليانتو في القرن التاسع عشر .

٣ ــ خط شمال امريكي : يفصل بنفس الوقت الاجناس الاجتماعية اللغوية ، جزئيا عن الاجناس الاخرى المختلفة . فالجزء الشمالي يحتوي على اقلية كبيرة من السود ولكن هذه الاقلية تمتص تدريجيا من النواحي الاجتماعية والقانونية والثقافية .

٤ ــ خط جنوبي اسيوي : يتألف من جنسيات مختلفة ، ولكنه يتحد بانتماء بحري مشترك (المحيط الهادي) .

٥ ــ خط تقسيم يمر الى الشمال من الصين ويفصلها عن (الامبراطورية السوفياتية) والدول الاخرى الوسيطة مثل : منغوليا ، ومنشوريا .

٦ ــ ويمكن ان يضاف الى هذه الخطوط ، خطوطا اخرى ، حسب كثافة التضامن الديني ، تفصل العالم الاسلامي عن العالم المسيحي والعالم الهندي . كما يمكن رسم خطوط سياسية تفصل الاجواء الايديولوجية الرئيسية والاجواء السياسية والاقتصادية (ويمكن ان يسمى بخط الانظمة) .

٧ ــ خطوط تقسيم اخرى : وهذه الخطوط يمكن رسمها بين البلدان المتطورة والبلدان النامية ، وفق معايير خاصة لمستويات التصنيع والمعيشة .

٨ ــ واخيرا يمكن اضافة خطوط فصل بين البلدان ذات التوازن السكاني (الديمغرافي) وبين البلدان ذات التزايد السكاني السريع .

ويمكن لخطوط التقسيم هذه ان تكون متعددة الجوانب مما يزيد في تعقيد المشاكل الناتجة عنها .

وهذه الخطوط التي رسمتها الجغرافيا وعلم الاجتماع ، تشكل نقاط احتكاك لمختلف الحضارات ، كما رسمت في الماضي المجابهات بين البشر ، وعلى هذه الخطوط نفسها سيتقرر مصير الدول الكبرى الحالية .

ومن المهم ايضا متابعة نشاط وتطور جبهات العدوان الاجتماعي . فمنذ عام ١٩٤٥ ، بداية العصر النووي ــ الفضائي ، تكثفت الحروب المحلية والحروب الصغيرة ، بشكل رئيسي على عشر جبهات عدوان جماعية شملت جميع القارات . وقد تمثلت تسعة من هذه الجبهات في كتاب « تحدي الحرب » الصادر عام ١٩٧٦ . ومنذ ذلك الوقت فتحت جبهة عاشرة اجتاحت اوروبا الغربية بكاملها ، وزرعت فيها الفوضى بواسطة الارهاب والاضطرابات الاقليمية .

الفصل السابع

ملحمة الحصان

لقد ناضل الانسان طوال عصور عديدة ولا يزال يناضل ضد البلادة الجغرافية . وكانت عملية « ترويض الحصان » واستخدامه من بين الوسائل التي استعملها الانسان للسيطرة على الطبيعة وتذليل العقبات الجغرافية .

كانت البداية في آسيا

لم يظهر الحصان فوق ساحات المعارك الا في الالف الثانية قبل الميلاد . ففي عصر الحجر المنحوت ، وعصر الحجر المصقول ، كان الحصان المتوحش يعيش في الطبيعية على شكل قطعان كبيرة . وتظهر لنا رسوم المغاورة ـــ مثل مغارة لاسكو [1] ، ومغارة التاميرا ـــ الحصان على شكل طريدة صيد ثمينة جدا . وقد تأكد ذلك من كميات العظام الهائلة التي وجدت حول بعض الاماكن المأهولة في ذلك العصر .

(١) تقع مغارة لاسكو في فرنسا (منطقة وردونيا) . وتقع مغارة التاميرا في اسبانيا .

وفيما بعد ، انتشر الحصان في سهوب إسيا الوسطى المنغولية ، حيث بدأ تدجينه وترويضه خلال الالف الثانية قبل الميلاد . وكانت العربات الحربية التي تجرها انواع من الحمير الآسيوية ، تظهر صورها في نقوش ذلك العصر .

ويبدو ان القبائل الرحالة بدأت استخدام الحصان كحيوان للجر قبل ان يستخدموه كحيوان للركوب ، ونظرا لمهارة هؤلاء الرحل في استخدام الاسلحة ، فقد استطاعوا التفوق على السكان « الحضر » القاطنين في الاحواض النهرية .

وفي هذه الفترة تقريبا ، كان الحصان في الصين رمزا للقوة والنبالة . وقد استخدمه الصينيون للركوب قبل استخدامه لهذه الغاية في الغرب .

ومن الملاحظ ان الحصان اصبح يدخل في المعتقدات الدينية والتقاليد الاجتماعية لبعض الحضارات . ففي الهند مثلا ، كان الاله قيشنون يتقمص على شكل حصان ابيض . وفي القرن التاسع عشر كانت تقام في شمالي سورية مهرجانات لسباق العربات التي تجرها الخيول . وكان امتلاك العربة يعزز مكانة وسمعة الزعيم ، لانه الوحيد الذي لديه الامكانيات للحصول عليها . وبالاضافة الى اهمية العربة من الناحية العسكرية ، فهي الوسيلة التي ساهمت في استقرار الامبراطوريات طيلة الالف الثانية قبل الميلاد ، لانها كانت تسمح للموظفين وممثلي السلطة المركزية بالتنقل السريع في طول البلاد وعرضها .

وفي البداية لم يكن السكان الحضر في بلاد ما بين النهرين ، يعرفون الحصان ، ولم يظهر في هذه المناطق الا مع وصول القبائل الرحل القادمين من هضاب الاناضول في بداية الالف الثانية قبل الميلاد . فالحثيون شعب من الفرسان كانوا يملكون عربات تجرها الجياد ، ويمتطيها النبالة وحملة الرماح . وكان لهم تفوق بارز على المقاتلين المشاة . وقد ظهر هذا الشعب حوالي عام ١٥٠٠ ق . م في شمالي بلاد مابين النهرين (العراق) واسس امبراطورية تغطي المناطق الواقعة شمالي وديان الدجلة والفرات . وكان هذا الحدث التاريخي اول تدخل معروف للعربة الحربية في المعارك .

وفي هذه الفترة تقريبا توغلت قبائل الهكسوس المحاربة الشرسة ، في وادي النيل وطردت السكان الاصليين الى الوادي الاعلى . ويبدو ان هؤلاء المحاربون هم اول من ادخل الحصان الى وادي النيل ، على الرغم من الشكوك التي تحيط بهذا الحدث .

وما لبث المصريون ان تعلموا هذه التقنيات الحديثة ، واخذ الحصان مكانا بارزا في حياتهم الاجتماعية واحتفالاتهم الدينية ، وصيدهم وانتصاراتهم الحربية ، كما تعلمت الارستقراطية المصرية استخدام هذا السلاح الجديد اي العربة الحربية ، والتي اصبحت القاعدة الاساسية للجيش الفرعوني بعد اعادة تنظيمه ، واستخدمت بشكل خاص لشن الحملات البعيدة المدى .

وتدل الوثائق المصرية ان رمسيس الاول كان يملك في جيشه (٣٥٠٠) عربة متنوعة .

اما الاشوريون فقد خطوا في هذا الميدان (ميدان استخدام الحصان في القتال) خطوة هامة . عندما اعطوا للمعركة الحربية ، شكل العمليات المتسلسلة ، بدلا من الشكل السابق الذي يقوم على الصدمة القصيرة . وازدادت القدرة على الحركة واعطي للسرعة اهمية كبرى ، كل ذلك بفضل العربات الحربية السريعة ، وسجل الاشوريون تطورا كبيرا في الافكار العسكرية .

وفي فارس احتل الحصان ايضا المقام الاول في الديانة والحرب . واصبح سلاح الفرسان الذي استخدمه الامبراطور سيروس كسلاح رئيسي ، اصبح هذا السلاح اكثر تطورا وفعالية من سلاح المشاة .

وكان الفارس يهاجم الخصم بسلاحه الجاهز للرمي ، ويتجنب الالتحام الجسدي مما يسبب الانهاك للخصم . ويعتبر الامبراطور سيروس اول معلم للفروسية في عصره . فهو الذي اخترع « المخفر » و « المخافر البديلة » ، وقد أنشأ سلسلة من المخافر لحماية الحدود وطرق المواصلات .

وتشير الاساطير الى ان داريوس تولى العرش بفضل حصانه الذي شرفه في احدى المباريات التي جرت بين النبلاء المرشحين للعرش الملكي .

وان اقتران اسم « الجواد » باختيار الزعماء ، يظهر الاهمية التي كانت تعطى للحصان في فارس عند تأسيس الامبراطورية .

استمرار ملحمة الحصان في اوروبا : في الفن ، والدين ، والمعركة

لم تكن اليونان من البلاد ذات التقاليد الفروسية ، فهي بلاد جبلية وعرة ، لا تلائم تربية الحصان . ولم يعثر اثناء الحفريات على عظام الخيول بين آثارها ، كما لم يظهر الحصان في الفن الاغريقي الا بعد وصول القوافل الاشورية والمصرية الى اليونان . ومنذ ذلك الوقت اخذ الحصان يظهر في الطقوس الدينية والاساطير . وكانت افضل الخيول اليونانية تتواجد في تيساليا بلاد السنتور [١] .

ومن المعروف ان ملوك الاغريق ذهبوا الى حرب طروادة وهم يمتطون العربات الحربية التي تجرها الخيول ، كما ان اخيلا « سحل » جثة « هكتور » بواسطة احد الجياد .

ومن الجدير بالذكر ايضا انه من بين المهمات التي يقوم بها هرقل تنظيف الاسطبلات والاعتناء بالخيول التابعة لملك اوجياس [٢] . وكانت برامج الالعاب الاولمبية تتضمن مباريات بسباق العربات . والحقيقة كان الحصان بالنسبة للاغريق يحتل مكانا في الالعاب الرياضية والفن أهم من

---

(١) السنقور : رجل اسطوري تظهر رسومه في الرسوم والاساطير اليونانية له جسم حصان ورأس الانسان .

(٢) اوجياس : ملك اسطوري تحدثت عنه الالياذة ، وكان هرقل يعتني باسطبلاته .

مكانته في الحرب . ففي القرن الخامس ق . م لم يكن تعداد الخيالة الاغريقية تزيد عن (١٠٠٠) جواد ، اما الاسكندر الاكبر الذي كان لحصانه المسمى بوسيفال شهرة عظيمة في العصور القديمة ، فلم يكن يملك في معركة آربيل [١] عام ٣٣١ ق . م الا (٧٠٠٠) فارس محارب مقابل (٤٠٠٠٠) مقاتل من المشاة ، بينما كان لدى خصمه الفارسي اعدادا اكثر بكثير من الفرسان .

وفي شبه الجزيرة الايطالية ، كانت خيول شعب الايتروسك مخصصة للاعمال المنزلية ، كما تظهر في المباريات والمهرجانات الدينية ، وكان فن المركبات ذات العجلتين من الفنون التي تتسم بالرهافة والذوق الرفيع في مدينة تاركينيا [٢] .

ولم يكن الرومان ايضا من الفرسان ، وكانوا يطوعون المرتزقة من النوميد [٣] والجرمان والغولوا ، لتعويض ضعف الخيالة في جحافلهم . ومع ذلك فان تماثيل الفرسان التي صنعت في ذلك الزمن ، كتمثال الامبراطور مارك اوريول في الكابيتول ، تظهر بوضوح مكانة الحصان المرموقة في روما .

---

(١) آربيل : مدينة اشورية وقعت بها المعركة الفاصلة بين الاسكندر ودارتيوس الثالث ملك الفرس .

(٢) تاركينيا : مدينة في وسط ايطاليا ، وكانت اكبر مدن شعب الاتروسك .

(٣) النوميد : منطقة قديمة في افريقيا وتقع بين قرطاجة وموريتانيا وشعبها من البربر . وقد الحقها الرومان بامبراطوريتهم .

وعلى عكس ذلك ، هناك بعض الشعوب المعروفة بفروسيتها كالعرب والمغول ، فهم فرسان منذ الولادة ، قاموا برحلات هائلة وحققوا فتروحات عظيمة كتب لبعضها الدوام .

والحصان تتردد ذكراه في الاغاني الراقصة ، وفي روايات الفرسان حيث يحتل مكانا رئيسيا . ولباس الحصان يحمل معنى رمزيا ، والفارس في الحرب يعتبر شيئا واحدا مع راحلته المقاتلة ، وهو نوع من الخيول الخاصة بالقتال ، ويمتطي الفارس الحصان المخصص للاحتفالات في المهرجانات والصيد حيث ترافقه زوجته التي تمتطي عادة فرسا رهوانا (مخصصا لركوب السيدات) . اما اذا ارادا القيام برحلة طويلة ، فانه يمتطي حصانا قويا (من النوع الذي تمتطيه الشرطة ، بينما يضع امتعته على ظهر حصان الحمل) .

وهذه المصطلحات المتعددة تظهر اهمية الدور الذي كان يقوم به الحصان في عصر الفروسية الاوروبية .

وللحصان في كل بلد وكل عصر وبالنسبة لكل حضارة صفة ومعنى خاصين ، فهو يرافق الانسان في حياته اليومية ، وفي الاحتفالات العادية والدينية ، كما يرافقه اغلب الاحيان في الحروب .

الحصـــان والمراتب الاجتماعيــة

أوجد دخول الحصان خادم للانسان في الحرب تسلسلا اجتماعيا في البلاد التي انتشر فيها .

ففي روما التي لم يكن لديها في البداية وحدات خيالة كبرى ، كان لديها نظام للفروسية ، قام اساسا بعد ان عرفت ملكية الحصان ، التي اصبحت عنوانا للثروة والجاه . وفتح هذا النظام الباب لمهام مدنية وادارية وعسكرية . واصبحت هذه الفئة خلال القرن الاول الميلادي طبقة متوسطة كبرى في الامبراطورية .

وفي العهد الكارولنجي [1] كان على كل رجل حر ان يقوم بخدمة سيده (الملك) وعليه ان يتحمل نفقة راحلة وتجهيزاتها والاسلحة الضرورية للقتال ، بالاضافة الى رواحل عبيده واسلحتهم ، وهذه الضريبة غير المباشرة باهظة جدا لا يتحملها الا الاثرياء .

وقد ترتب على هذا النظام تحولا في البنية الاجتماعية ، فلكي يتمكن الفرسان من مواجهة النفقات التي يستلزمها الاعداد للحرب والمساهمة في خدمة المملكة ، اخذ الملك الكارولنجي يوزع عليهم الاراضي (الاقطاعات) وكانت النتيجة نشوء طبقة جديدة هي ارستقراطية الارض (الاقطاعيين) واصبح لقب « الفارس » عنوان نبالة دائمة . وهكذا اصبح الفرسان الذين يعبئون بهذه الطريقة القاعدة الاساسية للنظام الاقطاعي . وفي اطار هذا النظام نشأ شكل جديد من اشكال الحرب ،

---

(١) العهد الكارولنجي : هو عهد الاسرة التي حلت محل الاسرة الميروفانجان (عام ٧٥١ م) . وكان اول ملوكها بيبان وهي التي احيت الامبراطورية الغربية في عهد الامبراطور شالمان (٨٠٠ — ٨٨٧) م وقد استمر احفادها يحكمون المانيا حتى عام ٩١١ م وفرنسا حتى عام ٩٨٧ م .

الا وهو المبارزة الفردية ، التي اصبحت الاسلوب الوحيد المستخدم ، واخذت الحرب الاقطاعية شكل المبارزات الكبرى .

أما المعارك فكانت عبارة عن لقاء بين فرسان متخاصمون يقاتلون بالنظام « المنتشر » يحاول كل فرد منهم طرح خصمه عن ظهر جواده ، ولم يكن الهدف بالضرورة القضاء على الخصم . ويتوقف مصير المعركة عادة على نتيجة المبارزة .

النبالون (رماة الاسهم) الراكبون والفرسان المدرعون (الخيالة المدرعة)

كانت أعظم الهزائم التي كرست نهاية الامبراطورية الرومانية ، هي تلك التي الحقها بها فرسان البرابرة . فالجحفل الروماني ، كان مؤلفا من وحدات مشاة أساسا ، تدعمه نسبة ضئيلة من الفرسان (الخيالة) . وقد اعتاد الرومان اللجوء لحلفائهم للحصول على الفرسان عند الضرورة ، ولكن الخيالة المعادية ، كانت تعرف في اغلب الاحيان ، كيف تفرض تفوقها على الجحافل الرومانية . ففي عام (٥٣) ق . م ، دوى صوت انذار ترددت اصداؤه في مدينة كاره عندما تغلب فرسان البارت [١] ،

(١) البارت : شعب من السيت ، اصبح ايرانيا ، انشأ مملكة قوية (٢٥٠ ــ ٢٢٤) ق . م وقد انضمت بعد ذلك الى الامبراطورية الساسانية . وقد اشتهروا بالمعركة التي هزمت فيها خيالتهم الجحافل الرومانية عندما تظاهرت بالتراجع ، وحاول الرومان مطاردتهم ، اخذ الفرسان يرشقونهم بالسهام فألحقوا بهم خسائر فادحة ادت الى هزيمتهم ، ومن هنا يأتي المثل القائل : « أشبه بسهم البارث » اي السهم المباغت .

رماة القوس ، على الجحافل الرومانية بقيادة كراسوس . وتميزت القرون الاخيرة من عمر الامبراطورية الرومانية بالهجمات المتكررة العنيفة التي كانت تشنها على الحدود الشعوب المعروفة بفروسيتها . وقد تمكنت روما من رد الهجمات التي أتت من وراء نهر الرين ، غير ان الفرس والبارث والغولوا لم تفتر عزائمهم ، ولم يكفوا عن التوغل داخل اراضي الامبراطورية . وكان من نتائج هذه الهجمات ، أن خسرت روما بلاد ارمينيا التي استولى عليها الفرس عام ٣٦٣ م . ثم تلقت هزيمة ساحقة في أدرنه عام ٣٧٨ م على يد الغوط (١) الذين استخدموا نوعا من الخيالة المدرعة . وهكذا ظهر الغوط فجأة على أبواب البلقان بفضل استيلائهم على جدار الامبراطور تراجان (٢) وفي هذه المعركة ، التي لا نعرف الا القليل عنها ، تمركز الرومان امام مدينة أدرنه ، وتكبدوا اعظم هزيمة فاصلة فتح الطريق امام تفوق « الخيالة » على « المشاة » طوال ألف عام .

ويصف المؤرخ اميان مارسلان هذه المعركة التاريخية فيقول : « انقض فرسان الغوط على الجحافل الرومانية كانقضاض الرعد على سلاسل الجبال ، وحملت عليها حملة خاطفة ، فكنست جميع الوحدات الرومانية بعاصفة هوجاء من المجازر » .

---

(١) الغوط : شعب جرماني كان يقطن عند مصب نهر الغيستول ثم احتل فيما بعد جنوب شرق اوروبا ، اعتنقوا المسيحية على مذهب اريان في القرن الرابع الميلادي . ثم انهارت امبراطوريتهم تحت ضغط قبائل لهون عام ٣٧٥ م . وعاش قسم منهم تحت سيطرة روما .

(٢) جدار تراجان : هو سلسلة من التحصينات التي اقامها الامبراطور تراجان على حدود الامبراطورية مع قبائل الجرمان .

وفي ذلك الوقت كان هناك نوعان من الخيالة :

الخيالة الثقيلة : التي يقاتل فيها الفارس برشق السهام عن بعد ، ويستعمل الرمح في المصادمة المباشرة .

والخيالة الخفيفة : يكون فيها الرماة اقل حماية ، وأخف وزنا ، واكثر قدرة على المناورة وسرعة الحركة .

اما الامبراطورية البيزنطية فاستخدمت هي ايضا « الفارس المدرع » الذي يشبه فارس القرون الوسطى بخوذته الحديدية المزينة ، ودرعه المحبوك من الزرد ، وقفازاته وحذائه الفولاذي . وهناك تشابه كبير ايضا بين وسائل حماية حصان الفارس المدرع وفارس القرون الوسطى .

التجديد المغولي

يعود الفضل الاول في تطوير اساليب قتال وحدات الخيالة ، للشعب المغولي . فقد كانت هذه الوحدات تقاتل بالترتيب المنتشر تقريبا ، حتى مجيء الفاتح الاعظم جنكيزخان . كما كانت هذه الوحدات تشكل في معظم الاحيان سلاحا مكملا لسلاح المشاة ، ولم تكن تعتبر سلاحا رئيسيا مستقلا .

أما بعد جنكيز خان ، فقد اصبح الجيش بكامله من الخيالة ، فيقسم الى فيالق يمكنها خوض المعارك منفصلة على مسافات بعيدة عن

قاعدتها ، وتساهم بالوقت نفسه بمناورة الجيش الكبرى التي يديرها القائد العام .

ومن الجدير بالذكر ان عمليات الشعوب الرحل الحربية ، كانت تعتمد اساسا على سرعة خيولها ومهارة رماتها (النبالة) . ويحدثنا التاريخ ان الهون في القرن الخامس الميلادي ، والافار [1] في القرن السابع ، والهنغار في القرن العاشر ، والاتراك في القرن العاشر ، قطعوا مسافات شاسعة جدا وخلفوا وراءهم الدمار ، ولكن تقنياتهم وتكتيكاتهم بقيت متخلفة ، الى ان جاء جنكيز خان في القرن الثالث عشر ، فأعطى للخيالة دفعة جديدة دفعت بها الى درجة عالية من الكمال .

وقد كتب السيد ايميري الخبير بالشؤون العسكرية معلقا على هذا الحدث التاريخي فقال :

« اذا كان أرفع ما بلغه الفن العسكري ، منذ نشوء الكتيبة المكدونية وحتى قيام الفرقة المدرعة ، عبارة عن منجنيق حي لا يقاوم ، فلا شيء اطلاقا يعادل ، في هذا الميدان ، قبل تدخل التقنيات الحديثة ، القوى الضاربة الخارقة ، والسرعة المنضبطة العظيمة للخيالة المغولية » .

لقد ذرعت هذه الخيالة (المغولية) فيافي الصين حتى بلغت المحيط الهادي ، ثم انكفأت نحو الغرب بسرعة خاطفة ، فوصلت الى جبال

---

(١) الافار : شعب وسط آسيا ، اجتاح اوروبا خلال ثلاثة قرون ، وقد اوقف زحفهم الامبراطور شارلمان عام ٧٩٦ م ، وضمهم الى امبراطوريته .

الكاربات والبحر الادرياتيكي . ولم يتوقف اندفاع هذه القوة الرّهيبة الا وفاة قائدها .

لقد حققت هذه التحركات الكبرى ، ذات التنظيم الرفيع ، نتائج غريبة . وفي رأي المؤرخ راتزل « ان الهدف الاسمى للشعوب الرحالة ليس الانتصار بل ابادة الخصم » (١) .

ويمكن القول بأن الامبراطوريات التي قامت بهذه الطريقة ، سرعان ما تفسخت وانهارت ، ذلك ان الاستقرار يختص بالامبراطوريات التي اسستها « المشاة » ، على ان ذلك لا ينفي مطلقا بأن انتصارات الفرسان تركت بصماتها على فترات طويلة من تاريخ البشرية .

فرسان الغرب

لم تسلك « خيالة الغرب » الاوروبي ، سبل خيالة الشعوب الرحالة . فقد استفادت من تطور عدة الحصان فأصبحت ثقيلة ، وذلك لحماية نفسها من اسلحة الرماية ولتعطي لعمليات الصدام قوة أعظم . ولكنها بالغت في هذه الناحية لدرجة اصبح معها الفارس والحصان مثقلان

(١) رغم الجهود الملموسة التي يبذلها المؤلفون البحاثون في هذا الكتاب للتقيد بالاصول العملية والموضوعية ليجعلوا منه اساسا ثابتا لـ « علم الحرب » الا أنهم لم يستطيعوا التحرر من تعصبهم للحضارة الاوروبية ، وقد غاب عن اذهانهم ان جميع شعوب اوروبا كانت حتى القرن العاشر شعوبا بربرية رحالة ، شأنهم في ذلك كشأن بعض الشعوب التي لاتزال في هذه المرحلة الانتقالية التي في طريقها للزوال (المعرب) .

بما يزيد عن قنطار من الفولاذ ، وهكذا فقدت الخيالة الغربية كل امكانياتها على المناورة تقريبا . ومع ذلك فقد بقي الانسان الراكب مسيطرا على ساحات المعارك بصرف النظر عن خفة اسلحته او ثقلها .

فشــل الخيالـة الراكبـة

لم يتوقف البشر المشاة لحظة عن بذل الجهود لايجاد صيغ مستحدثة لازالة تفوق « الراكبين » ، والبحث عن الفضائل والمحسنات التي يؤمنها « العدد » . وكانت تشكيلات المشاة الملتحمة في النظام المنضم ، هي التي استطاعت الصمود امام قوة اختراق الخيالة ، بفضل قدرتها العالية على امتصاص الصدمة .

ونحن نذكر في هذا المجال ، كيف استطاعت الكتائب المكدونية تحطيم هجمات الخيالة الفارسية وتردها على اعقابها تدعمها قوة صغيرة من الفرسان التي أحدثها الاسكندر وكانت المشاة المكدونية انذاك تستقبل الخيالة الفارسية ، بصفوفها المتراصة ورماحها الطويلة المحنية .

وفي القرن الثالث عشر استطاع سكان مدينة ييج (البلجيكية) ، ايقاف حملة فرسان هنري الاول[1] ، فقد تحطمت هجمات هؤلاء الفرسان على جدار من الرماح المغروزة بشكل مائل في الارض .

---

(١) هنري الاول (١٢٠٤ ــ ١٢١٧) ملك قشتاله الاسباني .

وهكذا ، لاول مرة منذ قرون عديدة استطاعت وحدات المشاة ان تصمد امام خيالة واثقة من تفوقها المطلق ، وتوقع بها الهزيمة في معركة بالنظام المنتشر .

وفي مدينة كورتريه [١] ، كبد الفلاماندیون الخيالة الفرنسية الثقيلة ، هزيمة ساحقة ، لان هذه الخيالة لم تكن قادرة على المناورة في اراض وعرة .

والواقع ان السويسريين هم الذين اوصلوا الفن العسكري الى اوجه في القرن الثالث عشر ، وكانوا اول من احيا علم القدماء العسكري ، الذي دمرته العصور الوسطى . فقد أنشأ السويسريون وحدات مشاة حقيقية تشبه الكتائب المكدونية والجحافل الرومانية [٢] ، واستخدموا في القتال اسلحة جديدة تتلاءم بشكل خاص مع المشاة فأعادوا اليها شبابها بعد ان عفا عليها النسيان طوال الف عام تقريبا .

وبفضل هذا التجديد اصبح المرتزقة السويسريين يحصلون على اعلى الاجور ، ويتنافس في طلبهم كل ملوك اوروبا . واصبح المثل الذي يتردد على كل الالسنة في اوروبا هو :

---

(١) كورتريه : مدينة بلجيكية ، حدثت فيها موقعة تاريخية هزم فيها الفرسان الفلامان الخيالة الفرنسية الثقيلة .

(٢) اعتمدنا كلمة كتيبة كترجمة لكلمة (فالانجي) ، وكلمة جحفل كترجمة لكلمة (ليجيون) ، توخيا للسهولة وعدم الخلط بين الاصطلاحين خاصة اننا لم نعثر في المعجم العسكري على تعريب لهما (العرب) .

« ما في فلوس ، ما في سويسريين » .

أوليس هناك مرتزقة سويسريين يدون مال .

وما ذلك الا بسبب الشهرة التي حصلوا عليها كمقاتلين لا يغلبون في ساحات المعارك » .

وهناك انتصارات اخرى حصل عليها رماة القوس ضد الخيالة ، كما حدث في معركة آزينكورت [1] ، الا ان هذه الانتصارات كانت نتيجة لرعونة الفرسان الفرنسيين المفرطة .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من اختراع القذافة [2] التي تفوق بقوتها ، قوة القوس البسيط ، فقد ثابر سلاح الفرسان على الظهور في ساحات المعارك ، ليلعب دورا لا يمكن الاقلال من أهميته .

استمرت المعارك على هذا المنوال قرونا طويلة . وكان لا بد من انتظار ظهور الأسلحة النارية وتطورها ، لكي يتبدل هذا الوضع ، وتصبح الحرب يوما بعد يوم من اختصاص الجنود المحترفين ــ مثل العصابات البيكاردي ، والمرتزقة السويسريين ، والمرتزقة الجرمان ، والمرتزقة الطليان ، وتفقد كل اثر للمثالية والفروسية وتأخذ طابع « العلم الذي لا يعرف الرحمة » .

---

(١) آزينكورت : منطقة البادوكاليه الفرنسية الواقعة على ساحل المانش مقابل الجزر البريطانية . وقد جرت فيها المعركة التي هزم فيها الانكليز الخيالة الفرنسية في تشرين الاول ١٤١٥ م .

(٢) القذافة : سلاح لقذف الاسهم الثقيلة والحجارة ، وهو اثقل من القوس المبسط .

ومما يذكر ان معركة رافين [1] ، سجلت أول انتصار للمدفعية خلال الحروب الايطالية . وبعد ذلك بثلاث سنوات (اي في عام ١٥١٥) فتحت مدفعية فرانسوا الاول (ملك فرنسا) الثغرات في صفوف الكتائب السويسرية في معركة مارينيان [2] .

هذا وقد استخدمت المدفعية في عمليات التمهيد للهجوم فدمرت القلاع الحصينة ، وأدت بذلك الى تطوير فن التحصينات .

أما « وحدات الخيالة » ، التي اظهرت عجزها في مقاومة البندقية القديمة ذات الفتيل والقربينة [3] فقد استعادت مميزاتها بعد ادخال الغدارة (أو المسدس) الى المعركة .

ومع ذلك لم يستطع فرسان التتار والمغول استرداد فعاليتهم والصمود امام المدافع والاسلحة النارية الاخرى . وبذلك استطاعت الصين وروسيا القيصرية ، التحرر من عبودية الاقوام الرحل الذين لم يتمكنوا من الحصول على الاسلحة الحديثة المماثلة .

وعند سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م على يد الاتراك احفاد الفرسان النبالة ، كان الفضل في انتصارهم على الرومان ، وتحطيم آخر جدار روماني لمدفعيتهم الرهيبة . وسجلت هذه المعركة التاريخية الحاسمة

---

(١) رافين : احدى المدن الايطالية الغنية في الشمال وقد دفن فيها الكاتب المشهور دانتي .

(٢) مارينيان : مدينة ايطالية بالقرب من ميلانو .

(٣) القربينة : هي اول سلاح ناري قابل للحمل على كتف جندي المشاة ، استخدم في نهاية القرن الخامس عشر وحتى بداية القرن السابع عشر .

ابتداء عصر جديد ، الا وهو عصر الاسلحة النارية وعلى رأسها المدفعية « سيدة المعركة » .

وبالرغم من هذا الحدث العظيم ، فان روح الفروسية ، وسلاح الفرسان نفسه ، حافظا على مكانتهما في الحروب ، ولم يختف الخيالة من ساحات المعارك . وفي عهد نابليون الاول استعادت الخيالة رونقها ــ فكانت الخيالة الخفيفة ــ الهوسار والجوالة ــ تقوم بمهمة البحث عن المعلومات (الاستطلاع) وتغطي فيالق المشاة ، بينما تسعى الخيالة الثقيلة المدّرعة لتحقيق القرار الحاسم بالانقضاض العنيف الخاطف ، بعد ان تقوم المدفعية برمايات التمهيد .

ولم يشهد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اختفاء الخيالة من ساحة المعركة ، بل على العكس فقد عرفت ازدهارا ومجداً جديدا . ولكن التقنيات لم تسمح لها بمسايرة تطور الاسلحة الحديثة وقوتها النارية ، وأدى ذلك الى فقدانها المقام الأول الذي تمكنت من الاحتفاظ به خلال فترة تقارب الالف عام .

وفي القرن التاسع عشر اعطت حملات لواء الفرسان الخفيف البطولية معركة بالاكلافا[١] ، وحملات الخيالة المدرعة في معركة ريشهوفن[٢]

(١) بالاكلافا : احد موانىء الاتحاد السوفياتي ، في منطقة القرم الاوكرانية على البحر الاسود . حدثت فيها المعركة التاريخية بين الروس والانكليز عام ١٨٥٤ ، واشتهرت بالانقضاض الذي قامت فيه الخيالة الانكليزية .

(٢) ريشهوفن : مدينة المانية على الحدود الفرنسية .

عام ۱۸۷۰ م اعطت للشعراء والرسامين الفرصة لانتاج اعمال فنية رائعة كتب لها الخلود ، ولكنها ، ويا للاسف ، كانت طافحة بمشاعر اليأس لانها لم تؤثر على نتائج المعارك .

ويلاحظ استمرار الخيالة في بداية القرن العشرين واشتراكها في الحربين العالميتين الاولى والثانية . وفي هذه الفترة لم تكن وحدات الفرسان الفرنسية (المسماة دراغون) او (التنين) ، والخيالة الالمانية المسماة (اوهلان) تختلف من حيث الشكل عن خيالة الاسكندر الكبير المكدوني ، برماح فرسانها وخوذهم المزينة بشعور اعراف الخيول (بالنسبة للفرسان الفرنسيين) .

وفي عام ۱۹۳۹ رأينا الفرسان البولونيين ينقضون بشجاعة خارقة بلغت حد الجنون ، على الدبابات الالمانية ، فتحصدهم هذه بنيرانها وتسحقهم مع خيولهم ، وتضع نهاية مأساوية لملحمة الحصان .

عصر المدرعات

تم تجهيز العربات المصفحة لاول مرة بالمحركات الانفجارية . ومنذ ذلك الوقت اخذ هذا السلاح الحديث يسيطر على ساحات المعارك [١] كوريث بعيد جدا للعربات الحربية الاشورية والبابلية .

---

(١) لم تعد سيطرة المدرعات على ساحة المعركة سيطرة مطلقة بعد تطور مختلف انواع الصواريخ والاسلحة المضادة للدروع ، وقد ظهر بعد ذلك بوضوح في حرب تشرين التحريرية عام ۱۹۷۳ بين العرب واسرائيل .

ولم يقتصر تراجع الحصان عن ساحات المعركة فحسب ، بل رأيناه في نفس الوقت ينسحب تدريجيا أمام المحرك من النشاطات السلمية المتنوعة في المدن والارياف . وهناك بعض الامثلة المعبرة عن هذا التطور في الريف الفرنسي ، ففي بعض قرى الجنوب المشهورة بزراعة الكروم التي لم يكن تعدادها في عام ١٩١٤ يزيد عن (٨٠٠) نسمة ، كانت تحتوي على مايزيد عن (١٣٠) حصانا ، أما في عام ١٩٧٩ وبعد ان وصل تعداد سكانها الى (١٦٠٠) نسمة لم نجد فيها سوى حصان واحد .

الحصان يستعيد شبابه

على الرغم من المصائب التي حلت بالخيول بعد تطور الاسلحة النارية ، واستخدام المحركات الانفجارية ، فقد رفض الحصان بعناد الانسحاب من الساحة نهائيا لينضم الى اكداس المخلفات التي ورثها الانسان من العصور القديمة . وها نحن نراه في عصرنا الحديث يفرض نفسه في ميادين رياضة الفروسية ، ويبعث من جديد بعض المعاني الطبقية ، وصفات الجاه والنبالة والثراء .

ففي هذه الايام اصبح ركوب الخيل بالنسبة للشباب رمزا للانتماء الاجتماعي . وقد ازداد عدد جمعيات الفروسية ، في (فرنسا) في السنوات الاخيرة ، الى الحد الذي اصبح من الصعب احصاءها بشكل دقيق . وغدا تجوال فرق الفروسية والمباريات ، وسباق الخيول ، من الامور العادية المعروفة في الريف والمدن الكبرى . ويبدو ان الشباب شغفون بهذه

الرياضة ، وهم يشعرون بالسعادة والكبرياء عندما يمتطون جوادا اصيلا ، شأنهم بذلك كشأن الفتي ستندال عندما كان ضابطا برتبة ملازم في سن التاسعة عشر ، فقد تذكر مشاعره العميقة وسعادته عندما وصف مسرح عمليات واترلو فكتب في روايته « ديردوبارم » : لقد تملكتني سعادة مجنونة .... ويضيف واصفا بطل الرواية فيقول : « لم يشعر فابريس ديل دونغو [1] بالسعادة وهو يجد نفسه بين قوائم حصان شرس » .

(١) فابريس ديل دونغو : بطل رواية ستاندال (ديردوبارم) وهو فتى طموح متعطش للمجد والسعادة .

الفصل الثامن

الحروب واستبداد الشرق

لقد طبعت استبدادية الشرق ، طوال ثلاثة الاف عام ، العلاقة الوثيقة بين الحضارات والحروب ، بعرباتها وخيالتها .

تعاقب الامبراطوريات الشرقية

ان الحضارات الاولى القديمة التي نشأت في وديان الانهار الخصبة في آسيا الصغرى ومصر ، لم تعرف الحصان الا في الالف الثانية قبل الميلاد ، عندما ادخله اليها سكان السهوب والهضاب العالية .

وسرعان ما أصبح هذا الحيوان اداة توسع مخيفة ، سمحت للممالك والامبراطوريات العسكرية باختراع عربات القتال المجرورة ، كما مكنتهم من انشاء جيوش قوية سريعة الحركة .

وكان الهكسوس ، هم الذين علموا فراعنة مصر استخدام العربة الحربية ، وبفضل مدرستهم استطاع المصريون خلق جيوش قادرة على نقل الحرب خارج حدودهم .

وتروي المخطوطات التي وجدت في معبد الكرنك (مصر) ، بعض المعارك التي خاضها تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ويبدو من هذه الوثائق ان تحوتمس كان يملك اعدادا كبيرة من عربات القتال ، ووحدات عسكرية سريعة الحركة قادرة على المناورة مما ساعده على ايقاع الهزيمة بالسوريين في موقع ماجدو ، والحصول على غنائم هائلة في ساحة المعركة كان من بينها العديد من العربات الحربية .

وقد سهل الحصان تنظيم الحملات البعيدة ، فبعد معركة ماجدو ، استولى تحوتمس على فلسطين وفينيقيا ، ونقل حدود مصر من سيناء الى مملكة ميتاني [1] وراء نهر الفرات .

وقد اتقن الاشوريون الفن العسكري وطوروا عربات القتال ، واستخدموها لحماية المشاة والوحدات الهندسية . وبفضل هذا السلاح الحديث باشر الملك تفلاصر الاول حروبه التوسعية حوالي عام (١١٠٠) ق . م ، فاندفع نحو البحر الاسود شمالا ، والبحر الابيض المتوسط غربا ، وانشأ احدى اوسع الامبراطوريات في العصور القديمة .

وفي القرن التاسع ق . م استأنف ملوك اشور الحروب التوسعية ، فنظموا حملات سنوية بعيدة المدى ، واستطاعوا تحطيم مقاومات الشعوب المجاورة .

---

(١) مملكة ميتاني : مملكة تقع الى الشرق من نهر الفرات (ارمينيا الحالية) انفصلت عن مملكة الحوريين في القرن السادس عشر ق . م ثم ضمها الاشوريون الى امبراطوريتهم في القرن الخامس عشر ق . م .

واعطى اشور بانيبال الثاني للامبراطورية الاشورية اتساعا عظيما ، وظهرت لاول مرة في التاريخ « قطعة عسكرية » استطاعت فيما بعد ان تلعب دورا حاسما في الحروب خلال مئات السنين ، وهذه القطعة هي « سلاح الفرسان » .

ومع ذلك فقد عرفت الامبراطورية الاشورية فترات من السكون والخمول لان الشعوب الخيالة تقيم احيانا امبراطوريات اقل استقرارا من شعوب المشاة .

وحوالى عام (٦٥٠) ق .م بدأت مرحلة جديدة رائعة عندما شهدت بابل فترة من الازدهار استطاعت خلالها رد الاشوريين حتى منابع انهار بلاد ما بين النهرين . ولكن الاشوريين ما لبثوا ان إستعادوا الاراضي المحتلة حتى الخليج (العربي ـــ الفارسي) واستولوا على فلسطين ، ونفوا اليهود من القدس الى بابل ، ثم تابعوا سيرهم الى دلتا النيل ونقلوا حضارتهم الى (طيبة) المدينة الفرعونية اللاهوتية (في مصر العليا) .

واستمرت الامبراطوريات العظمى تهيمن على الشرق الاوسط : فكانت الامبراطورية الفارسية في القرن الخامس ق . م في عهد سيروس العظيم . وفي القرن الرابع قبل الميلاد امتدت الامبراطورية الاغريقية ، في عهد الاسكندر المكدوني ، من الحوض الشرقي للبحر المتوسط حتى ضفاف نهر الهندوس ، حيث اصطدمت الحضارتان الاوروبية والاسيوية لاول مرة في التاريخ وتداخلتا ببعضهما البعض .

وأتت بعد ذلك سيطرة الامبراطورية الرومانية التي لم تشهد مطلقا

هذا النوع من الحملات السريعة الكبرى التي قامت بها وحدات الخيالة ، بل كان توسعها اقل سرعة واكثر استمزارا . ذلك ان الرومان شعب من المشاة وسعوا امبراطوريتهم واقاموا بها القواعد الصلبة . ومع ذلك فقد انهارت تحت ضغط هجمات البرابرة الفرسان الذين انطلقوا من فيافي اسيا الوسطى .

وبعد انتصارات قبائل الهون في القرن الخامس الميلادي ، والفتوحات المغولية في القرن الثالث عشر ، اعيدت الى الذاكرة فتوحات وانتصارات الامبراطوريات العظمى في العصور القديمة . فقد كانت الاراضي التي احتلها جنكيزخان [١] ومن بعده تيمورلنك [٢] تغطي مساحات هائلة تعادل نصف قارة آسيا .

وعرفت البشرية من خلال هذين القائدين وجيوشهما المحمولة بكاملها على الخيول ، تلك الصفات التي تتميز بها الشعوب الخيالة . فأثبتت حملاتهم الخاطفة امكانياتهم العسكرية الخارقة ، كما كشفت نقاط ضعفهم البارزة ايضا : الا وهي عدم قدرتهم على الاستمرار .

---

(١) جنكيزخان : لقب تيموجين مؤسس اول امبراطورية مغولية (١٢٢٧ م) ، اختاره الشعب المغولي « خانا أعظم » عام « ١٢٠٦ م » ، استولى على الصين الشمالية عام (١٢١٥ م) ثم تحول شمالا فاستولى على روسيا وافغانستان واوروبا الوسطى وأسس امبراطورية على الطاعة العمياء والاستبداد .

(٢) تيمورلنك : ولد في كيس بالقرب من سمرقند (١٣٣٦ ــ ١٤٠٥ م) . اجتاح ايران والجزء الواقع بين دلهي وبغداد . وهزم السلطان العثماني بايزيد الاول عام (١٤٠٢) م . وتوفي اثناء حملته لاحتلال الصين .

الامبراطوريات والاستبداديات الشرقيـة

كانت تجمع بين الامبراطوريات القديمة قاسم مشترك رغم تنوع الاجناس واختلاف الازمنة . فما ان تنجز الفتوحات ، حتى تبرز في هذه الامبراطوريات الصفات التي تميزت بها واصبحت تعرف بـ « الاستبداديات الشرقية » . فالعاهل واسرته مؤلهون او منحدرون من الالهة . بل ان فرعون مصر لم يكن مؤلها فحسب بل هو الاله نفسه . وفي فارس كانت الالهة نفسها هي التي اختارت خليفة سيروس . وبعد خلع خليفته عن العرش رضخ المرشحون للعرش ، لارادة الالهة ، التي رغبت ان يتم اختيار الامبراطور بواسطة جياد المرشحين . فالمرشح الذي يصهل حصانه قبل بقية الاحصنة ، سيكون هو الامبراطور الذي تختاره الالهة . وهكذا كان « داريوس » هو الذي نال حظوة الالهة الفارسية ولم يكتف باعتلاء العرش بل نال ايضا صفة الالوهية .

وتدلنا هذه الحادثة الواقعية على المكانة المقدسة التي اعطيت للحصان في الحضارة الفارسية .

والبازيلوس [1] أو ملك الملوك الذي ينتخب بالطريقة المذكورة ، أو بأية طريقة أخرى ، مهما اختلف الزمان والمكان ، ليس الها كما هي الحال عند الفراعنة ، ولكنه عاهل يتمتع بحق الهي مقدس ، الامر الذي يسمح

(١) بازيلوس : كلمة يونانية تعني الملك .

له بأن يحكم رعيته باستبدادية مطلقة وشاملة . والملك يحيط نفسه عادة ببلاط (أو حاشية) فاخر ، ونظام تشريفات شديد ينظم مراسم الاحتفالات بأدق تفاصيلها . ولم يكن الملك يظهر امام الجماهير الا نادرا ، وفي الحالات التي يضطر فيها لمغادرة القصر ، لا يحق للعامة الساجدون بأن يتأملوا محياه الكريم . وقد استمرت هذه التقاليد في اليابان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

ويقيم الملوك عادة في قصور تشاد غالبا في قلب المدينة . ويشتمل « حريمه » على عدد لا يحصى من الزوجات والمحظيات اللواتي يتم اختيارهن من بين أجمل نساء مقاطعات الامبراطورية ، او من الاسر المالكة التي يتم اخضاعها اثناء الغزوات على الممالك المجاورة .

و « الحريم » هي البؤرة التي تنبت فيها الفتن والمؤامرات ، وهي الساحة التي تتطاحن فيها الزوجات والمحظيات على النفوذ والسلطة ، ويحاولن بهذه الوسائل الرهيبة تنصيب ابناءهن كخلفاء للملك الذي هو زوجهن وسيدهن في وقت واحد .

ويذكر لنا التاريخ النزاعات التي نشبت بين زوجات الملك داوود حول وراثة العرش ، التي آلت اخيرا لسليمان ، ابن المدعوة بيث سابيه . كما يذكر لنا ايضا الخصومات بين زوجات الرسول (محمد ﷺ) بعد وفاته . وفي الامبراطوريات والممالك الشرقية ، توصل الخصيان (عبيد البلاط) ايضا الى درجة التدخل في شؤون الحكم ، ومارسوا في بعض الأحيان نفوذا كبيرا في ادارة البلاد .

والى جانب هذا البلاط (أو الحاشية) الذي تضرب فيه الفوضى اطنابها وتحاك المؤامرات بالرغم من المراسيم الصارمة ، كان الملوك دائما ينظمون ادارات مركزية فعالة . فالامبراطورية الفارسية مثلا كانت مقسمة الى اقاليم ، يحكم كل اقليم منها مرزبان ، وهذا المرزبان يمارس حياة ملؤها البذخ والرفاهية . وتتصل الاقاليم فيما بينها من جهة وبالعاصمة المركزية من جهة اخرى بطرق ملكية معتنى بها . وتقام عادة على هذه الطرق الاستراحات والمخافر ، حيث يجد الرسل الرسميون ، الخيول الجاهزة ، التي تسمح لهم بقطع المسافات الطويلة بأوقات قصيرة نسبيا ، وعلى سبيل المثال : كانت مدينة سارد [1] (الواقعة الى الشمال من الساحل السوري) تبعد حوالي (١٥٠٠) كم عن العاصمة الفارسية سوز بالقرب من الخليج العربي ــ الفارسي . كانت هذه المدينة تتلقى الاوامر الصادرة عن الملك خلال مدة لا تزيد عن اسبوع واحد .

الاستبدادية الشرقية وتعميم الحرب

كانت الامبراطوريات الاستبدادية تختار للحروب معظم مقاتليها من المرتزقة الذين ليس لهم صلات وثيقة بالمواطنين .

وفي عهد تحوتمس الثالث والفراعنة الاحدى عشر الذين اطلق عليهم

(١) سارد : مدينة في اسيا الصغرى تقع على ساحل بحر ايجة ، وكانت عاصمة للمملكة ليديا ، وهي مشهورة بثرواتها .

اسم رمسيس ، انطبع الجيش المصري بحرب التحرير الوطني ضد الهكسوس ، ومع ذلك لم يكن الفضل في حروب هذا الجيش يعود للمجندين من المقاطعات ، لان الجيش كان مؤلفا في غالبيته العظمى من وحدات الحرس الملكي والمرتزقة الذين تم تطويعهم من مصادر اجنبية .

وقد كتب المؤرخ ستيغمان ، في هذا الصدد مايلي :

« انضم الى المرتزقة المحترفين الذين تم تطويعهم من ليبيا وبلاد النوبة ، مرتزقة مسلحون من سارد ولصوص وقراصنة ، كانوا يزرعون الفوضى على سواحل البحر المتوسط ، وكان لهؤلاء شهرة معروفة كعناصر من المشاة الثقيلة . ومع هذا النوع من المقاتلين ظهر في تاريخ الحرب ما يسمى بـ « العساكر المرتزقة » ، وكان بدو شبه جزيرة سيناء وسكان وادي الاردن يقدمون كالعادة رماة القوس والمقلاع ... » . ومن هؤلاء الاجانب كانت تتشكل معظم وحدات الجيش المصري .

وبهذه الطريقة نفسها كانت تتشكل وحدات « النخبة الممتازة » في سلاح الفرسان وسلاح المشاة ، والفرق المشهورة في الجيش الفارسي . وكانت الفرقة في هذا الجيش تتألف من عشرة الاف مقاتل معظمهم من المواطنين الفرس ، ولكن الكتلة الكبرى في الجيش الفارسي كانت تتكون من المرتزقة اليونان . ومن الجدير بالذكر ان هؤلاء المرتزقة اليونان ، كانوا يخوضون الحروب الطويلة التي اشتبكت فيها الامبراطورية الفارسية ضد اثينا .

وكان اختلاط السكان يتم احيانا عن طريق الاحتلال العسكري

للمقاطعات الاجنبية . اما الحاميات فتشكل عادة من الوحدات الاجنبية الغريبة عن البلاد ، فهي يهودية وبابلية في مصر ، واناضولية وارمنية وسورية وعربية وحتى هندية احيانا في بابل .

ومن الملاحظ ان الاستبدادية الشرقية في عصر الممالك العسكرية كانت تقوم على الحروب المستمرة : فالملوك والطبقة الارستقراطية يحرضون على الحرب أملا في زيادة سلطتهم وثرواتهم ، ولكنها تنتهي دائما الى التبذير بالارواح البشرية والثروات المادية ، وتؤدي الى تهجير السكان الذين يتحولون عادة الى عبيد . وهذا هو المصير الذي لقيه اليهود في بابل .

وكان التهجير النموذجي لسكان البلاد المغلوبة ، يتلاءم مع سياسة الامبراطورية الاشورية المتماسكة .

ومنذ عهد قريب كان لدى الامبراطورية العثمانية مرتزقة من نوع خاص جدا ، اطلق عليهم اسم العساكر الانكشارية فبعد ان استقر الاتراك في اوروبا البلقانية ، فرضوا على المقاطعات المسيحية المحتلة ضريبة عينية من الاطفال ، يخصصون لخدمة السلطان . وكان هؤلاء الفتيان ينتزعون من أسرهم عنوة ، ويطوعون في وحدات المليشيا حيث يتلقون التدريبات العسكرية والدينية . وكانت تربيتهم تخضع لرقابة شديدة تجعل منهم مسلمين متعصبين يمتازون بالطاعة والولاء الاعمى لقادتهم . وبعد انتهاء فترة التدريب ، يؤخذ هؤلاء الانكشاريين الى فيالق الفرسان ، ويخضعون لانضباط حديدي ، وكانوا يقاتلون بايمان عميق ووحشية معروفة ، من اجل مجد وعظمة السلطان (امير المؤمنين) . وقد وصل

تعداد هذه الوحدات الى ما يزيد عن (١٠٠) الف رجل . وفي القرن الخامس عشر كانت اول تجربة للجيش النظامي الدائم في الامبراطورية العثمانية ، ولكنها أدت الى قيام دولة حقيقية داخل الدولة نالت شهرة واسعة رافقتها حتى زوال الامبراطورية العثمانية في بداية القرن العشرين (الحالي) .

اختلاط الاسر المالكة

عندما تكون الاسرة المالكة من اصل اجنبي ، فانها تعتمد غالبا على قوة عسكرية يتألف عناصرها من القبائل او البلد الذي تنتمي اليه . وقد تجسد هذا الوضع في مصر حوالي القرن العاشر الميلادي عندما تولى الفاطميون زمام السلطة . والواقع انهم استولوا على مصر دون ان يلاقوا مقاومة جدية ، وبدون قتال ، بعد ان شنوا حملة دعاية بارعة شلت ارادة المواطنين .

وفي ظل هذه الاسرة (الفاطمية) اصبحت مصر دولة مستقلة وتحولت القاهرة الى عاصمة زاهرة تستهوي نفوس المعاصرين بثرواتها الطائلة .

ومن الصعب جدا تكوين فكرة اجمالية واضحة عن الجيش الفاطمي ، ذلك الجيش الذي كان تشكيله يختلف باختلاف اهواء الخلفاء ووزرائهم . ومع ذلك فقد كان جميع هؤلاء الخلفاء يتقيدون ببعض

القواعد الاساسية ، المعروفة انذاك ، واهم هذه القواعد الا يكون للخليفة جيش مؤلف من عناصر منسجمة تنتمي لاصل واحد ، لانهم في هذه الحالة لا يضمن ولاؤهم للخليفة ، ولا يكون عندهم الوازع اللازم للخدمة الحسنة . والى جانب هذا التنوع الواسع في الجيش كان الخليفة الفاطمي يعتمد اعتمادا قويا على القبائل التي ينتمي اليها شخصيا .

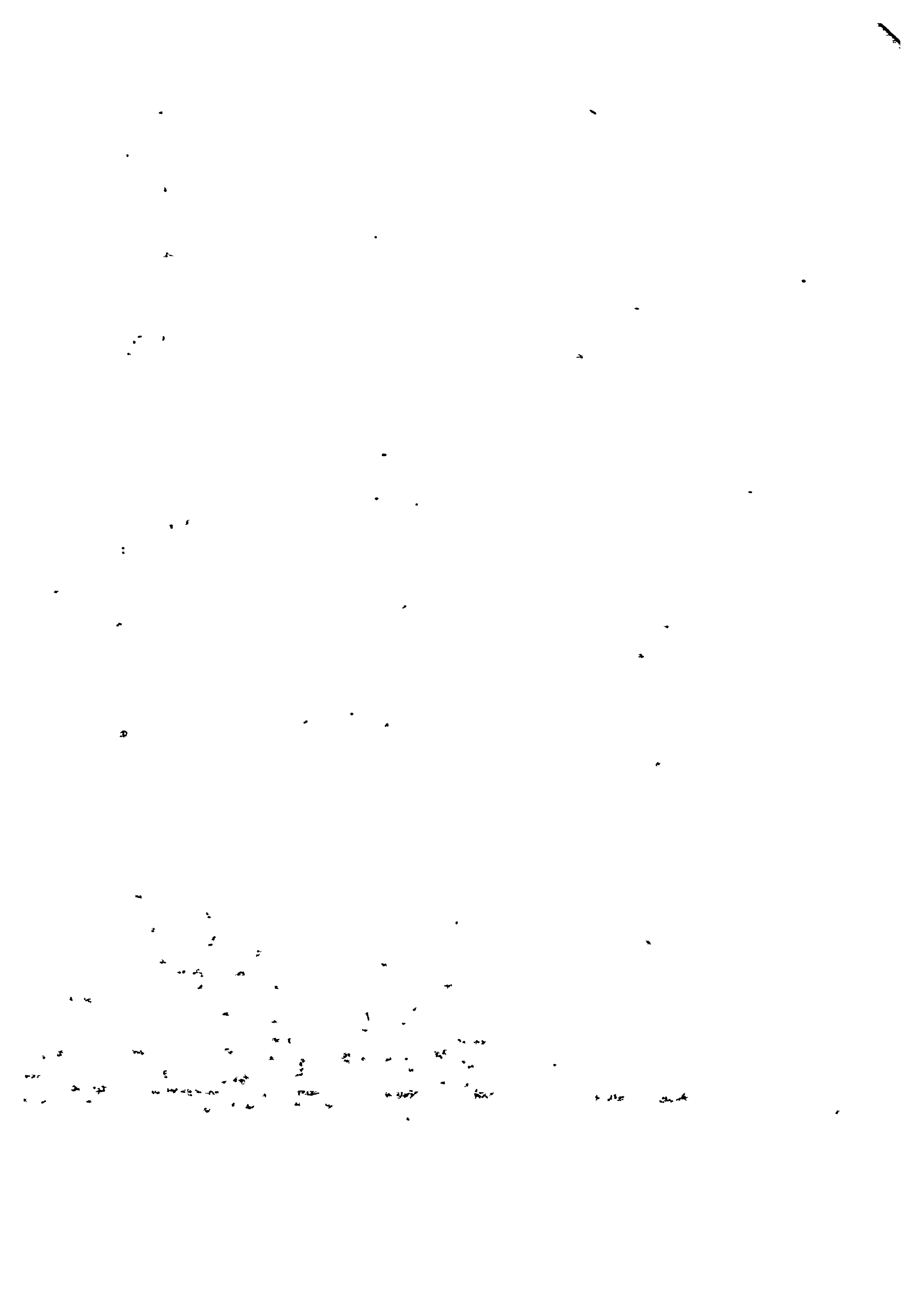
ونحن نشهد مثل هذا الاسلوب في ايامنا الحالية في احدى الدول الاسلامية الحديثة (هي المملكة الاردنية الهاشمية) . فالملك حسين استطاع دائما مقاومة الضغوط الداخلية والخارجية بفضل الولاء غير المشروط لمواطنيه من ابناء القبائل البدوية المخلصة لاسرته الهاشمية منذ عدة اجيال .

لهذا يمكن القول بأن بعض القواعد التي وضعت منذ اقدم العصور لاتزال قائمة وسارية في هذه الايام .

وتؤكد المعلومات الموثوقة ان الصين شهدت في القرن الثاني عشر نفس هذه الظاهرة ، عندما استولى احد القادة من اصل منشوري على السلطة ، مستفيدا من النزاعات الداخلية التي مزقت الامبراطورية . وترجع اسباب هذا الحدث التاريخي الى ضعف واخطاء الصينيين ، اكثر مما ترجع الى تفوق خصمهم المنشوري . ويمكن تشبيه استيلاء المنشوريين على الصين بالانتصارات التي حققها المغول ، فقد هيمن هؤلاء على الصين عن طريق الاحتلال العسكري حيث تم تقسيم البلاد بكاملها الى مربعات ، يخضع كل مربع منها الى حامية مستقلة . واعتمد المنشوريون

على اسلوب في الحكم خاص بهم . فكان ضباطهم يتعاونون مع السلطات الصينية المحلية التي احتفظوا بها واستمرت بممارسة الادارة تحت اشرافهم .

وقد سمحت هذه السيطرة غير المباشرة للجيش المنشوري على الجهاز الاداري الامبراطوري القديم ، سمحت للاسرة الحاكمة المنشورية بأن تنغرس بقوة ولمدة ثلاثة قرون تقريبا في الصين ، رغم كونها غريبة عنها .



الفصل التاسع

الحروب المقدسة وعقليات الشعوب

تعتبر الحروب المقدسة ، الدينية والايديولوجية (العقائدية) الدليل المدهش ، على تفاعلات العقليات والروح الحضارية والصدمات الدموية التي كانت تتجابه فيها المدن الجشعة .

وفي جميع الحضارات التي تسيطر فيها العقلية الكهنوتية ، كانت الحروب من نواح عديدة حروبا مقدسة .

والواقع ان الصدامات الأولى التي حدثت بين بني البشر الاوائل ترجع لاسباب ذات طبيعة مادية : للسيطرة على الممرات الى مناطق الصيد او الاراضي الزراعية الخصبة ، او الثروات المتراكمة في المدن ، وفي بعض الاحيان الحصول على الزوجات او العبيد . ومن الامثلة على هذه الحروب تلك التي نشبت بسبب حادث اختطاف السابيين [١] من قبل الرومان ، وحرب طروادة التي نشبت بسبب اختطاف هيلينا ، ولكنها مع ذلك كانت تبطن اسبابا اقتصادية عميقة .

---

(١) السابين : هم سكان مقاطعة سابين في ايطاليا القديمة الوسطى الذين اختطفهم الرومان ليحولوهم الى عبيد وهو حادث تاريخي مشهور .

الحـرب والآلهـة

منذ أن أصبح الانسان « حيوانا متدينا » أخذت الحرب أحيانا طبيعة خاصة : فهي تعلن باسم الدين وتدار بحماس صادق ، ويقاتل الانسان في هذا النوع من الحروب متطوعا لخدمة الٰهه ، او من اجل آلهة مدينته ، وهو يؤمن في كل هذه الحالات انه ينال بمساهمته الفعلية في الحروب الدينية ، الضمانات اللازمة لحياته في العالم الآخر .

فالمساهمة بالحرب على هذا الاساس انما هو واجب اخلاقي فرضته الآلهة على البشر ، او بالاحرى واجب فرضه البشر على انفسهم باسم الآلهة . ولهذا فالاٰله لا بد الا ان يكون مؤيدا للحرب التي تشن باسمه ، ولا بد الا ان تكون القضية المدافع عنها قضية عادلة .

وقد كتب بيغي في الازمنة الحديثة بهذا المعنى يمجد الاستشهاد من اجل الوطن فقال :

« طوبى لاولئك الذين يموتون في حرب عادلة وهم يدافعون عن الوطن الام » .

فما هي الحرب التي يمكن ان تكون اكثر عدلا من تلك التي تشن باسم الدين ؟

وهل في المجتمعات التي يحتل فيها الدين مكانة عظيمة ، محرك أقوى

من ذلك الذي كان يدفع البشر للاقتتال من اجل مثلهم الاعلى ومعتقداتهم وآلهتهم ؟ .

ففي النزاعات التي كانت تنشب بين قبيلتين او مدينتين ، كان الناس يعتقدون ان آلهتهم تشتبك في القتال الى جانبهم .

حروب العبرانيين والشرق القديم

قامت جميع الحروب العبرانية على أساس ايمانهم بالله واحد ، هو الاله « يهوه » . وبعد خروجهم من مصر عقد رائدهم « موسى » تحالفا مع «يهوه» يتعهد بموجبه الإله ... **اهداء أرض الميعاد للشعب المختار .**

والواقع ان موسى كان « رجل دولة » حليم ومتنور نجح في حكم شعبه دون الحاجة لاراقة الدماء . اما « القائد يوشع » الذي جاء بعده ، فكان محاربا شرسا ، استولى على « ارض الميعاد » بالقوة . وقام بعد ذلك « جدعون » بالانقضاض على مدينتين في يهوذا [1] وقتل سكانهما بحد السيف .

وحوالي عام ١٢٠٠ ق . م ، شكلت قبائل اسرائيل الاثني عشر فيما بينها اتحادا يقضي بالاندماج الديني لهذه القبائل الرحل من اجل

---

(١) يهوذا : هي جزء من الضفة الغربية في فلسطين .

الدفاع عن مذبحهم . وقد استند هذا « الوفاق » على الفكرة القائلة بأن جميع القبائل المعنية تنحدر من « جد مشترك » هو « ابراهيم » ، وان لهم اله واحد هو « يهوه » ، وهو ايضا اله آبائهم . كما نص الاتفاق على أن يقف الى جانب زعمائهم ، جماعة من « الحكماء » مهمتهم حماية الديانة والحق المقدس . وبالرغم من « الاندماج » المذكور وجدت القبائل نفسها في وسط عدواني ، وبين شعوب لا تعبد الاله « يهوه » ، وكان من بين هذه الشعوب : الشعب الفلسطيني الذي يقطن على الشواطىء الفلسطينية ، ويشكل رابطة من المدن المستقلة ذاتيا ، بموجب نظام يشبه اتحاد المدن الاغريقية .

ولما كان الفلسطينيون تجارا اذكياء ، فقد مارسوا ضغطا شديدا على جيرانهم الاسرائيليين . ولكي يجابه هؤلاء الضغط الفلسطيني اضطروا لانتخاب قائد من بينهم : هو شاؤول الذي كان اول من حاز على لقب ملك بين افراد الشعب اليهودي .

وقد لاقى شاؤول المتاعب الجمة في محاولاته لاحتواء الشعب الفلسطيني ، الى ان وجد نفسه في النهاية مضطرا للتخلي عن السلطة لداوود ، الذي نجح — بعون من يهوه — في اخضاع القبائل الملحدة من الامونيين والموابيين والايدوميين وان يؤسس مملكة قوية [1] .

ادرك الاسرائيليون اهمية الرابطة السياسية الصلبة بين القبائل بسبب

---

(١) مملكة داوود .

التهديد الفلسطيني ، وكان الايمان بالله واحد هو الملاذ الفعال للاتحاد ، بين القبائل بالاضافة للخطر الفلسطيني . لذا كانت جميع حروب اسرائيل في جوهرها « حروبا دينية » وكان الايمان بيهوه يدعم هذا الشعب في مصائبه وسوء حظه . وكان الشعب الاسرائيلي بأجمعه يساهم في هذه الحروب الدينية وهو يؤمن ايمانا عميقا بعدالة قضيته وبالدعم الالهي حتى النصر النهائي .

أما في الحضارات ذات الاصول الشرقية ، كالحضارة الفينيقية والحضارة القرطاجية بشكل خاص ، فكانت « الخصوصية الدينية »[١] توجب ابعاد الإقوام الاجنبية عن المعابد . وتمتاز آلهة المدينة في هاتين الحضارتين بأنها آلهة « غيورة ومانعة » فهي لا تمنح رعايتها الا للبشر الذين ينتمون الى عرقها ، والذين تربطهم روابط الدم والدين ، ويرفضون رعاية الاجانب .

وكان الفينيقيون يعبدون الاله مولوخ ـــ وهذا يعني الملك ـــ[٢] ، وهو اله مرعب يفرض ان تقدم له الاضاحي من الاطفال الصغار الذين يلقى بهم احياء في النيران الملتهبة .

وفي قرطاجة قدم السكان للآلهة اثناء حصار الرومان لمدينتهم عام ١٤٦ ق . م مائتا طفل من اعرق الاسر ، كضحايا لآلهتهم لكي

---

(١) الخصوصية الدينية : هنا تعني نوعا من حصر الديانة على شعب او طائفة ما دون غيرها .

(٢) نلاحظ هنا التقارب في لفظة مولوخ ولفظة ملك العربية .

تساعدهم على دحر اعدائهم . (ولكن آلهتهم لم تكن جشعة فحسب بل كانت عاجزة ايضا فلم تنجهم من بطش الرومان) .

وقد عثر في مكان المذبح الذي جرى فيه احراق جثث الاطفال على العظام المتكلسة التي تدل على هذه المجزرة الوحشية التي اعتبرها الفينيقيون ضرورية لإرضاء آلهتهم .

وفي حضارات « القارة الأمريكية » التي سبقت عصر كولومبس ، فنجد عند شعب الازتيك (في المكسيك) إسلوبا من التضحيات اشد قسوة واكثر دموية ، ولكنهم يختلفون عن الفينيقيين بشيء هام ، وهو انهم يختارون « اضاحيهم » من الاسرى الاجانب .

ان هذه الصفات الدينية ، كانت بارزة عند معظم شعوب العصور القديمة .

فعبادة الآلهة راسخة بعمق عند الاشوريين في عهد حمورابي ، ولهذا كانت قصائد الشعر الطويلة ، وملحمة خلق العالم وملحمة جلجاميش ، والاناشيد الكثيرة والصلوات ، كلها مطبوعة بهذا الطابع الديني .

وفي بابل ، كان الاله الاكبر « مردوخ » الها زراعيا الاله « زوس » عند الاغريق .. وتقول الاساطير ان « مردوخ » دمر العمالقة الشياطين الذين خرجوا من الفوضى ، ورافق الملوك في فتوحاتهم . أما الكهنة الذين يمثلونه على الارض فيحتلون مراكز هامة في جميع مجالس الدولة ، والمناقشات التي تجري على اعلى مستويات السلطة .

وفي مصر كان فرعون اقرب الناس الى الاله ، بل هو نفسه منحدر من سلالة الآلهة ، واله حي (على صورة البشر) هبط الى الارض ، والآلهة متحدة معه ، ومتقمصة فيه .

وهكذا نرى ان الاله ممثل هنا اي عند المصريين جسديا ، بينما نجده عن اليهود (العبرانيين) رمزا غير مرئي ولا ملموس ، ويستخدم « تابوت العهد القديم » كمظلة لليهود . وعلى الرغم من ان هذا الاله لا يرى على شكل انسان او أي شيء آخر ، فانه يظل دائما « اله الجيوش » الاسرائيلية يقف في وسط المحاربين ويدير عملياتهم ويقدم لهم النصائح والارشادات اثناء الالتحام بالمعارك [1] .

وقد كان الامر على هذا المنوال عند الاغريق وروما القديمة . ويقول فوستيل دو كولانج في كتابه « المدينة القديمة » .

« كان دور الدين في الحرب اعظم قوة من دوره في ايام السلم . ففي العصر الروماني ، كان في المدن الايطالية « مجالس للكهنة » تنظم وتترأس جميع الاحتفالات المقدسة ، وتسبغ عليها طابع العلاقات الدولية .

أما في المدن الاغريقية فيقوم الابطال بهذا الدور .

---

(١) يتضح هنا مدى عنصرية وعدوانية « اله اسرائيل » وشغفه بالحرب وسفك الدماء كما يمكن بعد ذلك فهم عقلية المتعصبين اليهود وغطرستهم واستشهادهم الدائم بالنصوص الدينية القديمة ، واطلاق اسماء معارك بني اسرائيل على عملياتهم في الايام الحاضرة ضد العرب . ويكاد لا يخلو مقال أو خطاب لاحد قادة اسرائيل السياسيين والعسكريين من العبارات التي تذكره بهذا الاله وبأبناء اسرائيل وحكمائهم وكلها تتسم باللهجة العدوانية .

ومن اهم الوظائف التي يقوم بها مجلس الكهنة هي : اعلان الحرب الذي يتم بصيغة لاهوتية يشهد فيها الاله على هذا القرار .

وعندما تنشب الحرب بين الشعوب التي تدين بديانة مشتركة ، يحاول كل طرف التقرب من الآلهة العليا قبل الدخول في الحرب لترضى عنه وتكون الى جانبه .

وفي مطلع القرن الحالي ، كانت امتعة الجنود والتجهيزات العسكرية الالمانية ، تحمل العبارة التالية ومعناها « الاله معنا » وفي فرنسا كانت التجهيزات العسكرية تحمل عبارة معناها : « جندي الرب والحرية » .

وكانت لهذه الشعارات الدينية تأثيرا عميقا على النفوس في جميع عصور التاريخ ، لانها توحي بالتفاؤل .

وفي الحروب المقدسة ، لم يكن الملوك والقادة العسكريين دائما اصحاب السلطة العليا على الجيوش ، لانها كانت تدار من قبل الرواد الروحيين (الكهنة) الذين يتمتعون بسلطات عظيمة .

ومنذ فجر الزمان كان الكاهن يحتل مركزا مرموقا في السلم وفي الحرب ، أما في العصور فكان يتمتع بنفوذ وسمعة تغطي على نفوذ وسمعة القائد الحربي . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال ، انه في اغلب الاحيان ، وفي عدد كبير من الحضارات في آسيا الصغرى وامريكا قبل كريستوف كولومبس ، كان القائد الاعلى يجمع بين صفة الكاهن الاكبر

والملك ، وكان يملك السلطتين الدنيوية والروحية ويتمتع على هذا الاساس بنفوذ وسلطة لا حدود لهما .

وفي حروب « شعوب التوراة » فقد استطاع الحكماء والانبياء اثارة حماس الجيوش ، وان ينجحوا اكثر من الملك في توحيد الشعب الاسرائيلي للدفاع عن « يهوه » واعلاء مجده .

اما الشعوب السامية المنحدرة من شبه الجزيرة العربية ، فسوف تسير وراء الرسول العظيم محمد (ﷺ) واصحابه ، الذين قادوهم لنشر الدين الاسلامي وتحقيق الفتوحات الواسعة التي امتدت من قلب اسيا شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ومن جبال القوقاز في الشمال الى الصحراء الكبرى في افريقيا والمحيط الهندي في الجنوب .

القبائل العربية والاسلام

تتشابه الغزوات الاسلامية ، والهجرات العبرية ، فقبائل الجزيرة العربية تنتمي لنفس « العرق » الذي تنحدر منه القبائل العبرية . فقد عاشت في نفس المناطق القاحلة التي اضطرتهم للترحال الموسمي ، كما دفع الجوع هذه القبائل للبحث عن اراض خصبة يقيمون فيها . ومما لا شك فيه ان الاستيلاء على الاراضي هو من احد الاسباب الهامة للحروب التي خاضها العرب الاوائل . فقد كانت هذه القبائل المتمردة بحاجة الى

« منفذ » لم يتوفر لها بحدود ضيقة جدا فوق الاراضي التي اعتادت التنقل فوقها .

ويعتبر الغزو الاخير للاقوام السامية مكملا للغزوات القديمة التي سبقته ، والتي كان الدافع الرئيسي لها الحاجة والتعطش للغنائم [1] .

وبعد ظهور الاسلام ، أخذت اندفاعات القبائل العربية طبيعة جديدة ، فتحولت الى « حروب دينية » غايتها ادخال سكان البلاد المحتلة في الدين الاسلامي .

وتجدر الاشارة هنا ، الى ان القرآن (الكريم) يحتوي على صيغة مفصلة لتنظيم عملية توزيع الغنائم ، مما يدل على وجود هدف مادي للحروب الاسلامية على الرغم من طابعها الديني . وهكذا فان الفاتحين العرب لم يكتفوا بسعادة « الآخرة » فحسب بل كانوا يتوخون في حروبهم المقدسة الحصول على سعادة « الدنيا والآخرة » .

والحقيقة ان المقاتلين العرب ، كان على رأسهم قادة ملهمون استطاعوا دائما السيطرة على عقول وقلوب جنودهم ، فقد اغروهم بجنات

---

(١) يبرز هنا التحامل الواضح للسادة المؤلفين الذين يفترض بهم الموضوعية والحياد ، خاصة وهم يحاولون وضع الاسس الثابتة لاحد العلوم الانسانية . وليس من الصعب على القارىء المثقف اكتشاف هذا « التحيز » الذي يتناقض مع القواعد العلمية ، فالعرب مثلا ، هم من الساميين ، بل لعلهم الورثة الوحيدين للعرق السامي ، لم يتوخوا الغنائم في فتوحاتهم ، والا لما استطاعت حضارتهم وثقافتهم ان تصمد وتزدهر في القارات الثلاث حتى يومنا هذا (المعرب) .

البلدان المفتوحة ووعدوهم بجنات الخلد اذا نالوا الشهادة ، وارهبوهم بنار جهنم اذا تخاذلوا .

« العدو امامكم والبحر من ورائكم » ، والواقع ان هذه الموعظة (او الشعار) برهنت بالفعل عن فعالية مدهشة ، خاصة اذا تذكرنا التوسع الهائل الذي حققه المحاربون العرب ، فشمل البحر المتوسط حتى اسبانيا وجنوب فرنسا وبلغ فارس والهند شرقا خلال مدة لم تتجاوز عشرات السنين . ولعل احد الاسباب الرئيسية لهذا النجاح العظيم ، يعود اساسا لنوعية « الفرسان العرب » الذين تميزوا بالمرونة والبراعة بالمناورة ، فتفوقوا بذلك على خصومهم الذين اثقلتهم معداتهم بالاضافة الى افتقارهم للايمان بقضيتهم .

وبالرغم من فشل الفرسان العرب امام الفرنجة بقيادة شارل مارتل (في موقعة بواتييه) فانهم سيظلون مع الخيالة (الهون) و (المغول) من اروع التشكيلات الحربية واقدرها على العمليات الحربية السريعة .

وستأتي فيما بعد الجيوش التركية لتكمل التوسع العربي الاسلامي في الجهات الاصلية الاربعة مركزة جهدها الرئيسي ضد الامبراطورية البيزنطية واوروبا البلقانية والوسطى .

الجهاد المقدس والحروب الصليبية

بدأ رد فعل الغرب المسيحي ضد التوسع الاسلامي ، منذ القرن الثامن الميلادي .

فبعد معركة « بوأتييه » التي اوقفت الهجمة الجنوبية كما اوقفت معركة « السهول الكاتالونية » الهجمة الشرقية ، التي شنتها قبائل « الهون » بقيادة عطيل [1] قبل ذلك بثلاثة قرون .

كانت المحاولة الاولى لرد العرب بقيادة شارلمان في اسبانيا ، في نفس الوقت الذي كان يشن فيه حربا مقدسة اخرى ضد قبائل الساكسون (وهم قبائل ملحدة تقطن فيما وراء نهر الراين) .

ويرجع الفضل في هذه « الحروب الصليبية المزدوجة » الى الامبراطور شارلمان الذي اعطى لعرشه طابعا مقدسا ونال بذلك لقب « المدافع عن المسيحية » من قبل الكرسي البابوي .

لقد دعت الكنيسة المؤمنين من كل الطبقات ومن جميع الدول للتعاون من اجل الدفاع عن العقيدة المسيحية ونشرها واستعادة الاشراف على الاماكن المقدسة من المسلمين [2] .

وفي هذه الحرب المقدسة ، كانت اسبانيا اول الممالك المسيحية

---

(١) السهول الكاتالونية : هي السهول الواقعة بين مدينة شالون سور مارن (شمال شرقي باريس) ومدينة تروا (جنوب شرق باريس) . حيث جرت فيها المعركة التاريخية التي هزم فيها عطيل ملك الهون ، عام ٤٥١ م ، من قبل اكتيوس (احد القادة الرومان) وميروفيه (احد ملوك الفرنجة) وتيودوريك (ملك الاستروغوت) مجتمعين .

(٢) بدأ اشراف المسلمين على الاماكن المقدسة في مدينة القدس بعد احتلال العرب لفلسطين بقيادة عمرو بن العاص عام ٦٣٧ م وقد سلمت مفاتيح القدس للخليفة عمر بن الخطاب (المعرب) .

التي تزعمت الصراع (ضد العرب المسلمين) خلال ثمانية قرون ، الى ان حصلت على النصر النهائي الحاسم بعد احتلال غرناطة عام ١٤٩٢ م .

تحولت اسبانيا الى مسرح للحروب المقدسة التي تهدف لاستعادة شبه جزيرة ايبريا للمسيحية .

ومنذ بداية هذه الحروب كانت غزوات القبائل البربرية مكملة للغزو العربي . فقد انطلق الموحدون والمرابطون من المغرب يحملون راية الاسلام (الى جانب الجيش العربي) واجتازوا مضيق جبل طارق واستولوا على الجزء الاعظم من اسبانيا . وعلى اثر ذلك حكمت شبه الجزيرة الايبرية بعض الاسر المالكة (العربية ، والبربرية) وكانت في اغلب الاحيان لامعة ومتسامحة مع المسيحيين واليهود . وبقيت بعض اجزاء صغيرة من المقاطعات الاسبانية الشمالية تحت حكم امير مسيحي مستقل . ومن هذه المناطق انطلقت « حرب التحرير » .

ومن الجدير بالذكر ان الفتن والمؤامرات الداخلية التي مزقت صفوف الامراء العرب ، هي التي ساعدت على نجاح هذه الحرب .

ففي عام ١٢١٢ م انهارت مملكة الموحدين وعاد القسم الاعظم من اسبانيا ليصبح ارضا مسيحية عام ١٢٣٦ م ، ولم يبق سوى مملكة غرناطة التي استطاعت الصمود حتى عام ١٤٩٢ م ، حيث تمكن اتحاد الممالك المسيحية في قشتالة واراغون بزعامة فرديناند وايزابيل من طرد العرب المسلمين نهائيا من اوروبا الغربية .

وفي هذه الفترة « اي بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر) حاولت اوروبا الغربية استعادة الاماكن المقدسة ، وحماية المسيحيين [1] في اسبيا الصغرى التي تخضع بكاملها للمسلمين .

ان الحرب المقدسة تنبثق عادة من حركة دينية وشعبية ، وهي على النقيض من الحروب التي تقوم بها الجيوش المرتزقة في خدمة من يدفع لها ، دون ان تهتم بمبررات النزاع ، او الحروب التي يقودها الاقطاعيون لاسباب مادية واقليمية او للحصول على القوة ، فالحرب المقدسة تتطلب التزام الشعب قلبا وقالبا وموافقته المطلقة وقناعته العميقة بأن هذه الحزب ستعود عليه بمكافأة عظيمة ، ألا وهي :

« غفران الخطايا واعلاء كلمة الرب » .

ولا يمكن الحصول على هذه المشاركة الشعبية إلا ببذل جهود دعائية نموذجية ، تهدف لاثارة حماس الرأي العام وتأمين المتطوعين اللازمين للحرب .

ففي عام ١٠٧١ م حقق الاتراك السلجوقيين نصرا عظيما على المسيحيين الشرقيين في بيزنطة واستولوا على الاناضول والاماكن المقدسة . وعندما علم البابا غريغوار السابع [2] بهذه الكارثة ، قرر مساعدة

---

(١) أما حماية المسيحيين فلم تكن بالفعل من الاهداف الحقيقية للحروب الصليبية ، وهذا ما يؤكده معظم المؤرخون الثقات ، ويدل على ذلك سلوك الحملات الصليبية حيال المسيحية في البلقان والامبراطورية البيزنطية ، وفي انطاكية ، بل وفي القدس نفسها حيث كانت القوات الاوروبية تضطهد المسيحيين الشرقيين (المعرب) .

(٢) البابا غريغوار السابع : ولد في مقاطعة توسكانيا بايطاليا عام ١٠٢٠ م وتوفي عام ١٠٨٥ م وانتخب رئيسا للكنيسة (بابا) عام ١٠٧٣ م .

المسيحيين الشرقيين باعتباره ممثلا للكرسي البابوي . وفي عام ١٠٧٤ م أعلن « الحرب المقدسة » التي تخفي وراءها اسبابا مادية اخرى . ولكنها وضعت تحت « شعار الحرب المقدسة » بهدف اثارة حماس الجماهير التي لا بد منها لخوض هذه الحرب بقيادة السادة من النبلاء الاقطاعيين . وكان لا بد من اعداد طويل وضروري لكي تستجيب النفوس لدعوة خليفة غريغوار ، البابا اوريان الثاني [١] . ففي عام ١٠٩٥ م اثناء انعقاد « المجمع المسكوني » في مدينة كليرمونت ، اصيدر البابا اوريان الثاني نداءه المشهور الذي قال فيه : « **ان الرب يريد ذلك** » .. وبالفعل استطاع الهيمنة على عقول ومشاعر الجماهير التي استمعت اليه ، وكان يساعده في هذه « الدعوة » الراهب بيير ليرميت الداعية المهووس ، الذي يرتدي الالبسة ويجوب شمالي فرنسا على ظهر حمار داعيا للتطوع في صفوف القوات الصليبية ، متكلما عن الامل والخلاص من الخطايا ...

وقد نجح هذا الداعية الموهوب في جلب جماهير غفيرة بائسة للمساهمة في مغامرة يائسة . وبلغت الحماسة الشعبية ذروتها ، غير ان النتيجة لم تكن سوى تكتيل حشود فوضوية غير مسلحة ، انطلقت نحو الشرق لتلاقي مصيرا مأساويا . واكدت الوقائع فيما بعد ان « الايمان » لا يكفي وحده للتعويض عن النقص بالعتاد والسلاح .

وبعد ذلك استنجد البابا بأعظم مبشر عرف في ذلك العصر وهو

---

(١) البابا اوريان الثاني : ولد في مدينة شاتيون سورمارن في فرنسا عام ١٠٤٢ م وتوفي عام ١٠٩٩ م . واصبح بابا في عام ١٠٨٨ م .

المدعو برنارد كليرفو الذي يتمتع بشهرة عالية في العالم المسيحي بسبب بلاغته التي لا تقاوم . وفي عام ١١٤٦ م استطاع هذا الداعية ، اقناع الذين استمعوا اليه في فناء كاتيدرائية فيزيلي [١] وأثار حماسهم وخلق في نفوسهم تلك العواطف الاولية التي ولدت في قلوب الرجال التصميم على الموت في سبيل الدفاع عن « فكرة » . وقد بلغ حماس القديس برنارد اثناء مخاطبته للجماهير الثائرة ، الى درجة اخذ بعدها يمزق ثيابه ويوزع منها « الخرق » على الجماهير . ومنذ تلك اللحظة اصبحت هذه « الخرق » شعارا مقدسا للحروب الصليبية .

وفي عام ١٢٠٢ م قام جيش من المبشرين بناء على دعوة من ابابا انوسنت الثالث [٢] باثارة حماس الجماهير المسيحية في اوروبا كلها للتطوع من اجل القيام بخدمة دينية ، ولكن الشعور السائد انذاك هو جشع الجماهير الشعبية ، وروح الاحتلال التي تطغى على النبلاء .

وفي بعض الحالات كان المبشرون يوزعون انواعا متعددة من المناشير لاكمال الدعوة الشفهية . وكانت معظم هذه النشرات تندد بسلوك المسلمين ، كما لم تهمل الدعوة فن الحفر والرسم ، فكان بعض المبشرين يطوفون في القرى وهم يرفعون رسوما تمثل رجلا تركيا رهيبا يدوس بقدمه الصليب .

---

(١) تقع هذه الكنيسة في وسط فرنسا بالقرب من مدينة اوكسير .

(٢) البابا انوسنت الثالث : ولد عام ١١٦٠ وتوفي عام ١٢١٦ واصبح بابا في الفترة بين (١١٩٨ — ١٢١٦) .

ولما كان من الضروري ، في الحرب التي تعلن قداستها صدقا او كذبا ، ترويض ارواح المؤمنين ، فلا بد من ان يتم التطويع في جو من الحماس البالغ ، ضد الاعداء الذين لا يدينون بنفس الدين وهم عادة : الكفرة والهراطقة ... واتباع الشيطان .

وهناك بعض الامثلة الحديثة التي تبين لنا ان الحملة النفسية التي استخدمت طوال قرون عديدة ، لاتزال فعالة حتى في حضاراتنا الحديثة .

لقد نتج عن الحروب الصليبية خلق مناصب جديدة عالية دينية وعسكرية . فمنذ عام ١١١٣ م أحدث منصب أو نظام « فرسان القديس يوحنا » . ولم ينل هذا التنظيم شهرته الواسعة تحت هذا العنوان ، ولكنه اشتهر فيما بعد عندما اصبح معروفا باسم « منظمة فرسان مالطة » الذي لايزال قائما حتى هذه الايام ، ويتابع عملا رائعا في مجال المعونات الاجتماعية بصفة شبه عسكرية .

وبعد سنوات قليلة ظهر « تنظيم فرسان المعبد » الذي اثار الحسد ضده بسبب الثروات الطائلة التي حصل عليها . وقد ادين من قبل ملك فرنسا ومن الكرسي البابوي واضطهد اعضاؤه ، كما اعدم بعض قادته وصودرت اموالهم اثر التهم الرهيبة التي وجهت اليهم ومنها : الالحاد ، وانتهاك الحرمات ، والثراء غير المشروع .

وفي نهاية القرن الثاني عشر (أي حوالي عام ١١٩٨ م) ظهر « تنظيم فرسان التيوتون » الذي تأسس في مدينة عكا بفلسطين للاعتناء

بالمرضى ، وكان منذ البداية تنظيما عسكريا اكثر منه صحيا . وقد استطاع الحصول على ثروات مذهلة في اوروبا عندما قام بشن حملات فتح عنيفة ضد شعوب الشمال . وفي عام ١٢٠٩ م اطلق على هذا التنظيم اسم « الفرسان حملة السيف » ، واصبحوا بعد ذلك جيشا دائما حقيقيا وفقدوا كل اثر للطبيعة الدينية التي اسبغت عليهم في البداية .

احتلت التنظيمات ذات الاهداف الدينية مكانا بارزا في اوروبا ، حتى في الحالات التي كانت تكرس نفسها للقيام بمهمات لا علاقة لها بالدين اطلاقا .

ومن خلال الحملات الصليبية استمرت اللقاءات والمجابهات بين اوروبا المتوسطية والشرق الذي كان انذاك اكثر رقيا وحضارة ، وادي ذلك الى تطوير الحضارة الغربية .

وفي هذا الوقت بالذات ، كانت هناك حرب صليبية موجهة ضد المسيحيين انفسهم في فرنسا بالذات . اطلق على هذه الحرب « الحرب الصليبية ضد الالبيجوا [1] . وكان هدف هذه الحرب ازالة البدع المانوية ولكنها مع ذلك لم تخل من الاهداف الدنيوية .

---

(١) الالبيجوا : طائفة دينية مسيحية ، نشأت في مدينة آلبي وهي مدينة في جنوبي فرنسا على بعد ٦٧٦ كم من باريس . وقد اعتبرتهم الكنيسة من الهراطقة . وأصبح لهم نفوذ كبير في جنوبي فرنسا وتعاظم عددهم . وكانت عقيدتهم تشبه عقيدة الطائفة المسماة بالفودوا وأطلق على هذه الطائفة أيضا أسم « الكاتار » ، وهي قريبة من المانوية الفارسية انتشرت غربي فرنسا ، كما يطلق عليهم اسم الطهّارة ووصل هؤلاء الخوارج الى حد اخذوا يهددون معه نظام الكنيسة مما دعا البابا انوسفت الثالث لشن حملة صليبية ضدهم . وقد تم القضاء عليهم في مدينة تولوز عام ١٢١٨ م

وهنا ايضا ومن خلال المجابهات والمذابح الاخوية سيولد ارتشاح متبادل (تأثير متبادل) بين بلاد الاويل وبلاد اوكيتانيا .

الخلط بين الامور الدينية والامور الدنيوية

بلغت السلطة البابوية في العصور الوسطى أوج قوتها ونتج عن هذه الظاهرة تدعيم سلطة الاحزاب السياسية التي تساندها . لذلك اصبح من الامور المهمة جدا الحصول على « بركات المقدس الرحمان » التي تشكل ثقلا عظيما في ميزان الصراع على السلطة . وقد حدث في بعض الاحيان ان « اصبحت البابوية قوة دنيوية حقيقية » تتدخل لصالحها الخاص في الحروب والنزاعات التي تنشب بين الدول . وكانت في هذه الفترة تقف الى جانب الطرف الذي يعتبر اقل تهديدا لمصالحها من الطرف الآخر .

وقد حدث في بعض الاحيان ان الطرف الذي يرغب بالحصول على دعم السلطات الدينية ، يلجأ الى استخدام الحيلة بل والمكر والخداع .

فالقَسم الذي أداه هارولد ، كما يقول تاريخ انكلترا ، كان في الواقع اغتصاب من غليوم ملك نورماندي ، لانه كان يخدم مصالحه . وهذا على الاقل ما ذكرته القصة :

« كان هناك سيدان عظيمان يحق لهما المطالبة بعرش انكلترا وهما : هارولد دويسيكس شقيق زوجة الملك ادوارد ، وغليوم ذوق

نورماندي ، ابن عمه . وخلال احدى رحلات غليوم الى انكلترا ، حصل على وعد من ادوارد بتولي العرش بعد وفاته . وبعد ذلك جاءت مناسبة سعيدة زادت من حظه في وراثة العرش : فقد اضطر هارولد لطلب اللجوء الى نورماندي من غليوم ، على اثر حادثة افلاس . واستغل غليوم هذا الوضع ، فطلب من هارولد ان يقسم بالتخلي عن الدعوة بالعرش لصالحه . وما كان من هارولد الا ان اقسم مرغما ومعتقدا بأن قسمه لن يكون ملزما له تمام الالزام . ولكن غليوم كان قد اخفى تحت المائدة التي استخدمت لاداء القسم اشياء ثمينة جدا تلزم من يقسم .

وعندما تراجع هارولد عن قسمه وقبل اعتلاء العرش بعد موت ادوارد ، اتخذ البابا وقادة الكنيسة المسيحية جميعهم موقفا مؤيدا لغليوم ضد هارولد الذي حنث باليمين » .

ومن المعروف انذاك ان القسم بالنسبة للرجال يعتبر بمثابة العقد الملزم لهم .

وفي عام ١٥٨٨ م ، دفع ملك اسبانيا ، الكاثوليكي المتزمت فيليب الثاني اسطوله الحربي الذي لا يُغلب (الارمادا) ، لمحاربة انكلترا ، واعادة سكانها من البروتستانت المرتدين الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية الام . وكانت هذه الحرب في نظر فيليب الثاني ، « حربا صليبية مكرسة لخدمة الكنيسة » . وقد صرح الاسبان انذاك : « اننا نذهب للقتال ضد انكلترا ونحن واثقون من حدوث المعجزة » . وكان الانكليز ايضا واثقين بأن « العناية الالهية » لن تتخلى عنهم .. وبعد هزيمة « الارمادا التي

لا تُغلب » بفضل العاصفة البحرية الهوجاء التي حدثت فجأة ، أدعى الانكليز : « بأن الله سبحانه وتعالى تنفس فشتت سفن الاعداء شذرا مذرا ... » .

وحتى في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) كان الجنرالات الامريكيين في مناسبات عديدة يطلبون النجدة من « المولى رب الجيوش » .

ففي ايار ١٩٤٤ عندما بدأ هجوم القوات الحليفة من غاريغليانو لشق الطريق الى روما ، كتب الجنرال كلارك قائد الجيش الخامس الامريكي في أمره اليومي للقوات مايلي :

« بمعونة الرب ، وبوحي منه ، سوف تسيرون نحو الانتصارات العظيمة الحاسمة » .

وبعد ذلك بعدة شهور ، أثناء الهجوم الالماني في منطقة الآردين (شمالي شرقي فرنسا) ، لم تستطع القوات الامريكية استخدام القوات الجوية ضد الالمان بسبب سوء الاحوال الجوية ، فما كان من الجنرال باتون ، الا ان طلب من كبير الاساقفة في جيشه ، اقامة صلاة خاصة يطلب فيها من الرب تهدئة العاصفة واعادة الجو الملائم . وبالفعل تلا الاسقف والمقاتلون هذه الصلاة ...واستجاب الرب لتمنيات الجنرال باتون ونال الكاهن على هذه الصلاة وساما حربيا عاليا ..

وهكذا نرى ان الله يبقى حافزا في اذهان الرجال الذين يخوضون الحروب ، في كل زمان ومكان .

حــروب الدين الاوروبية

اشتد الخلط بين الامور الدنيوية والامور الدينية اثناء الحروب الدينية التي مزقت اوروبا من القرن الخامس عشر وحتى القرن السابع عشر .

والواقع ان النزاعات الدينية التي نتجت عن حركة الاصلاح الديني ، اخذت ابعادا كبيرة وخلفت آثارا هائلة في القارة الاوروبية ، بدلت وجهها لعدة قرون .

وفي البداية لم يكن للحركة الاصلاحية الدينية سوى هدف واحد هو ادخال بعض التعديلات في علم اللاهوت ، ولكنها سرعان ما اصبحت مصدرا لاحداث سياسية هامة تولد عنها نزاعات دينية تطورت الى حروب وحشية لا تعرف التسامح والرحمة .

ففي عام ١٤١٠ م دعا جان هوس ، لمقاومة النظام القائم في بوهيميا . ولم يكن هوس سوى فارس بسيط تزعم عصابة من الفلاحين المتحمسين لدعوته . وعندما قتل اخذ هؤلاء الفلاحون يطالبون بالثأر لموته . وهكذا اشتعلت حرب اتباع هوس في بوهيميا واستمرت حتى عام ١٤٣٤ م .

وفي المانيا تطورت المجابهة بين حزبين لطائفتين الى حروب دموية بلغت فيها القسوة حدا لم يعد بامكان القادة الروحيين الذين اشعلوها ، السيطرة عليها .

ومنذ ان اخذت دعوة مارتان لوثر [1] بالانتشار ، ظهرت في المانيا حركات ثورية متعددة تحت ستار من المبررات الدينية ، واخذت تسعى لتحقيق مكاسب مادية . وهكذا ثار بعض الفرسان والامراء مطالبين ، بحرية جماعة الانجليكان ، وحاولوا من وراء هذا الشعار الاستيلاء على الكنيسة ونهب ثرواتها .

وفي عام ١٥٢٥ ، انفجرت في المانيا ثورة الفلاحين ضد الامراء وطالب الثوار بتوزيع اكثر عدالة للثروات ، وقد اختاروا لقيادة حركتهم هذه ، راهبا خلع ثوب الرهبانية من اتباع لوثر ، ويدعى توماس موتزر . ولكن الراهب الثائر تجاوز الحدود الاصلاحية التي طالب بها استاذه ، فلم يكتف بالاصلاح الديني ، بل طالب بتغيير المجتمع نفسه ، وذهب الى الحد الذي حمل ماركس وانجلز اعتبار حركته كأول عملية شيوعية حدثت في المانيا . وقد ادان لوثر تصرفات تلميذه وحركته الثورية التي انتهت الى

(١) مارتان لوثر : عالم باللاهوت ، ومصلح ألماني ، ولد في ايسليبن عام ١٤٨٣ وتوفي عام ١٥٤٦ ، وكان ابنا لاحد الفلاحين واستاذا للفلسفة في جامعة ايرفورت (١٥٠٥) . ثم راهبا في عام ١٥٠٧ ، وقد عارض باسم الدين القديس بولص ، مبدأ بيع وثائق الغفران . وفي عام ١٥١٧ اعلن نظريته المؤلفة من (٩٥) بندا ، والتي طالبت على اساسها بالاصلاح الديني ، ثم عرفت بوثيقة الاصلاح . وتزوج عام ١٥٢٥ م ليقدم الدليل على معارضته لقوانين الكنيسة . وقام بترجمة التوراة الى اللغة الالمانية .

الفشل . الا انها كانت مقدمة للنزاع الديني الكبير الذي مزق اوروبا في القرن السابع عشر .

وفي المانيا تحولت الحرب الدينية ، التي اطلق عليها اسم « حرب الثلاثين عاما » تدريجيا الى نزاع سياسي عظيم . فقد بدأت الخصومات في قلب الامارات بين الامراء الكاثوليك والامراء البروتستانت ، لاسباب كانت في اغلب الاحيان مادية . وعلى اثر ذلك تدخلت الدول الاوروبية ، بالطرق الدبلوماسية او بتقديم المساعدات العسكرية غير آبهة اطلاقا بالمشاعر الدينية ، لذا نرى ان الكاثوليكي المتزمت الكاردينال ريشيليو يقف الى جانب الامراء البروتستانت الالمان ضد اسرة هابسبورغ الكاثوليكية المتعصبة .

وهكذا تغلبت السياسة على الدين . وعلى الرغم من طبيعة حرب الثلاثين عاما الدينية ، الا انها حملت بصمات الخصومات السياسية الاوروبية . وكانت نتيجتها النهائية ، اتفاقية تفاهم ، وهدنة واهية . اعتقد الناس بأنها لن تعمر طويلا ، بينما حددت معاهدات ويستفاليا تنظيم اوروبا لفترة تزيد عن مائة عام ، اما بسبب الانهاك الذي اصاب جميع الاطراف المتحاربة او لاسباب اخرى يصعب استنباطها .

وفي انكلترا ، انفصل الملك هنري الثامن[1] عن الكنيسة الرومانية

(١) هنري الثامن : ولد في غريويتش عام ١٤٩١ وتوفي عام ١٥٤٧ م . وتولى عرش انكلترا عام ١٥٠٩ وحتى وفاته . قطع علاقاته مع الكنيسة الكاثوليكية واصبح رئيسا للكنيسة الانكليزية عام ١٥٣٥ وتزوج بالتتابع ستة زوجات .

لاسباب شخصية ، وجر انكلترا الى القطيعة النهائية مع الفاتيكان . اما الكاثوليك الذين بقوا في المملكة فقد رفضوا الاعتراف بشرعية وراثة ابنته اليزابيت للعرش ، وأيدوا دعوة ماري ستيوارت لايكوسية ، لانها كاثوليكية . وأدت هذه النزاعات الدينية الى تمزيق انكلترا واعدام الملك شارل الاول [١] بالمقصلة ، نتيجة لانتصار الثوار الطهوريون ، أتباع كرومويل ، على أتباع ماري ستيوارت .

وفي فرنسا ، زلزلت الحروب الدينية البلاد خلال فترة تزيد عن المائة عام . ولم تقتصر هذه الحروب على الصراع الداخلي ، لان الطرفين المتخاصمين لم يترددا في طلب العون من الاجانب . وقد لجأ البروتستانت الفرنسيين لطلب النجدة من اخوانهم البروتستانت الانكليز ، بينما ساندت القوات الكاثوليكية الاسبانية اتباع الطائفة الكاثوليكية . واقتصرت مساعدة الاسبان احيانا على بعض الفصائل من الطائفة الكاثوليكية الفرنسية . وانتهت الحرب الدينية في فرنسا بتسوية تمثلت في شخص الملك هنري الرابع ، وتصديق المرسوم الملكي المسمى بـ « مرسوم نانت الاصلاحي » . ولكن الحروب الدينية انهكت فرنسا ومزقتها بعد الغاء مرسوم نانت المذكور في عام ١٦٨٥ ، وثورات الكاميزار (١٧٠٢ — ١٧١٠) [٢] .

---

(١) شارل الاول : ولد عام ١٦٠٠ وتوفي ١٦٤٩ اصبح ملك انكلترا وايكوسيا وارلندا في الفترة بين ١٦٢٥ — ١٦٤٩ وقد ثار البرلمان عليه بسبب طغيانه واستبداده بالسلطة ، وقد اعدم اتباع كرومويل بعد هزيمة جيشه النظامي على يد الثوار .

(٢) الكاميزار : هم اتباع مذهب كالفان الذين حاربوا ضد جيوش لويس الرابع عشر ملك فرنسا بين عام ١٧٠٢ و ١٧١٠م .

وتجدر الاشارة في هذه المناسبة الى ان الحروب الدينية الاوروبية والاضطهادات كان لها تأثير كبير على المستوطنين في امريكا الشمالية ، واصبحت المصدر الذي قامت عليه الحضارة الامريكية .

الحروب الدينية تجسيد مسبق للحروب القومية والحروب الايديولوجية

ظلت « الحروب المقدسة » فترة طويلة من الزمن ، الحروب الشعبية الوحيدة . وكان لا بد من انتظار ظهور « القوميات الحديثة » لكي نرى الشعوب بأجمعها تنخرط في الحروب . وحتى ذلك الوقت لم تكن الحرب تمس او تعني الا جزءا ضئيلا من السكان ممن احترفوا مهنة السلاح والقتال .

ففي الامبراطورية الرومانية ، لم يكن الشعب نفسه معنيا بالحرب الا في حدود ضيقة جدا . وكانت الجحافل الرومانية تتألف من الجنود المرتزقة المحترفين الذين يؤدون الخدمة العسكرية لمدد طويلة ، أما القادة فكانوا عسكريين ومدنيين في آن واحد .

وفي العصور الوسطى كانت الجيوش الاقطاعية تتألف من النبلاء واتباعهم من الخدم والعبيد . وهؤلاء وحدهم يدعون لخدمة الملك عند الاقتضاء . وان قيام ثورة شعبية يحمل الشعب فيها السلاح ويقاتل ، كما

حدث في مقاطعة بوفين [١] الفرنسية نادرا جدا . ولا يمكن الاستشهاد بها لانها المرة الوحيدة التي جاءت فيها الميليشيات الشعبية لتساهم بالدفاع عن البلاد .

اما الجيوش النظامية ، فكانت دائما قليلة العدد وتتألف عادة من المرتزقة والميليشيا الخاصة التي تخدم الملك في النزاعات والحروب التي نشبت في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكانت هذه الحروب تحمل دائما طابع النزاعات بين الاسر المالكة ، ولم تكن الجيوش على هذا الاساس جيوشا وطنية بالمعنى الحديث للكلمة .

وهكذا كانت جيوش لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ، كجيوش ملوك اسبانيا او انكلترا ، لا يمكن اعتبارها جيوشا وطنية ، وحتى ملوك بروسيا لم يكن لديهم جيوشا وطنية بكاملها ، على الرغم من اساليب التجنيد التي وضعها الملك سرجان وابنه فريدريك الثاني [٢] .

والحقيقة ان « الثورة الفرنسية » هي التي افتتحت عصر الحروب الوطنية الحقيقية [٣] .

---

(١) مقاطعة تابعة لمنطقة ليل في شمالي فرنسا . تغلبت على الامبراطور اوتون الرابع وحلفائه بثورة شعبية ، في ٢٧ تموز ١٢١٤ م .

(٢) الملك فريدريك الثاني : الملقب بالملك العظيم (١٧١٢ ــ١٧٨٦) اصبح ملكا لبروسيا بعد وفاة ابيه الملك سرجان (١٧٤٠) . وكان رجل حرب بارع واداري عظيم . وهو الذي اسس عظمة بروسيا .

(٣) قامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ واستمرت حتى عام ١٨٩٩ .

الحروب الايديولوجيـة المعـاصرة

هناك حروب شبه دينية معاصرة لا تزال تزرع عدم الاستقرار في مناطق متعددة من العالم الحالي ، وتقوم مبرراتها جزئيا على اعتبارات دينية وهذه الحروب هي :

١ ـــ الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت في ايرلندا والتي بدأت منذ عام ١٩١٦ ولا تزال قائمة حتى هذه الايام .

٢ ـــ الحرب بين الهندوس والمسلمين في شبه القارة الهندية وقد اشتبكت هاتين الطائفتين ثلاث مرات : ١٩٤٧ ومن ١٩٦٥ الى ١٩٦٦ وآخرها عام ١٩٧١ .

٣ ـــ الحرب العربية الاسرائيلية (١) : وقد تكررت هذه الحرب للمرة الرابعة في اعوام ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ .

٤ ـــ الحرب بين المسلمين في الشمال والمسيحيين في جنوبي السودان (١٩٥٥ ـــ ١٩٧٢) .

٥ ـــ الحرب بين قبائل الايبوس وقبائل الهاوسا في نيجيريا (١٩٦٧ ـــ ١٩٧٠) .

---

(١) الحرب الاسرائيلية العربية : ليست حربا دينية ، بل هي في الواقع حربا استعمارية ، سببها استيلاء الصهاينة على الارض العربية الفلسطينية ، بل وبعض الاراضي العربية الاخرى من الدول المحيطة بفلسطين . ولا علاقة لها بالامور الدينية او العنصرية . فالعرب لم يكونوا في تاريخهم لاساميين ولم يضطهدوا اليهود .

٦ ــ الحرب الارتيرية ، بين الارتيريين المسلمين والاثيوبيين المسيحيين (١٩٦٩) .
٧ ــ الحرب بين الطائفة التركية الاسلامية والطائفة المسيحية اليونانية في قبرص (١٩٧٤) .
٨ ــ اليقظة الاسلامية الشيعية والثورة الايرانية بزعامة اية الله الخميني في ايران (١٩٧٨ ــ ١٩٧٩) .
٩ ــ الحرب الافغانية التي بدأت عام ١٩٧٩ ولا تزال قائمة حتى الآن .

وبالطبع هناك مبررات اخرى لان الحرب لم تفجرها النزاعات الدينية .

وفي هذه الايام انتقلت الصراعات الى ميدان جديد هو الايديولوجيات التي حلت محل الديانات .

ومن المعروف ان الايديولوجية الفاشستية والايديولوجية النازية (الهتلرية) اثارت حماس الجماهير بين عام ١٩٢٢ و ١٩٤٥ ، ولعبت دورا حاسما في تفجير الحرب الكونية الثانية .

وهاتان الايديولوجيتان تناهضان ايديولوجية اخرى هي « الماركسية ــ اللينينية » التي انتشرت بعد ثورة عام ١٩١٧ في مختلف مناطق الكرة الارضية ، وحملت معها خميرة فعالة لتطلعات وطموحات الشعوب التي لم تكن قد بلغت جميعها مستوى التطور .

وغالبا ما تكون القوميات مدعومة بدعاية بارعة جدا تثير حماس الجماهير .

و « الحروب الصليبية » الحديثة في هذه الايام يتولى الدعوة لها « المفوضون السياسيون » ، الذين بدأوا يقومون بهذه المهمة في الاتحاد السوفياتي بعد استلام السلطة من قبل السوفييت ، وكان لهم دور هام في الجيش السوفياتي خلال الحرب العالمية الثانية .

وفي جميع الاماكن التي تدخلت فيها الايديولوجية الشيوعية كاسبانيا والصين والهند الصينية ، كان عمل المفوضين السياسيين ، الورثة الجدد لممثلي الثورة الفرنسية ، أساسيا وفعالا .

وتجدر الاشارة ان « تجارب الدعاية المعاكسة » لم تلق النجاح الفعال الا في اسبانيا خلال الثورة الاهلية بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ . والواقع ، لا بد من اللجوء الى الدعم الروحي ، او لعقيدة اخرى تمتاز بايمان قوي في مستوى الايمان بالايديولوجية الشيوعية لضمان الحصول على فرص للتغلب على الدعوة الشيوعية .

والحرب المقدسة او الحرب الصليبية تضع جميع المقاتلين على قدم المساواة ، لان اكثر المقاتلين تواضعا في المجال الروحي يتساوى مع اعظم القادة. فالكل يقاتلون دفاعا عن العقيدة ولا هم لهم سوى مرضاة الله ... ومن حقهم جميعا ان ينالوا المكافأة السامية في الآخرة ، ويجلسوا في السماء على يمين الرب .

الحروب المقدسة في الأيام الحاضرة

ان الحروب الايديولوجية تدعي هي ايضا بأنها « حروب عادلة » . وكل من يؤمن بهذه الايديولوجية يجب ان يساهم في حربها وان يمنحها دمه وروحه وان يكون مستعدا لتقديم اقصى التضحيات في سبيلها عند الاقتضاء .

وهذا هو الشكل الحديث من الحرب المقدسة الذي ظهر منذ ان انتظم الانسان بمجتمع في فجر الزمان .

وهكذا نرى ان البشرية كانت ترزح باستمرار طيلة تاريخها تحت ارزاء واعباء الحروب المقدسة او بالاحرى الحروب الدنيوية التي اسبغت عليها صفة القداسة : كالحروب الدينية التي ازهقت أرواح الناس حتى القرن السابع عشر ، وحروب الامراء من القرن السابع عشر حتى القرن الثامن عشر ، والحروب القومية في القرن التاسع عشر والقرن الغشرين ، والحروب الايديولوجية في القرن العشرين .

ومنذ عام ١٩٧٨ نشهد انبعاثا للصراعات الدينية خاصة بعد يقظة الاسلام الحديثة [١] .

---

(١) اعتاد الكتاب السياسيون والصحفيون على ترداد تعبير « اليقظة الاسلامية الحديثة » منذ انفجار الثورة الشعبية في ايران عام ١٩٧٨ واسقاط عرش الشاه محمد رضا البهلوي ، وتسلم رجال الدين الشيعة السلطة بزعامة آية الله الخميني (المعرب) .

ويلاحظ ان جميع هذه الحروب ، بأشكالها القديمة والمعاصرة والحديثة تتصف بالخلط بين الدين والسياسة وبين القداسة والالحاد . وهي تجعل من كل ما يتعلق بالنزاع شيئا مقدسا يستوجب التضحية الشاملة . كما تجعل من النزاع نفسه شيئا مطلقا بدلا من ان يكون « نسبيا » كبقية المشاكل الانسانية حيث يمكن ايجاد المخارج والحلول للنزاعات .

وتبرهن الحروب المقدسة ايضا على قوة الشعور الديني الذي يكمن في ضمير الانسان . وكلما كان الدين احد العناصر الاساسية في حضارة ما ، فان هذه العناصر تؤكد العلاقات الموجودة بين الحروب والحضارات .



الفصل العاشر

ميادين التفاعـلات الخمسـة

الاسلحة ، والتكتيكات والصناعة

الاسلحة القديمة :

اننا نلاحظ في التقنيات العسكرية والتكتيكات نفس العلاقات المتميزة بين الحضارات والحروب ، كما كان الامر بالنسبة للعقليات .

والواقع ان التسليح لم يتطور الا في حدود ضيقة منذ فجر التاريخ وحتى ادخال المتفجرات في ترسانة المحارب . فالاسلحة الاولى التي استخدمها البشر كانت تتألف مِن العصي والهراوات والدبابيس ، التي حصل عليها الانسان من المواد الخام الموجودة في الطبيعة : كالخشب والحجارة والعظام ... الخ .

وعندما أتقن الانسان صناعة المعادن ، ظهرت اسلحة البرونز ثم الاسلحة الحديدية ، وأعطت هذه الاسلحة الحديثة ـــ في ذلك الوقت ـــ تفوقا أكيدا للشعوب التي امتلكتها .

وبقيت الاسلحة الرئيسية المستخدمة في الحروب ، خلال آلاف

السنين تقتصر على السيف والرمح ، والفأس ، والنبال ، التي اخذت أشكالا مختلفة عبر القرون .

وتدلنا « ملحمة جلجاميش » على الاسلحة التي استخدمها البطل السومري في الالف الرابعة قبل الميلاد ، فقد ورد في هذه الملحمة ما يلي :

« لقد حُمل اليهم السلاح ، واعطيت لهم السيوف الضخمة في اغمادها الذهبية ، والقوس والكنانة . وأمسك جلجاميش الفأس بيده وعلق الكنانة وقوس ارشان على كتفه ثم تقلد السيف في حزامه .. وبعد ذلك اصبح الجميع جاهزون للسفر » (١) .

وكان المحاربون الاغريق الذين حاصروا طروادة ، مسلحين بنفس الطريقة . وتروي احدى الاساطير الاغريقية القديمة اللقاء بين احد الابطال الاغريق مع بطل طروادة فتقول :

« تقدم احد ابطال طروادة ليلتقي مع بطل الاغريق ، وكان يحمل فوق كتفيه جلد فهد ، وقوسا معوجا ، وسيفا . وقد شهر في يده حربة ذات نصال من البرونز ... وسرعان ما تلاقى البطلان وبدأت تصطدم دروعهما ورماحهما ، وكان شرر الغضب يتطاير من اسلحتهما البرونزية » .

أما جنود الجحافل الرومانية ، فكانوا يحملون السيف والمزراق ،

---

(١) من ملحمة جلجاميش التي ترجمت من العربية الى الفرنسية من قبل السيد عابد عازارية .

وكانت الجيوش الاغريقية والفارسية مزودة بالرماح التي يبلغ طولها عدة امتار .

ومن الجدير بالذكر ، في هذه المناسبة ، ان سلاح الفرسان ، ثابر على استخدام الرمح حتى بداية القرن العشرين . وفي الحرب العالمية الاولى ، كانت الخيالة الفرنسية (الدراغون) والخيالة الالمانية (الاوهلان) تستخدم هذا النوع من الرماح .

وقد عرفت العصور القديمة والعصر الوسيط ، بعض الاسلحة التي تتصف بقوة قذف ميكانيكية ، مثل : قاذف القوس والمنجنيق والعرادة ، وكانت تستخدم هذه الادوات لقذف السهام ، وقطع القرميد ، والحجارة ، ولكن تأثيرها بقي محدودا ..

عصر الاسلحة النارية

لقد ادى ظهور بارود المدافع فوق ساحات المعارك في نهاية العصر الوسيط ، الى زيادة سرعة تطور الاسلحة .

والواقع ان الصينيين استخدموا البارود في حدود ضيقة جدا منذ القرن الحادي عشر الميلادي . وادخل العرب البارود الى اوروبا في القرن الثالث عشر ومن المرجح انهم استخدموا مدفعا بدائيا جدا . وسرعان ما أخذت الاسلحة النارية المتنوعة تحل محل السلاح الابيض تدريجيا ، وتحولت معظم الاسلحة القديمة الى اسلحة مساعدة واختفى بعضها نهائيا من

ميادين المعارك . وحلت الحربة المركبة على رأس البندقية محل الرمح ، واحتفظ الفرسان بالسيف الى جانب الرمح في بعض الاحيان ، كما سبق وذكرنا .

وكانت المدافع في طليعة الاسلحة النارية التي دخلت ساحات المعارك ، ولم يكن تأثيرها كبيرا جدا في البداية . ففي معركة كريسي [١] التي حدثت عام (١٣٤٦) م ، كان قصف المدفعية يحدث الكثير من الضجيج فيخيف الخيول ، ولم يكن له تأثير كبير على نتيجة القتال .

وعلقت احدى الصحف الفرنسية على استخدام المدفعية اثناء حصار مدينة كاليه فقالت مايلي :

« الحمد للرب ومريم العذراء ، ان المدفعية لم تجرح رجلا ولا امرأة ولا طفلا » .

وفي القرن الخامس عشر ازدادت اهمية المدفعية ، عندما اصبحت الوسيلة الفعالة بين الملوك لتدمير حصون اتباعهم من الفرسان الاقطاعيين المتمردين .

وفي نهاية حرب المائة عام بلغت المدفعية مستوى عاليا من الفعالية ساعد الملك شارل السابع على تحرير ما يزيد عن ستين قلعة محصنة في النورماندي ، خلال عام واحد ، كان يحتلها الانكليز .

---

(١) كريسي : مدينة فرنسية تقع على نهر السوم . وقد حدثت المعركة التي انتصر فيها جيش ملك انكلترا ادوار الثالث على جيش فيليب السادس ملك فرنسا ، في احدى غابات هذه المدينة ، وكانت بداية لحرب المائة عام .

وفي عام ١٥٤٣ م أثناء حصار القسطنطينية ، كان بحوزة السلطان محمد الثاني عددا كبيرا من المدافع : منها (١٣) مدفعا ضخما (تستخدم قذائف ثقيلة من الحجر يزيد وزن القذيفة على عدة مئات من الكيلو غرامات ، بالاضافة الى (٦٠) مدفعا من عيارات صغيرة مختلفة . وكان تأثير المدفعية الثقيلة حاسما ، لأن الثغرات الواسعة التي فتحتها في اسوار المدينة لم يتمكن البيزنطيون من سدها .

وفي عام ١٤٩٢ م أجبرت المدفعية الاسبانية العرب على تسليم آخر مدينة من ممتلكاتهم في اسبانيا وهي مدينة غرناطة .

ومن الجدير بالذكر ان النتيجة الاولى الهامة التي اقترنت باستخدام المدافع في القتال هي انهاء غزوات البرابرة ، والواقع ان الاقوام الرحل الذين اعتمدوا في عملياتهم على سرعة الحركة ، استطاعوا الحصول على التفوق الكامل في المعركة على سكان الحضر بفضل تطوير خيالتهم . وعندما امتلكت الدول المتحضرة صناعات تسمح لها بانتاج المدفعية ، استطاعت بفضل هذا السلاح شل الحركة والتغلب على الخصوم الذين يعتمدون على الخيالة ولا يملكون هذه المزية .. وحصلوا على تفوق ساحق كان من نتيجته تغيير مجرى الاحداث .

وقد استطاعت الصين بفضل بعثة من اليسوعيين الطليان انتاج السلاح الجديد (المدفع) مما ساعدها على صد غزوات قبائل الشمال البربرية ووضع حد نهائي لها .

أما الروس الذين كانوا ، منذ قرون ، يتعرضون لهجمات التتار مما اضطرهم للتراجع باتجاه بحر البلطيك ، فقد نجح امراؤهم في موسكو في انشاء مدفعية صالحة ، وبادروا برد التتار نحو اراضيهم الاصلية ثم اخذوا يضعون الاسس الصلبة لامبراطورية تهدف لضم جميع الشعوب السلافية .

بدأت عمليات الامراء الروس على شكل « حرب تحرير » للتخلص من سيطرة التتار . ثم استمرت هذه العمليات حتى نهاية القرن السابع عشر لطرد الاتراك من اوروبا : وترتب على ذلك نشوب نزاع طويل الامد بين روسيا والباب العالي (الامبراطورية العثمانية) لم يهدأ حتى تراجع العثمانيون عن القارة الاوروبية . غير ان تركيا الحديثة ، استطاعت الاحتفاظ باسطنبول وادرنة وحققت بذلك السيطرة الكاملة على المضائق .

لقد اعطى « عصر المتفجرات » التفوق الشامل للجيوش الدائمة ، فظهرت الاسلحة النارية في اللحظة التي بدأت فيها « الخيالة » تتخلى عن مكانتها لوحدات المشاة والجنود المحترفين (المرتزقة السويسريين ، والمرتزقة الجرمان ، وعصابات الكوندوتوري الطليانية) .

وفي هذه المرحلة الجديدة بدأت الحرب تفقد جانبها المثالي والفروسي ، وتتحول الى « علم وفن » . وسجلت الحرب الايطالية (١٤٩٤ ـ ١٥١٦) بداية عصر جديد هو « عصر الاسلحة الحديثة » . ففي هذه الحرب تكبدت التشكيلات المتراصة (كالتشكيلات السويسرية) خسائر فادحة من جراء قصف المدفعية .

وفي معركة مارينيان عام ١٥١٥ م ، زجت وحدات الفرسان في الثغرات التي فتحتها المدفعية في صفوف الكتائب السويسرية .

وبنفس الوقت تطلبت الغدارة والبندقية ذات الفتيل استخدام الجنود المحترفين ، لان خدمة هذه الاسلحة وحسن استعمالها وصيانتها تحتاج الى تدريب متواصل ، الامر الذي يستبعد تطويع الجنود الفوري .

وادى استخدام المدفعية وتطورها ، الى تعديل مخطط التحصينات : فالقلاع والمواقع المحاطة بالجدارن العالية المشابهة للمواقع القديمة ، تحطمت تحت ضربات المدافع ذات القذائف الكروية الحديدية ، وحلت المدافع محل آلات الحصار القديمة .

ومالبثت المدافع ان احتلت مكانا ممتازا في الدفاع بعد تعديل مخططات التحصينات لتتلاءم مع متطلبات هذا السلاح . وهكذا اصبح للمدفع مكانه الممتاز في الهجوم والدفاع ، كما اصبحت الاسلحة النارية الخفيفة ، السلاح المفضل لدى جميع المقاتلين من الفرسان والمشاة .

وتجدر الاشارة الى أن هذه الاسلحة الجديدة التي تملك قوة تدميرية هائلة بالمقارنة مع الاسلحة القديمة ، احدثت ضجة كبرى في الاوساط الدينية والفكرية ، فقد ادانها الكثيرون من رجال الفكر ورجال الكنيسة . ومما قاله الشاعر آريوست [1] : « أيها المخترعات الملعونة ، انك ادوات

---

(١) آريوست : شاعر ايطالي (١٤٧٤ ـ ١٥٣٣) من ابرز شعراء النهضة في ايطاليا واوروبا

موت خسيسة » . ووصف بليز دومونلوك بندقية الفتيل بأنها « أداة الشيطان التي تسلمنا للقتلة » .

أما الكنيسة ، فأدانت المنجنيق الذي ظهر في فترة الحروب الصليبية ووصفته بأنه « سلاح يمقته الرب ، وغير جدير بالانسان المسيحي » .

ومن المعروف ان ادخال اي سلاح جديد الى ترسانة الاسلحة يرافقه دائما ردود فعل عنيفة معارضة ، ولكنها لم تنجح في الحيلولة دون استمرار التسابق على التسلح ، واستخدام هذه الاسلحة في الحروب . وقد تكون ردود الفعل التي نسمعها في هذه الايام ضد الاسلحة النووية استمرارا لتلك الحملات التي لم يكلل اي منها بنتيجة ايجابية .

وهكذا لم ينته القرن الخامس عشر ، حتى كانت جميع الاسلحة النارية قد احتلت امكنتها في مخازن الاسلحة ، وساحات المعارك ، وبالرغم من ان بعضها كان لايزال على اشكال بدائية بشعة ، الا ان خطوط التطور الرئيسية أصبحت واضحة ، بل لقد ظهرت بالفعل جدة البندقية التي تلقم بالمغلاق الآلي .

أما البندقية القديمة ، فعلى الرغم من ثقل وزنها وصعوبة استخدامها ، فقد لعبت دورا هاما ، فكانت الى جانب المدافع المسيحية في معركة ليبانت البحرية [١] التي أوقفت التوسع التركي نهائيا في البحر

(١) معركة ليبانت : سميت باسم مدينة ليبانت اليونانية ، الواقعة على مضيق ليبانت الذي يصل بين خليج باتراس ، وخليج كورنثة . وفي هذه المعركة انتصر دون جوان النمساوي على

الابيض المتوسط .

وفيما بعد حلت بندقية الفتيل محل البندقية القديمة (القربنية) لسهولة استعمالها ، ومع ذلك بقيت ثقيلة نوعا ما لانها تحتاج الى « منصب » أثناء الرمي ، كما أنها شديدة الحساسية بسبب البطء في عملية التلقيم .

وفي عام ١٥٤٠ م دخلت الغدارة ميدان المعركة ، وهي عبارة عن بندقية قصيرة ، لا تحتاج لفتيل الاشعال ، وهي مزودة بقطعة من البلاتين ذات حلقة للاطلاق ، مما حسن شروط اشعال النار . وقد سمح هذا التطور الجديد لوحدات الخيالة استخدام هذا السلاح بسبب سهولة استعماله ، وإستعادة دورها الفعال في المعركة ، بعد أن كانت قد تخلت عنه لوحدات المشاة المجهزة بالبندقية القديمة (القربنية) والبندقية ذات الفتيل .

كان للتغييرات التي احدثها استخدام الاسلحة النارية اهمية عظيمة خلال الحروب الدينية ، وتميزت حرب الثلاثين عاما بظهور عصابات المرتزقة وقطاع الطرق واللصوص ، الذين كانوا يشنون عمليات الاغتصاب والسلب ، مما سبب أعظم المآسي على السكان .

وفي القرن السابع عشر تركزت التحسينات في التقنية على عملية

الاسطول التركي عام ١٥٧١ م . واصبحت هذه المعركة من المعارك الفاصلة بين اوروبا المسيحية والشرق الاسلامي .

اشعال النار ، فأعطت للبندقية مزيدا من الامان والسرعة بالاستخدام . وأدى كل ذلك الى تطور صناعة الاسلحة . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر اخذت الحروب طبيعة خاصة بسبب القيمة « السلعية » للجندي ، التي أصبح من الضروري الاقتصاد بها لارتفاع كلفتها .

ولهذه الاسباب اتسمت الحروب الملكية في هذه الفترة بالبطء والتواضع ، فاستحقت الوصف الذي أطلقه عليها المؤرخون انذاك حينما سموها « حروب الدانتيلا » .

والحقيقة أن « رشقات الرمي » بالبنادق ، التي تتم بالايعاز ، كما حدث في معركة فونتينوا [١] ، قدمت في المعارك نارا كثيفة قاتلة .. وترتب عليها في بعض الاحيان خسارة فادحة بالارواح ، وأدت الى حسم المعركة كما حدث في معركة كويبك [٢] عام ١٧٥٩ .

وفي بداية القرن الثامن عشر سجلت الحرية المركبة على فوهة سبطانة البندقية ، ولادة مشاة حديثة بالفعل ، وجمعت كل المحسنات الضرورية للهجوم والدفاع : كالقوة النارية ، والقدرة على الصدام ، والايقاف .

أما « الجيش الوطني الاول » الذي لم يكن يتألف بكامله من

---

(١) فونتينوا : بلدة بلجيكية وقعت فيها المعركة الفاصلة التي انتصر فيها المارشال دوساكسر بحضور الملك لويس الخامس عشر على القوات الانكليزية والهولاندية عام ١٧٤٥ م .

(٢) في هذه المعركة انتصرت القوت الانكليزية على القوات الفرنسية .

المرتزقة ، فكان الجيش البروسي فريدريك الثاني ، وكان تطويع الجنود في هذا الجيش يتم من بين سكان الكانتونات (الولايات) التي كان على كل منها تقديم عدد محدود من المجندين يتناسب مع عدد سكانها ، وكان المجندون بهذه الطريقة يخضعون لتدريب شديد : هو التدريب العسكري على الطريقة البروسية .

ويشبه نظام التدريب هذا ، النظام في الجحافل الرومانية القديمة . وقد وصلت قسوة التدريب البروسي درجة جعلت الجنود يخافون ضباطهم اكثر من اعدائهم ، وكانت صعوبة التمارين اشد من هول المعارك الامر الذي اعطى للجنود البروسيين رهبة خارقة في القتال .

وهكذا سجل فريدريك الثاني مرحلة جديدة في تطور الاسلحة التي اخذت تستحوذ على اهتمام جميع الطبقات الشعبية ، كما أصبحت بمثابة الطبيعة الدائمة الضرورية لخدمة الاسلحة التي تتطلب تدريبا طويلا ودقيقا .

العصر الصناعي

ولدت الصناعة الكبرى في القرن التاسع عشر بعد الحروب النابليونية ، وتطورت بسرعة كبيرة خاصة في امريكا الشمالية . وبالرغم من أنه لم يطرأ الكثير من التغييرات على نماذج الاسلحة الا انه امكن انتاجها بكميات هائلة ، الامر الذي سمح بتسليح جيوش كثيرة العدد .

كما ساعد ، تطور النقل بواسطة السكك الحديدية ، وتطور الاتصالات بواسطة المبرقات (التلغراف) ، على نشر القوات المقاتلة فوق مسارح عمليات واسعة .

وقد تمكنت الولايات الشمالية من الانتصار في الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦١ ــ ١٨٦٥) بسبب كثافة سكانها وقوة صناعتها ، وهزمت الولايات الجنوبية التي كانت انذاك لا تزال في مرحلة الاقتصاد الزراعي .

وفي أغلب الاحيان كانت هذه الدول تملك جيوشا متفوقة وعلى رأسها قيادات ذات كفاءات عالية ، ولكنها مع ذلك انهزمت امام عدو يملك موارد بشرية وطاقات انتاج اعظم .

وعلى صعيد التكتيك ، ظهر التأثير المدمر لنيران المشاة والمدفعية وأصبحت المعارك اكثر دموية بسبب ارتفاع مدى الأسلحة وازدياد وتائر الرمي . وأخذت تشكيلات القتال تتجه نحو الانتشار لكي تكون أقل تعرضا لنيران العدو ، وبدأت تستخدم تموجات الارض للتستر واتقاء شظايا القذائف المتنوعة .

والحقيقة إن الدروس المستخلصة من هذه التغيرات التي ترتبت على الانتقال من الحضارة الريفية الى الحضارة الصناعية فلم يتم ادراكها مباشرة .

وأكدت حروب البلقان التي وقعت في الفترة بين عام (١٨٧٥

و ١٨٧٨) وحروب الترانسلفاك بين عام (١٨٩٩ و ١٩٠٢) وحرب منشوريا بين عام (١٩٠٢ ـــ ١٩٠٥) ، وحرب البلقان الثانية بين عام (١٩١٢ و ١٩١٣) ، أكدت هذه الحروب التطور الذي كرسته وضاعفته الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـــ ١٩١٨) .

وحملت نهاية القرن التاسع عشر معها ثلاثة اختراعات بدلت طبيعة ساحة المعركة : الا وهي تعميم استخدام البارود الذي لا دخان له ، والمتفجرات المدمرة ، والرشاش .

وبفضل البارود عديم الدخان ، أصبح من الصعب تحديد أمكنة تمركز المدفعية خاصة اذا كان ذلك بخلف المرتفعات في منأى عن الرؤية المباشرة للعدو .

وأصبحت قذائف المدفعية ، بفضل المتفجرات المدمرة ، تتنشطر الى شظايا قاتلة ضمن دائرة يختلف اتساعها باختلاف عيار المدافع ، وهكذا ازدادت فعالية القنابل بشكل هائل ، وأجبرت المقاتلين على الاختفاء في حنايا الأرض لاتقاء الضربات .

ومع الرشاش ورماياته الآلية ازدادت مدى وغزارة نار المشاة بنسب عالية جدا [١]

وهناك اختراع رابع جديد احتاج استخدامه الى وقت طويل ، الا

---

(١) بلغ المدى المجدي لاسلحة المشاة الآلية عام ١٩٧٩ ، ألف متر ، ووصلت السرعة العملية للرمي الى حدود عدة مئات من الطلقات في الدقيقة .

وهو الفولاذ الذي حل محل معدن البرونز في صناعة المدافع . وفي هذا الوقت ادخلت الاحازيز الى سبطانة البندقية والمدفع فزادت رماياتها دقة واعطتها مدى ابعد .

وكانت الحرب العالمية الاولى اول حرب صناعية بسبب استعمالها للمركب المعقد الذي يتكون من هذه التحسينات التقنية المختلفة ، وخاصة بعد ظهور الاسلحة الحديثة (الطيران والدبابة المقاتلة) ، وبفضل تطور امكانيات النقل البري والاتصالات اللاسلكية (المبرقات اللاسلكية) . وامتدت الحرب في الفضاء وساعدت الامكانيات الصناعية المتزايدة الدول الكبرى على تسليح وتجنيد اعداد كبيرة من المقاتلين في الخطوط الأمامية بما لا يقارن اطلاقا مع الامكانيات في الماضي .

أما العمليات الحربية فأصبحت تدور فوق مسارح ذات ابعاد هائلة وادخلت تطورات كبيرة على الاسلحة الجماعية مما ادى الى تغيير جوهري في التكتيك . كما ادت التعبئة الصناعية في الدول الكبرى الى استخدام النساء للعمل في المصانع والحقول بدلا من الرجال الذين يذهبون للحرب ، واصبحت المصانع من الكفاءة الى درجة ازدادت معها انتاجها للمدافع والذخيرة بوتائر متصاعدة ، كما أصبح تدمير أسلحة العدو فوق ساحة المعركة من الاهداف الاساسية المطلوبة . واحتلت المدفعية مكانا ممتازا في الحروب ، مما دعا الخبراء للقول بأن « المدفعية تجتاح والمشاة تحتل » ، وتطلب هذا الدور الرئيسي المزيد من استهلاك القنابل الامر الذي اصبح ممكنا بفضل غزارة الانتاج الصناعي .

والخلاصة فان اطالة مدة العمليات ، وازدياد كثافتها ، وعدم مرونة الاسلحة البرية ، ادى الى البحث عن حلول جديدة لقطع جبهات العدو . وفي هذا السياق ظهر السلاح الكيماوي البحت ، الذي عرف انذاك بالغازات السامة . الا ان هذا السلاح لم يعط نتائج حاسمة في المعارك على الرغم من مفعوله المخيف .

عصـــر المحـــرك

ان أعظم تجديد نموذجي شهدته الحروب هو دخول الطيران ودبابات القتال في ميادين العمليات . ومع ظهور هذين السلاحين الفعالين تبوأ المحرك الانفجاري مكانا بارزا في ساحات المعارك . فالدبابة التي اهملت منذ قرون ، وجدت ، بفضل المحرك ، الشروط اللازمة لاستخدامها في المعركة ، ولكنها لم تشهد مع ذلك كل امجادها طوال الحرب العالمية الاولى .

أما الحرب العالمية الثانية فكان من أهم مميزاتها ضخامة الانتاج الصناعي : ففي هذه الحرب وضعت الولايات المتحدة الامريكية وسائلها الصناعية الهائلة في خدمة الحلفاء ، فأنتجت مئات الالاف من الطائرات والدبابات ، والاف السفن الحربية المختلفة ، ومن بينها مائة وعشرين حاملة طائرات . وفي هذه الفترة نفسها لم تتمكن اليابان من انتاج اكثر من عشرين حاملة طائرات ، الامر الذي يفسر بشكل واضح اسباب النصر النهائي للحلفاء على المحور .

أما المانيا الهتلرية فقامت بمجهودات صناعية جبارة ، فبالرغم من الغارات الجوية المكثفة التي كبدت مؤسساتها الصناعية اعظم الخسائر ، الا انها استطاعت ان تنتج من العتاد في غام ١٩٤٤ اكثر مما انتجت في عام ١٩٤٠ .

وهكذا فان التقدم بالنقل على الخطوط الحديدية والطرق البرية والبحرية والاتصالات السلكية واللاسلكية ، أدى الى اتساع مسارح العمليات واخرج للوجود ما يسمى بـ « قيادات مختلف صنوف الاسلحة » في المسارح .

تمجيد المتفجرات والصواريخ
والعصر النووي ـــ الفضائي

ان تمجيد المتفجرات يعني الانتقال من المتفجرات الكيماوية الى المتفجرات النووية ، اما تمجيد الصواريخ او وسائل النقل : فيعني الانتقال من المدفع الى القذائف الصاروخية ثم الى الصواريخ العابرة للقارات .

فالحرب العالمية الثانية شملت جميع القارات ، وقد انتهت في المحيط الهادي بعد ثلاثة اشهر من نهايتها في اوروبا ، وكان ذلك بضربة مسرحية حقيقية. لم يشهد تاريخ البشرية لها مثيلا: وكان من نتيجة هذه الضربة

الجبارة تدمير مدينتين يابانيتين في آب ١٩٤٥ هما : هيروشيما وناغازاكي ...

لقد دمرت كل من هاتين المدينتين بفعل قنبلة واحدة لكل منهما ، وكانت هذه القنبلة محشوة بمتفجرات جديدة ذات قوة لم يسبق لها مثيل .

ومع الانتقال من المتفجرات الكيماوية الكلاسيكية الى المتفجرات النووية دخلت البشرية في « عصر جديد » .. ذلك ان التغيير الجديد لم يكن تغييرا بالابعاد ، ولا بقوة الانفجار ، ولكنه تغيير بطبيعة ونوع المادة المستحدثة .

ففي الماضي كان لا بد من حشد الاف المدافع لتدمير مواقع العدو ، ولا بد من استخدام مئات الطائرات لتدمير طاقات العدو الانتاجية وتخريب المدن الصناعية .

أما بعد هذا التاريخ (أي بعد هيروشيما) ، فان قنبلة واحدة تحملها طائرة واحدة كافية للوصول الى هذه الاهداف .

وفي أيامنا الحالية أصبح لدى القوى الكبرى ، العديد من الصواريخ العابرة للقارات التي تحمل العبوات النووية المقدرة بالميغا طونات والتي تستطيع اصابة الاهداف بدقة على مسافات تزيد على الاف الكيلو مترات ، وان تدمر اهم المراكز الحيوية ، الامر الذي لم يعد بالامكان انقاذ اي مناطق من التدمير .

وهكذا نرى ان التغيير الجديد ليس تغييرا في تطور الاسلحة ولكنه

ثورة تكنولوجية حقيقية عميقة وشاملة . وهذه الثورة أدت الى خلق بلبلة بالافكار لا تزال قائمة حتى الآن ، ذلك لان الانفجار النووي لم يستخدم بعد في ميادين القتال ، واقتصر استخدامه على ضرب المدن العزلاء . ولهذا فان أشياء كثيرة لاتزال مجهولة في موضوع استخدام الاسلحة النووية في المجال العسكري البحت . لذلك نرى ان العديد من النظريات لا تزال تتكدس منذ عام ١٩٤٥ ، وحتى عام ١٩٧٩ ، ولم تحظ اي من هذه النظريات حتى الآن بفرصة الاصطفاء التجريبي . ونتيجة لهذه البلبلة يجد الخبراء انفسهم امام ميدان مجهول مليء بالمفاجآت ، ولا بد من توقع أي شيء ، لان العالم لايزال يجد نفسه امام « الذرة » وكأنه في حالة « العذرية » .

أما على صعيد التكتيك ، فقد بذلت الكثير من الجهود لزيادة قوة القذائف النووية مرورا بالقنبلة A الى القنبلة الهيدروجينية H ذات الانصهار الذي يضاعف الانفجار النووي عشرات المرات .

واذا كان تأثير القذائف النووية قد تكيف تبعا « لاستراتيجية الردع النووي ضد المدن » ، فانه لم يتكيف حتى الآن بالنسبة « للاستراتيجية المضادة للقوات » في ميدان المعركة . فهذه العملية تتطلب قذائف اكثر تطورا ، لان تصغير القذيفة النووية يؤدي الى انتاج اسلحة نووية تكتيكية تختلف مواصفاتها اختلافا جوهريا عن مواصفات السلاح النووي الاستراتيجي .

وهكذا فان استخدام المتفجرات النووية يستوجب تغييرات في

التكتيك العسكري ، لا بد من البحث عن قواعدها دون امكانية القيام بالتجارب حتى على نطاق محدود كما كان الحال في الماضي بالنسبة للاسلحة الكلاسيكية . وكما جرى بالفعل في الحروب المحلية (كحرب البلقان قبل عام ١٩١٤ ، والحرب الاسبانية قبل عام ١٩٣٩) .

والواقع ان امتلاك اسلحة من هذا النوع لا يزال يقتصر في الوقت الحاضر على القوى التي بحوزتها وسائل صناعية ومالية هامة جدا .

ففي البداية كان هناك احتكار مطلق للاسلحة النووية من قبل الولايات المتحدة الامريكية ، ولم تستعمله الا ضد اليابان عام ١٩٤٥ . ثم مالبث الاتحاد السوفياتي ان توصل لصنع الاسلحة النووية وحقق توازنا نوويا شاملا مع امريكا . وفيما بعد دخلت انكلترا وفرنسا فالصين والهند الى « النادي النووي » ، وتدل المؤشرات الى انه اصبح في مقدور بعض الدول الاخرى اقتحام هذا النادي خلال السنوات القليلة القادمة [١] .

ومن الجدير بالذكر ان الدول النووية الكبرى تملك تجاه الدول الاخرى وسائل ضغط هامة ، استطاعت ان تلعب دورا حاسما في مناسبات عديدة (مثل أزمة السويس عام ١٩٥٦) . ويشهد العالم اليوم

---

(١) تتواتر المعلومات التي تؤكد ان اسرائيل اصبحت في عداد الدول التي تمتلك اسلحة نووية . كما تشير هذه المعلومات ايضا الى ان جمهورية جنوب افريقيا فجرت قنبلتها النووية بالتعاون مع اسرائيل . وترشح المعلومات ايضا كلا من البرازيل والباكستان والعراق ، لامتلاك الاسلحة النووية في السنوات القادمة ، كما ان الكثير من الدول الصناعية الفنية مثل اليابان والمانيا الغربية وايطاليا والسويد وغيرها يمكنها اذا ارادت صنع الاسلحة النووية لانها تمتلك كل الوسائل اللازمة .

نوعا من « توازن الرعب » بين الكتل المتنافسة ، ويعتبر من العوامل المهيمنة الآن على العلاقات الدولية .

ان هذا الوضع يستدعي اعادة النظر في توسع الامم والدول التي كانت حتى الآن سببا مولدا للصدامات والخصومات بين القوى .

وان الخوف من تفجير حرب مدمرة شاملة لايمكن التنبؤ بنتائجها ، يدفع القوى الكبرى الى المجابهة من خلال الدول الصغرى في حروب محلية ومحدودة ، في المكان والزمان ، وتقتصر على استخدام الاسلحة الكلاسيكية .

وتقوم هذه السياسة المخادعة على لعبة معقدة جدا مشحونة بالمخاطر . **ومن المهم في هذه اللعبة اقناع الخصم بأن كل تصرف يتجاوز حدودا معينة (الخط الاحمر) سيؤدي الى حرب شاملة ، سيكون فيها المنتصر نفسه جريحا حتى الموت ، ومعرضا لحرب اهلية ، أو الى حرب تشنها قوة ثالثة ذات طبيعة حيادية وسلمية ... .**

وهذه اللعبة المعقدة الذكية ، تحتاج الى عقل الكتروني لتحديد مواصفات اللحظة الآنية ، كما تستدعي صفات استثنائية من جانب القادة ، يشوبها احيانا القدرة على الخداع الذي يلعب دورا هاما في هذا الميدان .

وتجدر الاشارة هنا ، الى ان المغامرة (أو ضربة البوكر) التي قام بها الرئيس كندي عام ١٩٦٢ أثناء أزمة الصواريخ السوفياتية في كوبا .

وماذا كان بالامكان ان يحدث لو لم يستجب الاتحاد السوفياتي لهذا الانذار النووي ويسحب صواريخه ؟ ...

فهل تدفعنا هذه « القوة » التي لم يستطع الانسان حتى الآن ترويضها والسيطرة عليها .. هل تدفعنا بسرعة مذهلة نحو ازمة حضارية جديدة ؟ ..

ومن الملاحظ وجود هوة عميقة بين الدول الغنية التي تملك الاسلحة النووية ، والدول الفقيرة التي لا تستطيع حتى الآن الحصول عليها غير ان هذه الدول تملك تفوقا ديمغرافيا (سكانيا) واحيانا تفوقا ايديولوجيا ويمكنها من تعويض ضعفها التكنولوجي والنووي .

وهكذا نرى ان الانسانية دخلت منذ عام ١٩٤٥ في عصر جديد هو « العصر النووي ــ الفضائي » الذي جعل الحضارات المعاصرة شديدة الهشاشة .

الفصل الحادي عشر

التحصينات : التقنيات والاحكام

تعتبر التحصينات المشادة فوق سطح الأرض ، كالاسلحة المتحركة في ساحات المعارك ، شواهد للحضارات تكشف لنا اسرار التقنيات القديمة وتوحي وتزيد في سرعة التقنيات الحضارية وتساعد على تطويرها وتحسينها ، فمنذ العصور الموغلة في القدم أنشأ الانسان البدائي الاول الملاجىء البسيطة ليحتمي بها ، وكان ذلك اول رد فعل يقوم به الانسان ليكون هو وثرواته في منجى من مطامع العدو المجهول .

وتدل المعلومات أن « روبنسون كروزديه » أنشأ جدرانا من القصب ليحتمي بها ، كما فعل اجدادنا في عصور ما قبل التاريخ في مغاور العصر الحجري الاول .

المعاقل الاولى (معاقل الانسان الاولى)

كان انسان العصر الحجري الاخير مسالما ، فلم تكن القرى التي

سكنها تحتوي على أية تحصينات ، كما لم يعثر في قبور هذا الانسان على اية اسلحة .

وقد كشفت التنقيبات عن وجود قرى محصنة تحصينا قويا ، يعود تاريخها للفترة التي تلت العصر الحجري ، كما عثر في قبور تلك الحقبة على بعض الاسلحة .

وتدل البحوث والتنقيبات ان الحروب تضاعفت مع ظهور الاراضي المزروعة ، في اوروبا الوسطى وفي معظم اجزاء الكرة الارضية ، كما اصبحت الاماكن المأهولة بالسكان ، اكثر حماية ، بفضل الوسائل والمواد التي حصل عليها الانسان .

وحوالي الالف السابعة قبل الميلاد كانت مدينة اريحا ، الواقعة في وادي الاردن ، تغطي مساحة من الارض تعادل ثلاثة هكتارات . وكان يحميها من الغارات المعادية ، خندق محفور بالصخور ، عرضه ثمانية امتار وعمقه متر ونصف ، ويدعم هذا الخندق سور من الحجارة .

وقد تطورت التحصينات عبر القرون واخذت اشكالا مختلفة تتلاءم مع ظروف الزمان والمكان وتطور الاسلحة .

الدفاع والهجوم

هناك قاعدة عامة تم استخلاصها عبر التاريخ : ففي الفترات التي

كانت فيها الاسلحة واساليب التكتيك تسهل عمليات الهجوم ، لم تستطع التحصينات توفير الشروط الملائمة لاقامة الدويلات الصغيرة ، لان مثل هذه الدول لم تكن تستطيع الصمود امام الغزوات المهاجمة . وفي ظل التفوق الهجومي نشأت الممالك الواسعة والامبراطوريات .

وعلى عكس ذلك تماما ، عندما تفوقت وسائل الدفاع على وسائل الهجوم ، اي عندما اصبحت الاسوار تؤمن حماية فعالة ضد الغزاة ، توفرت الظروف والوسائل لاقامة دويلات صغيرة اقطاعية وقبلية ، وانطوى الناس على انفسهم ، واستطاعت المدن ــ الدول الصمود للهجمات التي يشنها الجوار ، وتمكن النبلاء من شق عصا الطاعة على الملوك وأنشأوا ممالكهم الخاصة واقطاعياتهم . واصبح كل فرد ينغلق بأنانية على نفسه وراء الجدران التي يبنيها سعيا وراء الاحتفاظ باستقلال ذاتي محلي ، يحول دون قيام مجموعات كبيرة .

وفي هذه الفترة كانت قلعة تيرينث في اليونان ، تتمتع بالاستقلال الذاتي ، على الرغم من أن مساحتها لا تزيد عن عشرين الف متر مربع ، ولا تبعد عن مدينة مسين الهامة المنيعة سوى خمسة عشر كيلو مترا .

وفي الالفين الاخيرين قبل الميلاد ، انشىء في اسيا الغربية وحوض البحر الابيض المتوسط ، امبراطوريات عظيمة واسعة ، على الرغم من انشاء بعض التحصينات التي اتصفت بالمناعة في بعض الاحيان .

ان نفسية الانسان الدفاعية ، تتطلب تبعا للظروف بأن تكون

التحصينات تشكل حماية للمواقع التي تستخدم كملاجىء او ساحات المناورات جيوش الميدان ، وان تشكل حاجزا متصلا ومنيعا في وجه العدو : ومن الامثلة البارزة على هذه التحصينات التي أنشأها الانسان عبر التاريخ : جدار الصين في الماضي ، وخط ماجينو وخط سيغفزيد في الحرب العالمية الثانية .

وهذه التحصينات تمثل مفاهيم مختلفة وتقنيات تواجدت خلال مسيرة الانسان الطويلة عبر التاريخ .

التحصين والاقتصاد والدين

منذ عصور ما قبل التاريخ لعبت التحصينات دورا هاما في صراعات البشر خلال هذه الازمنة . وأظهرت التنقيبات الحديثة بعض المواقع القديمة المحصنة ، مثل مدينة انكوردول في منطقة جبال الالب البحرية (جنوب شرقي فرنسا) المطلة على خليج جوان .

وفيما بعد ، تميزت مدينة الغولواز ، بأنها عبارة عن قلعة محصنة او معقل للحماية . وفي معظم الحالات كانت الاسوار تشاد قبل انشاء المدن ، ويعتبر على هذا الاساس القاعدة للمنشآت التي اقيم من اجل حمايتها . وتبدو معظم الدول الغولية المعروفة حتى الآن مثل بيبراكت وجيرغوفي وآليزيا ، كملاجىء قديمة تعود الى عصور ما قبل التاريخ . ولم يكن السكان اول الامر يلجأون الى هذه المدن الا في حالات الاستنفار ،

ثم اخذ بعض اللاجئين يستقرون تدريجيا فيها لانهم وجدوا شروطا اكثر ملاءمة للعمل : ومن بين هؤلاء السكان الاوائل ، الحرفيون والسكابون والتجار . وفي مراكز هذه المدن ولدت الاعياد الدينية ثم أنشئت أماكن العبادة .

لقد ورث الغاليون تقاليد عريقة في فن بناء الاسوار التي تختلف طبيعتها وشكلها حسب اختلاف المواد المعروفة . وترجع اقدم الاسوار التي بناها الانسان الى العصر البرونزي ، وهي من نوع الاعمال الجبارة . وتلا ذلك بناء انواع اخرى شيدت بكثير من العناية ، واخذت تتجه نحو توفير اقصى ما يمكن من الشروط للمقاومة .

وفي الجزر البريطانية ، كانت القرى في عهد قبائل الصلت ، تقام غالبا على شكل اقرب ما يكون للملاجىء ، منه الى شكل اماكن السكن . وهذه القرى على نوعين الاول عبارة عن « قرى بحرية » تبنى في قلب البحيرات وعلى ضفاف الانهار ، والثاني قرى محصنة تبنى فوق ذرى الهضاب المشجرة . وتذكرنا قرية مايدن كاستل الواقعة بالقرب من مدينة دورشستر بقرية آليزيا الغولية .

أما في وادي دجلة ، فلم تكن مدينتا كاليش ونينوى انذاك سوى ذكريات ، عندما اكتشف المؤرخ اليوناني كسينوفون خرائب تحصيناتها الضخمة ذات التطور الهائل . ولكن ما بقي من اسوارها القديمة يعتبر شاهدا على علم هندسي عسكري ابدعه مهندسو ذلك الزمان .

وفي جزيرة سردينيا أقامت القبائل التي قدمت اليها في الالف الاخير ق . م ابنية غريبة كالنوراغ التي تعتبر من المنشآت الدفاعية الهامة ، بينما يعتقد البعض بأنها أماكن للعبادة ، ولكن عددها الكبير الذي ينوف عن ستة الاف بناء في هذه الجزيرة ، والاماكن التي تشغلها تدل على أنها ليست سوى ملاجىء وقلاع شديدة المناعة اذا اخذنا بعين الاعتبار الوسائل التي كانت تتوفر في تلك الازمنة . وهذه الابنية عبارة عن ابراج مخروطية الجذوع وتتراوح سماكة جدرانها بين مترين وخمسة امتار ، وهي مبنية من الاحجار الطبيعية ، المرصفة فوق بعضها البعض دون اي ملاط او اية مادة لاصقة . ويبلغ ارتفاع الابراج المائلة في بعض الاحيان حوالي عشرين متراً وخاصة منها تلك الابراج الموجودة شمالي مدينة كاغلياري وهي تشكل نظاما دفاعيا حقيقيا . وفي وسط هذه الابراج يقوم برج هائل تدعمه اربعة ابراج ذات زوايا مغطاة بجدران خارجية تسد احد الوديان .

وفي الجزيرة بقايا قرية ذات بيوت دائرية .

ويبدو ان السكان كانوا يلجأون الى داخل السور عند تعرضهم للخطر ، اما المدافعون المسلحون بالسهام والرماح والسيوف فيتمركزون في الابراج للمقاومة ، وكانوا يستخدمون بعض الالات لقذف الحجارة الضخمة . وعندما اخذ القرطاجيون يستخدمون المتجنيقات لتدمير الجدران ، عمد المدافعون الى زيادة سماكتها ومتانتها ، وكانت هذه المحاولات أول منشآت عسكرية من هذا النوع في حوض البحر الابيض المتوسط .

ولادة المدينــة المحصنــة

اخذت المدينة تتحول تدريجيا عبر العصور الى نوع من القصور الجماعية المحصنة التي تستخدم لحماية السكان من الغزاة . وقد ولدت المدينة في البداية من حاجة المجتمعات لمكان تتم فيه عمليات تبادل المنتجات ، وهكذا اصبحت المدينة مستودعا يجب توفير الحماية له . وكانت جدرانها (اسوارها) تكفي لايواء السكان الذين اعتادوا العيش وزراعة الحقول المحيطة بها . وفي حالات الخطر ، والتهديد بالغزو يتزايد عدد السكان بنسب غير عادية . ولما كانت المدينة ليست معدة في البداية لايواء جماهير عديدة فانها تصبح في معظم الاحيان بؤرة لتفشي الاوبئة القاتلة بسبب تكدس السكان وعدم توفر الشروط الصحية .

وهكذا كانت اثينا فريسة للطاعون في القرن الخامس عندما اندفعت اليها الشعوب الآتيكية [١] باحثة فيها عن الملجأ .

وكان الكثير من المدن القديمة محاطة بالاسوار المحصنة الرائعة ومن هذه المدن « خورساباد » الحالية التي جعلها الاشوريون عاصمة لهم في القرن السادس قبل الميلاد ، فقد كانت محاطة بسور يبلغ طوله ثمانية كيلو مترات ، ويصل ارتفاعه الى ثمانية امتار . وهذا السور مبني من الآجر ، وتتألف قاعدته من الاحجار الضخمة الجافة .

---

(١) الآتيكية : هي الشعوب التي كانت تقطن في هضاب الاتيك وجبالها الجرداء في شبه الجزيرة اليونانية .

أما اسوار مدينة بابل التي بناها نبوخذنصر في القرن السادس قبل الميلاد ، فتشكل تحصينا منيعا ضد المغيرين . وكان من بين هذه الاسوار مجموعة من الجدران المتوالية تحيط بالقصر الملكي ومعابد المدينة الداخلية .

وقد ورد على لسان المؤرخ اليوناني هيرودوت حول تحصينات بابل ما يعني : بأن الابراج المشيدة على مسافات محددة تسمح بالقتال لانها كانت على درجة من الاتساع تساعد عربات القتال التي تجرها اربعة جياد من الصعود الى قمتها والاستدارة في قمتها . ومن الروايات التفصيلية الغريبة التي يرويها هيرودوت : « ان الجزء الغربي من سور بابل كان ينحدر بشكل عمودي على نهر الفرات ويشكل بذلك وقاية ضد فيضان النهر وهجمات العدو » .

وتعتبر مدينة سيراكوز [١] من أجمل التحصينات واكملها . وقد انجز بناؤها في القرن الرابع قبل الميلاد على يد المعماري دينيس القديم لحماية المدينة من القرطاجيين . ويعطينا جدار ديونيسوس وقصر أورييل فكرة واضحة عن اهمية هذه التحصينات ، فالواجهة الامامية محمية بثلاثة خنادق ذات جدران عمودية محفورة في الصخور ، والقلعة ذاتها مبنية على شكل شبه منحرف وتحتوي على خمسة ابراج . أما الجزء الشرقي فليس له

---

(١) سيراكوز : احد موانىء جزيرة صقلية على الشاطىء الشرقي . وكانت مستعمرة تورنثيت أسست عام ٧٣٤ ق . م . ثم اصبحت اول مدينة في الجزيرة وخاصة في عهد الطغاة في القرن الخامس ق . م . وقد فشل الاثينيون باحتلالها (٤١٤ ــ ٤١٣) ق . م . وفي العصر الروماني تحالفت مع قرطاجة ولم تسقط في يد الرومان عام (٢١٣ ــ ٢١٢) ق .م الا بصعوبات هائلة وخسائر فادحة تكبدها الرومان .

شكل نظامي لانه يتطابق مع تموجات الارض . وهناك نظام معقد من المنشآت المختلفة على شكل كماشة لحماية الباب الرئيسي . ويصل بين مختلف الاجزاء الداخلية لهذه التحصينات الواسعة ، أنفاق جوفية مستورة . وتمتد هذه الانفاق الجوفية حتى تصل الى البرج الامامي القائم الى الشمال من مدخل المدينة .

وتجدر الاشارة الى ان أسوار المدن كان لها صفة القداسة عند الاقدميين . اما انشاء مدينة جديدة فيعتبر من الامور الخطيرة جدا ، لان مصير الشعوب التي ستؤدي اليها يتوقف على اختيار الموقع الذي تشاد عليه ، والالهة وحدها هي التي تختار وتقرر تحديد مواقع المدن .

ومن المعروف ان موقع البالاتان ، مهد مدينة روما الخالدة ، اختاره احد كبار الكهنة بعد مراقبته لتحركات الطيور وعندما تم تحديد مكان المدينة بشكل نهائي ، عُين يوم للاحتفال بوضع الحجر الاساسي للمدينة . وفي يوم الاحتفال بدأ الكاهن المؤسس بتطهير نفسه (حسب الطقوس الدينية المعروفة انذاك) ، ثم عمد الى تحديد « مركز المدينة » ثم رسم محيطها .

وقد جرى تحديد محيط مدينة روما بواسطة عربة ذات محراث نحاسي يجرها ثور ابيض ، ويقود هذه العربة الكاهن المؤسس رومولوس الذي سمته الالهة لهذا الغرض .

أما مداخل المدينة الرئيسية فتم تحديدها برفع المحراث عن الارض لمسافة معينة تدل على المكان المخصص للابواب ، وعندما انجز رسم محيط

المدينة بكامله ، اصبح هذا الخط مقدسا ولا يجوز لاحد اجتيازه دون الوقوع في الخطيئة الكبرى التي تستحق عقوبة الموت . ولهذا نجد ان مجرد قيام المدعو ريموس بالقفز فوق خط المحراث المقدس ، كانت عقوبته الموت ، على الرغم من ان ريموس هذا كان شقيق الكاهن المؤسس رومولوس .

وفيما بعد اصبح للجدران التي شيدت فوق خط المحراث صفة القداسة ولا يمكن تجاوزها دون التعرض للعقاب الشديد .

ولما كان اجتياز هذه الجدران محرما على المواطنين ، فمن الطبيعي ان يكون محرما على الاعداء ، ومن واجب السكان الدفاع عنها بالحماس الذي يتناسب مع الايمان بالمدينة وبآلهتها .

ومع اتساع الامبراطوريات تطورت الجدران تطورا هائلا في بعض المناطق ، ولكنها لم تتصف ببعض المزايا التي اتصفت بها الاسوار المغلقة التي تحمي جميع الاتجاهات ولا يمكن الالتفاف حولها .

وقد سبق ان اقيم في بابل جدران متواصلة تتجاوز ابعاد المدينة لكي تتمكن من اغلاق ممرات مقاطعات بكاملها .

وشيد المصريون جدارا دفاعيا بمحاذاة مدينة بيلوز [١] مقابل صحراء سيناء ، لصد غارات البرابرة الساميين على حوض الدلتا : وكان

---

(١) مدينة بيلوز المصرية القديمة تقع بالقرب من مدينة بورسعيد الحالية .

ذلك مقدمة للمنشآت التي اقامها الصينيون والرومان على امتداد الاف الكيلو مترات .

لقد حاولت الممالك المحاربة في الصين احتواء وصد غارات البرابرة وخاصة المغول القادمين من الشمال . فأخذت المدن الصينية تزيد في ابعاد جدران الحماية الا ان ضغط البرابرة المغول لم يتضاءل واستطاعوا شن الغارات على الحدود التي تدافع عنها قوات صينية اقل مرونة وسرعة من رماة الاسهم المغول وفرسانهم البواسل . وتمكن هؤلاء الغزاة من التسلل الى داخل دول النهر الاصفر الصينية . وبعد محاولات غير مجدية قام بها امراء الصين لتنظيم خيالة قادرة على مجابهة الخيالة المغول ، قرروا بناء « سور » عظيم لحماية حوض النهر الاصفر من الشمال واغلاق جميع الطرق الرئيسية التي يستخدمها البرابرة الشماليون عادة لغزو الصين .

وحوالي عام (٢١٠) ق . م تم وصل جميع هذه التحصينات الدفاعية فشكلت جدارا متصلا اطلق عليه اسم « سور الصين العظيم » . ويبلغ طول هذا السور ما يزيد على (٢٥٠٠) كم . ومع ذلك فقد اعتاد الناس على القول بأن هذا السور لم يقدم أية فائدة دفاعية للصين ، ولكنه كان يتحطم دائما تحت الضربات العنيفة التي يوجهها الغزاة القادمين من الشمال .

والواقع ان « سور الصين العظيم » لم يعجز عن القيام بدوره الوقائي الدفاعي الا عندما ضعفت ارادة المقاومة لدى الشعب الصيني . أما قبل ذلك فانه استطاع ان يحول اتجاه المغيرين « المغول » عن غزو الصين الى

الاندفاع جنوبا نحو اوروبا واسيا الصغرى [1] . وبالرغم من ان « الجدار العظيم » انتهى الى الانهيار الا انه لعب دورا لا يجوز لاي مؤرخ موضوعي اهماله .

وفي اوروبا الغربية طرحت مشكلة التحصينات نفسها عندما واجهت الامبراطوريات خطر غزو البرابرة ، وبرز ذلك بوضوح في عهد الامبراطورية الرومانية بالذات . ويؤكد التاريخ ان « الجحافل الرومانية » بسطت قوانين الامبراطورية من الجزر البريطانية (المعروفة ببلاد الضباب) الى صحارى الشمس الساطعة في افريقيا واسيا الصغرى .

والواقع ان التحصينات المتقطعة الاولية ، لم تكن كافية لحماية ما يزيد عن (٩٠٠٠) كم من الحدود الطويلة المعرضة باستمرار لهجمات القبائل البربرية ، فقرر الامبراطور فيسباسيان انشاء حاجز متصل من نقاط المراقبة والتحصينات التي توفر حماية اشد وتشكل عنصرا وقائيا ضد الغزوات المفاجئة .

وطور القيصر تراجان هذه الاستراتيجية الدفاعية الساكنة ليقيم حاجزا فاصلا بين الحضارة الرومانية وبين الاقوام الشمالية البربرية .

---

(١) وهكذا كان من نتيجة بناء سور الصين العظيم تحول الغزو المغولي الى مهاجمة الخلافة العربية الاسلامية ، وتوجيه اخطر ضربة قاتلة للحضارة الاسلامية العربية في بغداد ودمشق على يد هولاكو والتمورلنك في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر . وهذا يدل على شكل ملموس واضح على ترابط الاحداث وتفاعلها في كل بقعة من بقاع الكرة الارضية ومن هنا تأتي اهمية العلوم الاستراتيجية (المعرب) .

وهكذا أنشيء أول جدار دفاعي يزيد طوله على (٥٠٠) كم يستند الى نهر الرين غربا ، مار بسهول الديكومات[1] بين كوبلانس الى راتيسبون ، الى ان يصل مصب نهر الداتوب .

أما السور الروماني المسمى باللتم فقد حاولوا بواسطته الفصل بين عالمين مختلفين بتحصينات على جانبي الخط الواصل بين مصب نهر الرين ومصب نهر الدانوب . وشق الرومان طريقا محيطيا يمتد بمحاذاة هذا الحاجز ويحميه سور من الاوتاد ومدعوم بخندق عميق . واقيمت على طول هذا الطريق مخافر للرقابة والرصد ، وانشئت خلفه الثكنات التي تستخدم لحشد القوات الضرورية لنجدة المخافر والنقاط التي تتعرض للخطر .

وفي الجزر البريطانية ، والى الجنوب من ايكويسا ، شيد الرومان الجدار الذي اطلق عليه اسم « جدار هادريان » في عام ١١٧ ق . م . ويمتد هذا الجدار من خليج سولوي الى مصب نهر التين ، ويبلغ طوله ، حوالي ١١٧ كم ، وتقدر سماكته بثلاثة امتار ، ويتراوح ارتفاعه بين ٥ — الى ٦ امتار ، ويدعمه خندق عميق . وقد اقيم بمحاذاة هذا الجدار بعض المنشآت الدفاعية كما اضيف الى هذا الحاجز بعد فترة من الزمن جدار آخر أقل اهمية في الجهة الشمالية منه .

وقد برهنت هذه الانظمة الدفاعية عن فعاليتها طوال الفترة التي

(١) كوبلانس : مدينة في المانيا الغربية ، وكانت العاصمة القديمة لبروسيا وتقع على نهر الرين والموزيل اما مدينة رايتسزبون فهي مدينة المانية ايضا في منطقة بافاريا وتقع على نهر الدانوب وبين هاتين المدينتين تمتد سهول الديكومات .

كانت فيها الجحافل الرومانية على مستوى عال من الكفاءة القتالية والتصميم على المقاومة . غير ان امتداد هذه الاسوار على شكل اسيجة لم يكن يسمح بالمناورات الكبرى ، كما ان قوات المواقع التي تعبأ عادة من بين السكان المجاورين للخطوط الدفاعية ، لم تكن تملك اطلاقا الصفات القتالية المطلوبة .

وهكذا نجد ان الجدران الرومانية المذكورة لم تعد تقوم بدورها الوقائي المطلوب بعد انخفاض القيمة القتالية للجحافل الرومانية ، غير ان هذه الجدران لاتزال حتى يومنا هذا ترسم بوضوح الحد الفاصل بين اسلوبين للتفكير ، مما يميز شعوب الشمال عن الشعوب التي انطبعت بالحضارة الرومانية [١]

وبعد انهيار الامبراطورية الرومانية ، حاول السكان اللجوء من جديد وراء جدران ، كانت تبنى في اغلب الاحيان على عجل ، وأسوار « ترتجف من الرعب » كما وصفها الكاتب الالماني غوتيه عندما تكلم عن جدران تيبيسا [٢] التي شيدت لمقاومة غزوات اقوام الواندال في القرن الخامس الميلادي .

---

(١) ان هذه الملاحظة شديدة الاهمية حتى في العصر الحالي لان هناك فرقا واضحا بين شعوب اوروبا اللاتينية المطلة على البحر الابيض المتوسط (فرنسا ، اسبانيا ، ايطاليا ، يوغوسلافيا ، اليونان ، الخ ...) وبين شعوب اوروبا التي تقع شمالي الحاجز الروماني المذكور والتي تشمل الشعوب الجرمانية والاسكندنافية والسلافية (المعرب) .

(٢) تيبيسا : مدينة رومانية قديمة تقع في الجمهورية الجزائرية وقد شيدت فوقها مدينة عنابة الحالية .

اما جدران القسطنطينية ، فكان لها خطا أوفى من النجاح فلم تنهار الا بعد ذلك بزمن طويل .

وفي القارة الامريكية ، استخدم شعب الانكا بعض التحصينات التي سميت (بالشيموس) لاغلاق السهل الممتد من المحيط الهادي الى جبال الآند . وكانت هذه الاعمال تشكل خطا متواصلا طويلا يغطي مدينة « ليما » ويحتوي على قلاع مغلقة تشبه القواقع .

وفي عصور الاقطاع ، والعصور الحديثة ، اصبحت التحصينات غير المتصلة ، كالقلاع ، وكانت « المواقع الحصينة » هي الحل الذي وجده السادة الاقطاعيون ودول الامارات ، لحماية اراضيهم ، واستخدامها كنقاط استناد لمناورة جيوشهم .

وابتداء من الحروب النابليونية ، عادت التحصينات الميدانية لتجد الدور الذي لعبته في زمن الجحافل الرومانية ، ولتكمل التحصينات الدائمة . وقد تطورت هذه التحصينات خلال حرب الانفصال (١٨٦١ ــ ١٨٦٥) [1] والحرب الروسية اليابانية (عام ١٩٠٥) . وحروب البلقان بين عام ١٩١٢ الى عام ١٩١٣ وفي هذه الحروب سمحت خطوط الخنادق للمقاتلين بالاحتماء من نيران الاسلحة ذات الفعالية الشديدة .

---

(١) حرب الانفصال : هي الحرب التي نشبت عام ١٨٦١ في الولايات المتحدة الامريكية ، بسبب الغاء الرق ، ودامت حتى عام ١٨٦٥ . وكان انتخاب ابراهام لنكولن اشارة لبدء هذه الحرب عام ١٨٦٠ . وقد انتصرت فيها ولايات الشمال على الولايات الجنوبية التي كانت تتمسك بالرق وتطلب الانفصال ، بينما كان الشماليون يؤيدون الغاء الرق ويطالبون بالاتحاد .

وفي الحرب العالمية الاولى ، حصل نوع من السكون الطويل ، على جميع الجبهات ، واستمر طيلة شتاء عام ١٩١٤ ـــ١٩١٥ . وكانت خنادق الاطراف المتنازعة تمتد بالتوازي بين بحر الشمال حتى الحدود السويسرية ، وتغطي مؤخرات الجيوش ، والممرات الهامة في النقاط الحيوية على كلا الجانبين . وتشكل هذه الخنادق قاعدة انطلاق هجومية محلية .

وبين الحربين العالميتين كان خط ماجينو وخط سيغفريد يؤمنان استمرارية وتشابكا في نيران الاسلحة المختلفة . وفيما بعد شيد الالمان خلال الحرب الثانية على طول شواطىء اوروبا حصونا منيعة مكلفة بنفس المهمة التي اسندت لجدارها دريان الروماني والحصون المقوقعة في القارة الامريكية . ويشير الاسم الذي اطلق على سلسلة هذه الحصون « جدار الاطلسي » الى الغاية المطلوبة منه .

غير ان هذه التحصينات المشهورة ، لم تشكل سدا فعالا تجاه قوة ومرونة القوات المحمولة جوا ، شأنها في ذلك كشأن جدار الصين العظيم .. وسلسلة الحصون المقوقعة ، وخط ماجينو وخط سيغفريد ... ألخ [١] .

ويفكر المختصون في هذه الايام باقامة سدود من الصواريخ المضادة للصواريخ والمخصصة لحماية الامبراطوريات الحالية المتخاصمة في

---

(١) لعل من الجدير بالذكر ان نضيف الى هذه الخطوط ، خط بارليف ، على قنال السويس وخط مرتفعات الجولان الذي يمتد بين برج مراقبة جبل الشيخ ووادي الحمة (المعرب) .

عصرنا [١] من خطر القذائف النووية . وهذه السدود عبارة عن خطوط دفاعية مهمتها منع تسرب القذائف الصاروخية الحديثة الى فضاء الدول التي تدافع عنها .

فهل ستلاقي هذه السدود الحديثة نفس المصير الذي لاقته الخطوط الدفاعية التي اتينا على ذكرها منذ الامبراطورية الرومانية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية [٢] .

من القصور المحصنة الى المواقع المحصنة

حافظت معظم المدن في العصر الوسيط على اسوارها بعناية شديدة ، وظهر الى جانب ذلك فن عمارة عسكري ، أساسه « القلعة » التي اصبحت تقام على مفارق الطرق وبالقرب من القرى التي تحميها .

وتبنى « القلعة » بشكل عام على مرتفع طبيعي يصعب الوصول اليه ، كما تقام احيانا فوق تبة اصطناعية . ويرتفع في وسط القلعة عادة ، البرج الرئيسي . وهذا البرج دفاعي بحت ، يحاط بأبنية ذات جدران سميكة تشكل بمجموعها سورا متصلا . ويحيط بالقلعة عادة خندق عميق

(١) ويقصد المؤلفون بهذه الامبراطوريات ، كلا من الولايات المتحدة الامريكية ، والاتحاد السوفياتي (المعرب) .

(٢) بل وحتى حرب تشرين التحريرية التي شهدت سقوط خط بارليف وخط الجولان (المعرب) .

وعريض يملأ في اغلب الاحيان بالمياه لمنع وصول المهاجمين للجدران . اما مدخل القلعة الرئيسي فيحمى بواسطة جسر متحرك يرفع في حالة الخطر ويسمح بعزل القصر تماما ، وبذلك تتمكن حامية القلغة من مقاومة الحصار لمدة طويلة دون ان يتمكن المهاجمون من الوصول الى جدرانها او الدخول اليها .

وتضم القلعة بالاضافة الى القوات المدافعة والاحتياط ، جميع السكان الذين يلجأون اليها من القرى المجاورة للاحتماء من الاعداء .

ويعتبر القصر المحصن منيعا ضد وسائل الحصار التي كانت تستخدم في ذلك الزمان . لذلك كانت الوسيلة الفعالة لاسقاطه والاستيلاء عليه هي : المجاعة او الحيلة او الخيانة .

وكان قصر غايارد[1] أحد أروع الاعمال الفنية في عصر الاقطاع ، وهو من القصور التي لايمكن الاستيلاء عليها ، ولم يسقط إلا في عام ١٢٠٤ م بعد حصار استمر ثمانية اشهر .

وفي مدينة فوجير يمكن ملاحظة حالة غريبة حيث تتداخل القلعة مع اسوار المدينة لكي تستطيع حماية النقطة الاكثر حساسية فيها .

وفي سيغوفي تتداخل الكاتدرائية المحصنة نفسها مع الاسوار التي تدعمها ..

---

(١) قصر غايارد : قلعة مهدمة تسيطر على نهر السين في منطقة اندليس . شيد في عام ١١٩٧م من قبل ريشارد قلب الاسد واستولى عليه الملك فيليب اوغست عام ١٢٠٤ م وهدمه الملك هنري الرابع .

وتجدر الاشارة الى ان اوروبا بكاملها مغطاة بالقصور المحصنة . وقد اقام الصليبيون بعض القلاع الهامة في الشرق وتعتبر « قلعة الحصن » الشهيرة (في سورية) شاهدا رائعا على ذلك .

وتلعب القصور المحصنة دورا من الدرجة الاولى في تطور الفن العسكري الدفاعي ، غير ان تطور آلات الحصار افقد هذه القصور جزءاً كبيرا من تفوقها . ومع ظهور اسلحة المدفعية تم القضاء نهائيا على القصور المحصنة ، وانتصرت السلطة الملكية على سلطات النبلاء الاقطاعيين وفرضت عليهم الخضوع للادارة المركزية .

أما التحصينات العسكرية فقد بدأت تتكيف تدريجيا تبعا لتطور اسلحة الهجوم . فأخذت الجدران بالانخفاض لكيلا تكون هدفا بارزا للقذائف ، ودفنت معظم التحصينات الرئيسية في باطن الارض .

وبعد ظهور المهندسين العسكريين المشاهير من امثال فوبان[1] اكتسب الفن العسكري ابعادا جديدة ، واصبح كل موقع محصن اثرا فنيا دفاعيا بحد ذاته واندمجت انظمة المواقع الدفاعية المحصنة في اطار المخططات الدفاعية للاقاليم والمناطق ، واصبحت بالتالي جزءا لا يتجزأ من خطط مناورات الجيوش .

---

(١) فوبان : مارشال فرنسي (١٦٣٣ ــ ١٧٠٧) م عين مفتشا عاما للتحصينات عام ١٦٧٨ م ، واشرف بنفسه على تحصين عدد من المدن الفرنسية ، ونال بذلك شهرة لم يسبقها اليه احد في هذا الميدان . ولكنه سرعان ما فقد حظوته لدى الملك على أثر اصداره كتابا انتقد فيه نظام الضرائب السائد انذاك .

وقد انجز فوبان تحصين جميع مواقع الحدود التي تغطي المملكة بكاملها ، واعطى المخطط المنشآت الدفاعية صفة فنية رفيعة . واصبحت المدن المحصنة تبدو للناظر من الجو على ابهى الصور .

ومنذ القرن السادس عشر اخذ المهندسون العسكريون الايطاليون يتبارون في انشاء المواقع والمدن المحصنة ، جاعلين منها آثار فنية خالدة ، كما هي الحالة بالنسبة لمدينة بالمانوفا .

وفي القرن التاسع عشر تكيفت التحصينات لكي تقاوم رمايات المدفعية ، وفصلت بعض الحصون الضخمة عن المجموع ، ولكنها بقيت قادرة على تبادل الدعم الناري مع المواقع المجاورة ، وهكذا ظهر للوجود « النطاق الدفاعي المتقطع » ، كما هي الحال في دوسيريه دو ريفيير التي تغطي حدود فرنسا الشرقية .

وفيما بعد اصبحت التحصينات اقل بروزا فوق سطح الارض ساعية للاختفاء ضمن المنظر الطبيعي للارض .

وتعتبر المنشآت الدفاعية الحالية الرد الطبيعي على القصور الاقطاعية المحصنة ، وتحتوي هذه المنشآت على كل ما هو ضروري للصمود اطول مدة ممكنة ، حتى في حالة العزلة والاحتلال .

وبدلا من ان ترتفع بغطرسة فوق الهضاب والمرتفعات ــ كما كانت الحال في العصور الوسطى ــ فقد اخذت المنشآت الدفاعية تندمل في باطن الارض لتجنب الانظار والنيران المعادية .

وتقوم تحصينات دوومونت على ضفاف نهر الموز مغطية موقع فيردان المحصن الذي لم يسقط في عام ١٩١٦ م الا بسبب المفاجأة . ويعتبر هذا الموقع المحصن النموذج المثالي للمنشآت الدفاعيةُ الحديثة .

أشهر حصار في التاريخ

كان مصير المدن ، التي انغلقت على نفسها داخل الاسوار ، دائما السقوط والاستسلام عاجلا ام آجلا ، مهما بلغت حماسة وبطولات المدافعين عنها ، خاصة عندما يكون الاعداء المهاجمين مصممين على القتال مهما كانت التكاليف .

ولكن بلوغ هذا الهذف يتطلب استخدام عنصر الزمن الى اقصى الحدود ، وذلك للقضاء على آخر أمل في متابعة المقاومة لدى المدافعين الاشداء .

وحصار طروادة ، من ابرز الامثلة التاريخية على هذا النوع من الحروب ، فقد استمر عشرة اعوام طوال ، ومع ذلك كان لا بد من استخدام ، ذكاء اوليس الخارق ، وحيله الشيطانية لادخال المقاتلين الى المدينة المحاصرة مختبئين في جوف حصان خشبي ضخم [١] (هو حصان طروادة المشهور) .

---

(١) اصبحت اسطورة « حصان طروادة » مضربا للامثال في جميع الاجيال للدلالة على براعة الحيل السياسية والعسكرية والاستراتيجية (المعرب) .

وبعد هذا الحدث بزمن ، لم يستطع الحصار من اسقاط مدينة سيينا الايطالية ، الا بعد فرض المجاعة الرهيبة على سكانها والمدافعين عنها ، مما أجبر القائد مونلوك[1] على الاستسلام لكيلا يطيل في بؤس وعذاب المحاصرين .

وقد بقيت آلات الحصار القديمة تفتقر الى القوة الكافية لتدمير جدران الحصون والقلاع الى ان ظهرت المدفعية في القرن السادس عشر ، فأصبحت الاداة الفعالة الرهيبة لتدمير الحصون والقلاع والتمهيد لسقوطها .

وتجدر الاشارة ، في هذا المجال ، الى ان الاشوريين كانوا يملكون تقنيات رفيعة ومعدة اعدادا ممتازا لمهاجمة المدن ومحاصرتها ، منذ عدة قرون قبل الميلاد ، فكانوا يحتمون بالدروع ويهاجمون اسوار المدن (التي كانت تشاد انذاك بالآجر) ؟ فيفتحون الثغرات بالحفر تحت الاسوار .

أما الاسكندر المكدوني ، فقد قضى ماينوف عن سبعة اشهر في حصار مدينة صور السورية الى ان تمكن من احتلالها عام ٣٢٢ ق . م وكانت مدينة صور مبنية فوق جزيرة غير بعيدة عن الشاطىء ، فعمد الاسكندر الى اقامة جسر عظيم لوصلها بالبر واستخدمها للانقضاض عليها . ودفعت هذه المدينة الباسلة ثمنا باهظا لمقاومتها البطولية ، فقد ذبح جميع المدافعين عنها وبيعت نساؤها واطفالها كعبيد .

---

(١) مونلوك : مارشال فرنسي (١٥٠٢ ــ ١٥٧٧) دافع عن مدينة سينيا الايطالية عام ١٥٥٥ م واضطر للاستسلام بسبب المجاعة الرهيبة التي عاناها السكان المحاصرين .

يعتبر حصار مدينة « قرطاجة » الفينيقية من الاحداث التاريخية التي غيرت مجرى التاريخ . فبعد ثلاثة اعوام من حصار الرومان لهذه المدينة العظيمة (بين عام ١٤٩ وعام ١٤٦) قبل الميلاد ، عمدوا الى اغلاق مداخل مرافىء المدينة وذلك ببناء مكسر صخري في وسط البحر [١] . اما السفن التي كانت تحاول الخروج للبحث عن التموين فيتم اغراقها . وكانت الخطة تقوم على خنق المدينة لاجبارها على الاستسلام . ومع ذلك لم تذعن مدينة قرطاجة الا بعد انقضاض جحافل الرومان النهائي عليها ، وجرت في شوارعها اعنف المعارك ، وقام المهاجمون بعد ذلك باشعال النيران في المدينة فسقطت قلعتها الشهيرة بيرسا تحت ضغط الهجمات المتكررة ، وأبيد معظم سكانها ، أما من بقي منهم على قيد الحياة فقد اخذوا كعبيد . واختفت حضارة قرطاجة تحت انقاض المدينة المغلوبة .

ويعتبر حصار مدينة اليزيا الغولية ، عام (٥٢) ق . م من قبل القيصر سيزار ، نموذجا فريدا من نوعه ، فقد عمد الجيش الروماني المهاجم الى بناء حصون خارج المدينة المحاصرة للاحتماء فيها . واعتصم داخل هذه الحصون وكدس الحبوب والاعلاف التي تكفي لمؤونة قواته لمدة ثلاثين يوما . وهكذا تم عزل قوات « الغول ــ » المحاصرة في أليزيا ، عزلا تاما عن العالم الخارجي . وكانت هذه المدينة قائمة على قمة هضبة مرتفعة

(١) قام ريشسلو بنفس هذا العمل اثناء حصار مدينة لاروشيل بين عام ١٦٢٧ و ١٦٢٨ للاستيلاء عليها .

وتحميها الاسوار من جميع الجهات . ولم يكن لدى القيصر اي أمل في اسقاطها بسبب عجز آلات الحصار عن تدمير هذه الاسوار ، لذلك قرر اجبار قائد حامية أليزيا فيرسينجيتوريكس على الاستسلام بتجويع جيشه ، الذي لم يكن يجد في المدينة مكانا ملائما يلجأ اليه فاحتمى بخندق بسيط مدعوم بجدار بدائي .

عمد القيصر بعد ذلك باحاطة مدينة الغولواز بتحصينات بدائية مؤلفة من الخنادق والاسوار والاوتاد . والابراج ووضع خلفها حاميات قوية . وقبل اكتمال الحصار حاول القائد الغولي ارسال فرسان لطلب النجدة من القبائل الغولية . ولكن هذه النجدات لم تصله ابدا . عندها قرر التخلص من الافواه التي لا فائدة منها بالدفاع (الشيوخ والنساء والاطفال) فأخذهم القيصر كعبيد . ولم تقترن المعارك التي خاضها الغوليون بأية نتيجة ايجابية بل تطورت في النهاية لصالح القيصر . واصبح استسلام فيرسينجيتوريكس (قائد الغول) حتميا . وانتهى الحصار بمشاهد العنف والوحشية المعتادة . وخضع الشعب الغولي لروما . واقتيد القائد الغولي اسيرا الى روما ليكمل زينات مراسم احتفالات انتصار القيصر ، ثم نفذ فيه الاعدام داخل سجن ماميرتين في عام (٤٦)ق . م وعلى اثر هذه المعركة زالت حضارة الغول وحلت محلها الحضارة الرومانية .

ويمكن اعتبار هذه العملية نموذجاً مثاليا لحروب الحصار التي تتألف عادة من المراحل التالية :

الحصار ، فاخماد جذوة المقاومة تدريجيا ، والاعداد للعملية

النهائية ، والانقضاض على المدينة المحاصرة التي تعمها الفوضى والمجاعة ، واخيرا استخدام كل انواع العنف ضد العدو المهزوم .

وبعد قرون عديدة وقع حصار آخر من نوع جديد كرس نهاية الامبراطورية الرومانية في الشرق ، وبهذا الانتقال من الحضارة الرومانية الى حضارة اخرى .. قامت بهذا الحصار القوات التركية وانتهى بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م .

كانت مدينة القسطنطينية محاطة بأسوار يزيد طولها على ثلاثين كيلو مترا ، ومن بين هذه الاسوار جدار تيودوس الذي يمتد من بحر مرمرة الى القرن الذهبي وقد ظل هذا الجدار يحمي المدينة طوال عشرة قرون ، باستثناء غزو الصليبيين المفاجىء عام ١٢٠٤ . وكانت الاسوار والخنادق والجدران تتوالى في العمق على عدة خطوط متتالية ، تضم فيما بينها مواقع للاسلحة . وفي عام ١٤٥٣ ، اصبحت حامية القسطنطينية قليلة العدد وضعيفة المعنويات ، فلم تكن قادرة على الصمود الى النهاية امام هجمات جيوش السلطان محمد الثاني .

بدأت عمليات السلطان التركي باقامة قلعة على الشاطىء الاوروبي للبوسفور تكمل القلعة الموجودة على الشاطىء الاسيوي وذلك لمنع مرور السفن القادمة من البحر الاسود ، وكان بحوزة السلطان عددا من مدافع الحصار الضخمة ، التي استطاعت احداث اضرار هامة في اسوار المدينة .

وبالرغم من هذه الاستعدادات. فان الهجوم الاول القادم من البر ، باء بالفشل . وبعد ذلك حاول الاسطول التركي الاستيلاء على القرن الذهبي ولكن دون جدوى . عندها قام السلطان بنقل سبعين سفينة عن طريق البر وعبر بقواته شبه جزيرة بيرا ، وتكللت هذه العملية البارعة بالنجاح بعد جهود شاقة وخيالية . ونتيجة هذه العملية توفرت الشروط الضرورية للقيام بالهجوم الحاسم .

بدأت المدفعية التركية بفتح الثغرات في الاسوار ، ولم يتمكن المدافعون سدها ، كما لم يساعدهم عددهم الضئيل على الدفاع عن جميع النقاط المهدومة .

وفي ٢٩ ايار ١٤٥٣ م بدأ الهجوم التركي العام الذي تكلل بالنصر الحاسم . وهكذا ولاول مرة في التاريخ برهنت المدفعية على انها اداة حربية حاسمة ، وفتحت بذلك مرحلة جديدة احتدم فيها « الصراع الابدي بين المدفع والدرع » . ولكن الحدث التاريخي الاكثر اهمية هو : زوال الحضارة الرومانية الشرقية وحلول الحضارة التركية محلها . أو بالاحرى الحضارة الاسلامية التي انغرست بصلابة خلال عدة قرون في اوروبا .

وفي العصر الحديث سجل حصار لينغراد الطويل من قبل الجيوش الهتلرية (من ٢ ايلول ١٩٤١ لغاية ١٢ كانون الثاني ١٩٤٣) انتصار القوات السوفياتية المدافعة . وكانت الوسائل التي استخدمها المهاجمون من احدث الوسائل التي عرفت في ذلك الوقت ، ومن بينها المدفعية الضخمة البعيدة المدى ، والقوى الجوية الحديثة ، مما يساعد على اطالة الاعمال

الهجومية ، غير ان ارادة الصمود التي لا تتزعزع لدى المدافعين ، استطاعت الوقوف في وجه الجيش الالماني المهاجم ، وقامت بأعمال تشبه المعجزات . وقد اشترك جميع سكان مدينة لينينغراد في بناء المنشآت الدفاعية ، التي تذكرنا بتلك الاعمال التي نفذها القيصر حول مدينة اليزيا الغولية — كما ذكرنا سابقا — ومن بين هذه الاعمال الخنادق ، والاوتاد وغير ذلك .

وبالرغم من التضحيات الهائلة التي كان يتطلبها الموقف ، الا ان معنويات المحاصرين (المدافعين) لم تهن ولم تضعف وبقيت هجمات الجيش الالماني المتتابعة العنيفة دون جدوى . وكان النصر النهائي الى جانب المدافعين حيث استطاعت جيوش الميدان فك الحصار .

واذا دققنا النظر في حالة اخرى وقعت خلال الحرب العالمية الثانية نفسها ، هي الدفاع عما اطلق عليه الالمان اسم « قلعة اوروبا » ، لوجدنا انه لا بد من الاعتراف بأن شروط الحصار تخضع دائما لنفس القواعد العامة الآنفة الذكر : محاصرة المدافعين ، الاعداد الهائل وتحضير وسائل الهجوم ، واخيرا الانقضاض النهائي .

ومما لا شك فيه ان نتيجة الحصار ستكون ايجابية عندما يفقد المدافعون كل امل بتلقي الدعم الفعال من الخارج . وفي مثل هذه الحالة يتضاءل التصميم على المقاومة ويصل ذلك الى حد الاستسلام .

وفي اغلب الاحيان يرافق سقوط المناطق او المدن المحاصرة ، اختفاء

الحضارة التي يراد الدفاع عنها ، كما حدث ذلك بالفعل عبر التاريخ بالنسبة للغولوا وبيزنطة والمانيا الهتلرية .

وفي عام ١٩٤٥ ، حول التطور الذي حملته الذرة العلاقات بين الهجوم والدفاع تحولا جذريا ، تناول التحصينات والحصار . فلم يعد للقلاع تلك المزايا التي تتمتع بها الصواريخ ، اللهم الا اذا كانت مطمورة على اعماق سحيقة في باطن الارض ، ذلك انه اصبح بالامكان ازالة هذه التحصينات بقنبلة ذرية واحدة ، كما ان بمقدور هذه القنبلة نفسها فتح المواقع المحصنة امام المهاجمين .

والخلاصة ان التحصينات لم تعد ابدا اسوارا تحمي الحضارات .

الفصل الثاني عشر

الحضـــارات والبحـــار

تحتل البحار والمحيطات الشاسعة ، التي تشغل ثلاثة ارباع مساحة الكرة الارضية ، تحتل مكانا عظيما جدا في حياة الشعوب . وقد كان لهذه البحار نفوذا هائلا على تطور الصراع بين الحضارات شأنها في ذلك كشأن الاراضي اليابسة .

وكان البحر الابيض المتوسط مهدا لاهم الحضارات القديمة .. كما كانت بحار اليابان والعديد من خلجان المحيط الهادي مهدا للحضارات الاسيوية . وحول المحيط الاطلسي تطورت الحضارة الاوروبية التي استطاعت في القرون الاخيرة بسط نفوذها حتى شواطىء المحيط الهادي .

من ملاحة السواحل الى الملاحة فوق البحار العالية

كان الانسان الذي يعيش على شواطىء البحار منذ اقدم العصور يقوم بالرحلات فوق الماء . وقد اضطره الخوف من المغامرة في عرض البحار الى عالم مجهول ، اضطره ذلك في البداية الى عدم الابتعاد كثيرا عن

الشواطىء ، خاصة وانه كان يفتقر في هذه المرحلة الى الادوات التي تساعده على معرفة الاتجاهات الاربع .

ولكن بعض الشعوب الجسورة لم تتردد بالاقدام على القيام برحلات طويلة فوق البحار ، دون ان تعرف الجهة او المكان الذي ستقذفها الامواج والرياح اليه . وهكذا اتجهت شعوب شمالي اوروبا الى القارة الامريكية كما اتجهت القبائل الاسيوية الى خلجان المحيط الهادي [1] .

ويرجع اصل الملاحة الى الازمنة المغرقة في القدم ، ولا نعلم فيما اذا كان « الزورق الاول » عبارة عن « طوف » بدائي خشن ام انه كان قطعة من الخشب الخفيف او جذعا لشجرة .. ونكاد نجهل كل شيء تقريبا حول السفن التي استخدمها الانسان في عصور ما قبل التاريخ .

وتظهر لنا بعض الرسوم التي ترجع الى عصور ما قبل التاريخ ، بأن الانسان كان يعرف التنقل فوق الانهار التي تؤدي الى البحر الابيض المتوسط . ومما لا شك فيه انه كان يقوم ببعض المغامرات فوق مياه هذا البحر ، بل لا بد وان تكون قد وقعت هجرات بشرية كبيرة فقدتها الذاكرة ولم تشأ المصادفات حتى الآن تأكيدها او الكشف عنها .

وقبل ما يزيد عن (٣٠٠٠) عام قبل الميلاد استخدمت السفن الشراعية في مصر . وكان الانسان انذاك قادرا على استخدام قوى

---

(١) في بعض فصول هذا الكتاب اشارة الى ان بعض شعوب اسيا اتجهت الى امريكا الجنوبية وقد برهن على ذلك بعض العلماء المعاصرين رحلة البحار بيشوب (المعرب) .

الطبيعة ، وكان الهواء المصدر الوحيد للطاقة في مجال الملاحة البحرية الى جانب قوة الانسان العضلية التي تستخدم المجداف . وبقي الامر على هذه الحال حتى ظهور « قوة البخار » في منتصف القرن التاسع عشر . ومع ذلك لم يختف الشراع حتى هذه الايام ، حيث لايزال يستخدم بشكل خاص في المجال الرياضي والترويح عن النفس .

وليس من المستبعد ان تؤدي ازمة الطاقة التي اخذت بالاشتداد في السنوات الاخيرة ، الى فتح مجال اقتصادي للشراع في المستقبل [١] .

ويمكن التأكيد بأن العنصر السائل شاهد البشر وهم يتحاربون ويتصارعون فوق لججه . وقد عثر في قبور المصريين على مشاهد لمعركة بين سفن مصنوعة من « البابيروس » وسفن شراعية قادمة من بلاد الشمال . وهناك مشهد مماثل محفور على قبضة سكين من العاج اكتشفت بين البحر الاحمر ونهر النيل . ويؤكد هذا المشهد ان المياه النهرية والبحرية استخدمت منذ اقدم العصور في اغراض الحروب .

ويمكن تكوين فكرة دقيقة عما كانت عليه الملاحة البحرية في بدايتها ، وذلك بملاحظة السكان الاصليين في جنوب المحيط الهادي ، اذ لا يزال هؤلاء السكان يطوفون بزوارق بدائية مصنوعة من جذوع الاشجار الضخمة ، وقد انحدر الملاحون الشجعان من اولئك الذين كانوا يجوبون

---

(١) من المعروف ان اليابان انزلت في منتصف عام ١٩٨٠ الى البحر باخرة ضخمة تسير بواسطة اشرعة معدنية هائلة يمكن استخدامها عندما تسمح الرياح بذلك وهذا يعني ان للشراع مستقبل اكيد (المعرب) .

المساحات الشاسعة الحالية التي تفصل الجزر عن اليابسة . ولم يختلف شكل زوارق جذوع الشجر طوال الاف السنين . وكان الى جانب ذلك زوارق مزدوجة من هذا النوع ، وزوارق ذات رقاص ، وكان بعض هذه الزوارق كبير الحجم يمكنها نقل ما يزيد على مائتي شخص .

وقد ساعدت هذه الزوارق الهزيلة القبائل الاندونيسية على الهجرة نتيجة لطردها من قبل غزاة مجهولين قادمين من الاراضي القريبة من القارة الاسيوية . ويبدو ان هذه القبائل ، تنقلت بحرا من جزيرة الى اخرى ، وكانت هي الاصل الذي انحدرت منه الشعوب البولينيزية .

وهناك نظريات اخرى مطروحة الآن ، نعرف منها نظرية عالم الاجناس النرويجي ثور هايدرداهل .

لقد دهش هذا العالم من الشبه العظيم بين التماثيل الغريبة الموجودة في جزيرة باك [1] ، والتماثيل الاخرى التي توجد فوق اراضي امريكا الجنوبية .

ويعتقد هذا العالم ان شعوب المحيط الهادي استطاعت الانتقال من القارة الامريكية مستخدمة التيارات البحرية التي تحمل « الاطواف » او الزوارق من الشرق الى الغرب . ولكي يبرهن على صحة وجهة نظره هذه ، صنع ثور هايدرداهل طوفا من خشب البالزا وقام برحلة جريئة بين شواطىء امريكا الجنوبية وجزيرة باك .

---

(١) جزيرة باك : احدى جزر المحيط الهادي غربي الشيلي وتحتوي على تماثيل حجرية ضخمة تنسب للشعوب البولينيزية .

غير ان نجاح هذا العالم في رحلته لم يكن كافيا لاقناع علماء الاجناس بوجهة نظره .

وهناك بحار مغامر آخر يدعى ايريك بيشوب استطاع اجتياز المحيط الهادي بالاتجاه المعاكس (أي من الغرب الى الشرق) .

وتدل بعض المؤشرات الى أن الانسان كان يجوب بين ارجاء هذا المحيط في جميع الاتجاهات ، وكان بعض هؤلاء المغامرين ينتمون الى العصر الحجري .

أما الاتصالات الاولى بين الحضارة الاوروبية المعاصرة وبين جزر المحيط الهادي فكانت اثناء الرحلات المحفوفة بالمخاطر التي قام بها كل من كوك [١] وبوغانفيل [٢] .

والواقع ان بحوث العالم ثور هايدرداهل وغيره من علماء الاجناس الذين عاشوا على جزيرة باك ، لم تكشف النقاب الذي يغطي حتى الآن اسرار حضارة الجزيرة العجيبة . فمن هم هؤلاء البشر الذين نحتوا هذه التماثيل العملاقة العجيبة ؟ ومن أين جاؤوا ؟ وأين ذهبوا ؟ وكيف ومتى نشأت هذه الحضارة ؟ ثم كيف اختفت ؟ والحقيقة انه ما من أثر يمكنه

---

(١) كوك جيمس : بحار انكليزي (١٧٢٨ — ١٧٧٩) اكتشف جزر السوسيتية وجزيرة نيوزيلاندا . وفي رحلة اخرى وصل الى القطب الجنوبي ، في رحلة ثالثة اكتشف جزر هاواي وهناك اغتاله السكان المحليون .

(٢) بوغانفيل لونسي انطوان : بحار فرنسي ولد في باريس عام ١٧٢٩ ، وقام برحلة بحرية طاف فيها حول العالم بين ١٧٦٦ — ١٧٦٩ م . وتوفي عام ١٨١١ م واشتهر بمذكراته .

الاجابة على هذه الاسئلة حتى الآن او يفسر وجود هذه الآثار الغريبة . أما سكان الجزيرة الحاليون فغير قادرين على تقديم اي جواب على هذه الاسئلة .

ومما يجدر ذكره ايضا ان الظروف التي تم خلالها استيطان الجزر اليابانية لاتزال غامضة وغير معروفة بشكل جيد حتى الآن . ويعتقد ان بعض القبائل البدائية التي كانت تستوطن الشواطىء السيبيرية ، غادرت هذه المناطق في عصور ما قبل التاريخ وركبت البحر الى ان وصلت اليابان ، كما قدم الى هذه الجذر قبائل اخرى من ماليزيا واندونيسيا . غير انه ليس هناك اية معلومات دقيقة وموثوقة عن الزمن الذي تمت فيه هذه الهجرات ، او حول الظروف والشكل الذي حدثت بموجبه .

ومن المعروف جيدا ما حدث في جزيرة ماداغسكر ، فالقبائل الاصلية جاءت من جنوب اسيا ، وقد حدث انتقالها خلال فترة القرون الاولى بعد الميلاد . وبعد هذا التاريخ قدم الجزيرة عناصر هندية وعربية لتكمل النواة الاولية للسكان المحليين ، ثم انضم لهؤلاء عبيد من القارة الافريقية . وهكذا اصبح السكان الحاليون يمثلون تنوعا كبيرا من حيث اصولهم .

ومنذ فجر الزمان حتى عهد قريب ، كانت الطرق البحرية تسلكها تيارات سكانية عظيمة باحثة عن الأراضي الملائمة للزراعة والتنمية . فما هي الاسباب التي دعت لحدوث مثل هذه الهجرات ؟ .

وللجواب على هذا السؤال قدم بعض العلماء الضغوط الديمغرافية (أو تزايد السكان) كمبرر لهذه الهجرات معللين ذلك بأن ضيق الاراضي الزراعية أو جدبها يضطر السكان الفائضين للبحث عن اراض خصبة فارغة ، كما يضطر بعض السكان احيانا للرحيل عن اراضيهم الاصلية بسبب هجمات الغزاة الجياع ، كما حدث عبر العصور القديمة .

بقي علينا ان نؤكد ان الانسان الذي كان يندفع بجرأة عظيمة لامتطاء البحار غير عابىء بما يلاقيه من اهوال ، لا بد وانه استطاع الحصول منذ زمن مبكر جدا على المعارف والتقنيات الاولية الضرورية التي تمكنه من القيام برحلات واسعة عبر البحار . وبالرغم من انه لم يكن يملك في بداية الامر سوى وسائل هزيلة الا انه استطاع قهر البحر بجرأته وميله الفطري للمغامرة والتغلب على المصاعب . وبفضل هذه الطاقات التي اختص بها الانسان اكتشفت الطرق البحرية العظيمة التي لايزال البشر يستخدمونها حتى يومنا هذا ، ولم تقلل كل المنجزات الحديثة من اهميتها .

في البحـــر الابيض المتوســـط

ان الهجرات التي شهدها حوض البحر الابيض المتوسط ، وخاصة منها تلك التي حدثت في جزئه الشرقي ، معروفة بشكل جيد .

في الالف الثانية قبل الميلاد زحف بعض الغزاة البرابرة من اواسط وشمالي اوروبا ، باتجاه الجنوب ووصلوا الى شبه الجزيرة اليونانية وسيطروا على

معظم جزر بحر ايجة ، ثم اندفعوا بعد ذلك نحو البحر فاصطدموا مع الحضارة الكريتية [1] التي كانت في أوج ازدهارها .

والواقع ان جزيرة كريت كانت قبل ذلك مع القارة الاوروبية من جهة ومع القارة الافريقية (مصر) والقارة الاسيوية (خاصة اسيا الصغرى والشرق الادنى) . وكان لا بد من مرور عدة قرون لكي يحل الآخيون [2] محل الحضارة المنيويين [3] . فحوالي عام ١٥٠٠ ق . م زالت الحضارة القديمة على الرغم من بعض الصحوات الموفقة التي مرت عليها ، وكان تدمير مدينة كنوسوس [4] عام ١٤٠٠ ق . م اشارة اكيدة لنهاية الحضارة الكريتية .

أما بعد اقامة المراكز التجارية الاغريقية ، وخاصة المراكز التجارية الفينيقية على شواطىء البحر المتوسط ، فقد ازدهر واتسع التبادل عن طريق البحر فشمل الهجرات البشرية وتبادل السلع والبضائع والثقافات . وفي هذه المرحلة استقر الاغريق في جنوبي شبه الجزيرة الايطالية وفي جزيرة صقلية وجنوبي بلاد الغول (أي فرنسا) . وقدم الفينيقيون الى افريقيا الشمالية ، وأنشأوا مدينتي سيراكوز [5] وقرطاجة ، واحتلت هاتان

---

(١) الحضارة الكريتية : نسبة الى جزيرة كريت .

(٢) الآخيون : هم اقدم اسرة عنصرية اغريقية ، قدموا من منطقة تيساليا واحتلوا شبه الجزيرة اليونانية في مطلع الالف الثانية ق . م . وأنشأوا حضارة رائعة وكانت عاصمتهم ميسين .

(٣) الحضارة المنيويين : هي الحضارة التي ازدهرت في جزيرة كريت خاصة في عهد ملك الجزيرة الاسطوري المسمى مينوس حوالي الفترة الواقعة بين ٢٦٠٠ و ٢٢٠٠ ق . م .

(٤) كنوسوس : هي عاصمة كريت القديمة التي وصلت اوج مجدها في الالف الثانية ق . م .

(٥) سيراكوز : مدينة في جزيرة صقلية .

المدينتان مركزا ممتازا في التبادل الذي تميزت به الحضارات القائمة انذاك . وخلفت الحضارة اليونانية في جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية أبنية فخمة يمكننا ان نمتع بها انظارنا حتى في هذه الايام الحاضرة .

ولم تبق مصر غريبة عن التحركات البحرية . وتصف رحلة هانون (١) بعض البلاد البعيدة التي لم يتم تحديدها بشكل اكيد .

ومع الاسف ان عمليات القرصنة رافقت ازدهار الملاحة في البحر المتوسط منذ اقدم العصور ، بل ولا تزال تظهر بين الفينة والاخرى في الايام الحالية . وفي رأي السيد هوبير دي شامت : « ان القرصنة الجماعية بين الشعوب وصلت الى أوج ازدهارها (في البحر المتوسط) واصبحت الرياضة المفضلة لهذه البشرية البربرية اليافعة » .

ويحدثنا المؤرخ الاغريقي هومير ان الملاحين الاغريق كرسوا انفسهم لعمليات القرصنة ، بل لقد خضع اكثر هؤلاء الملاحين شهرة هو أوليس ملك ايثاك لمغريات النهب واللصوصية . واستخدمت روما في صراعها المميت ضد قرطاجة القراصنة الذين يقيمون في جزيرة صقلية (٢) ، لان روما كانت تفتقر الى الاساطيل البحرية الكافية لهذا الصراع . وفيما بعد اصبح القيصر نفسه فريسة للصوص القراصنة الذين يمخرون بسفنهم السريعة جميع ارجاء البحر المتوسط ، فقد وقع هذا القيصر اسيرا في يد

---

(١) هانون : بحار قرطاجي تجول في القرن الخامس ق . م على سواحل المحيط الاطلسي الافريقية .

(٢) الغريب ان هذه الجزيرة لازالت حتى هذه الايام مصدر لاعظم رجال المافيا في العصر الحديث ، كما كانت في العصور القديمة موطنا لاجرأ وأمهر القراصنة (المعرب) .

القراصنة بينما كان في طريقه الى اليونان ، فعرض على خاطفيه فدية هائلة ولكنهم انذروه مقايل ذلك الا يعدمهم بعد اطلاق سراحه ، غير انه لم يحترم وعده واعدمهم بالفعل .

ولعل من الاسباب التي حدت بدول البحر الأبيض المتوسط الى تطوير اساطيلها الحربية وتزويدها بالسفن الحديثة التي تتصف بالقدرة على المناورة والفعالية المتزايدة في القتال ، ان هذه الدول أرادت حماية شواطئها وطرق مواصلاتها البحرية من غارات القراصنة .

تطــور الســفن

من المرجح ان اوائل السفن الحربية التي عرفتها البشرية ، كانت سفنا مصرية وكان طول هذه السفن يصل الى حوالي ثلاثين مترا ، وتتميز بمقدمة ومؤخرة مرتفعتين جدا ، وتسير هذه السفن بشراع متصل بسارية عالية ، بالاضافة الى المجاديف التي يبلغ تعدادها عشرين مجدافا في كل من جانبي السفينة ، الامر الذي يسهل المناورة خلال الاشتباك مع المراكب المعادية . ويعتبر هذا النوع من المراكب الحربية نموذجا اساسيا استخدمته جميع الاساطيل الحربية فيما بعد .

أما المركب ثلاثي المجاديف ، الذي ظهر فيما بعد فيمتاز بأبعاد تزيد قليلا عن ابعاد المركب المصري الانف الذكر . وهذا المركب الثلاثي

اصبح نموذجا كلاسيكيا للمراكب الطويلة التي استمر استخدامها حتى ظهور المدفعية البحرية .

وللوصول الى سرعة اكبر في السفن الحربية ، ازداد عدد الجدافين بوضعهم على صفوف منسقة فوق بعضها ، فكانت السفينة المسماة (لابريم) تحتوي على صفين فوق بعضهما من المجاذيف . أما السفينة الثلاثية فكانت تحتوي على ثلاثة صفوف موضعة فوق بعضها على كلا الجانبين . والواقع ان السفينة الثلاثية كانت السفينة الحربية الاولى عن جدارة ، وكان على ظهرها (١٤٤) جدافا ، ووصلت سرعتها الى مايقارب عشرة عقد (او ما يعادل ١٨ كم/بالساعة) وهي سرعة هائلة في ذلك الوقت ، ولم ترتفع بعد ذلك الا عند تزويد السفن بالمحركات البخارية والانفجارية الحديثة . وقد جهزت السفينة الثلاثية بمقدمة متينة تستخدم لصدم المراكب المعادية ، قبل ان تقذف بحمولتها من الجنود الذين يزيد تعدادهم عن خمسين جنديا فوق ظهر السفينة المعادية .

وفي عام ٤٨٠ ق . م اظهرت السفينة الحربية الثلاثية الاثينية تفوقها على السفن الفارسية في معركة سالامين ، لان السفن الفارسية كانت ثقيلة واقل قدرة على الحركة والمناورة من السفينة اليونانية التي كتب لها النصر بسبب سرعتها ومرونتها .

اما السفينة الحربية الشراعية ، الرومانية (الفالير) فتنحدر من السفينة الثلاثية الاغريقية آنفة الذكر . وكانت مثلها تستخدم الشراع

والمجاديف ، ذلك ان الرومان الذين لم يكونوا شعبا بحارا ، عمدوا الى التقليد لعجزهم عن الاختراع .

وكان الكريتيون بحارين ممتازين ، ادخلوا تحسينات هامة على بناء هذا النوع من السفن كما طوروا اساليب استخدامها .

ويذكر المؤرخون ان الاسطولين الروماني والمصري اشتبكا في معركة اكتيوم الحاسمة وكانا يختلفان في مفاهيمهما الحربية . ومن المؤكد ان كليوباترا فضلت الانسحاب بسرعة مع مراكبها في هذه المعركة لاعتبارات سياسية بحتة ، ولم يكن انسحابها ناتجا عن تفوق الاسطول الروماني .

ومن الجدير بالذكر ان هذه المجابهة الحربية التاريخية لم يستخلص منها اية دروس حربية مفيدة ، على الرغم من انها قررت مصير الحضارات في ذلك الزمان . ومرت بعد ذلك قرون عديدة لم يذكر التاريخ خلالها وقوع اية معارك بحرية هامة بعد معركة اكتيوم ، بل كان صراع البحارة والاساطيل يتركز على مقاومة القراصنة . ولم ينته هذا الصراع الا بعد أن أنشأت الدول القوية اساطيل حديثة ، لم تترك أي مجال لمغامرات سفن القرصنة المنعزلة ، التي اصبحت عديمة التأثير تقريبا .

أما أشكال السفن فلم يطرأ عليها تغيير كبير خلال قرون طويلة ، اللهم الا في بعض النقاط التفصيلية ، كما لم يطرأ تغيير كبير على التكتيك الحربي البحري . والحقيقة ان السفن الحربية الشراعية المسيحية التي دمرت الاسطول التركي (الاسلامي) في معركة ليبانت الشهيرة عام

١٥٧١ م ، فلم تكن تختلف من حيث شكل السفن ، واسلوب القتال عن المعارك في العصور القديمة . ولا تعطينا اللوحات العديدة التي خلدت هذه المعركة المسيحية الحاسمة ، اية فكرة عن الاساليب التي استخدمت في قتال الاسطولين ، فجميعها تظهر لنا المراكب التي تلتهمها النيران ، تعلوها غابات من السواري والمجاديف المشرعة ، وهي تخوض معركة فريدة حامية لا لون لها من الناحية التكتيكية .

المدافع والسفن الحربية

احدث ظهور المدفعية المحمولة فوق السفن ، تحولا جوهريا بالشكل وبالتكتيكات الحربية البحرية . حيث اخذت المعارك البحرية تشن على مسافات بعيدة (تتناسب مع مدى رمايات المدفعية) ولم يعد هناك ضرورة للتصادم المباشر بين السفن المتقاتلة . وترتب على هذا التطور ازالة المصندم من مقدمات السفن الحربية .

ولما كان تركيب المدافع فوق السفن يحتاج الى مساحات اكبر ، فقد اصبحت السفن الحربية اكثر ثقلا وضخامة واقل ضمورا (انسيابية) .

وفي القرن الخامس عشر سمحت القطع المدفعية المركبة على سطح السفن بقصف النبال من مسافات بعيدة ضد بحارة الاساطيل المعادية . وفي القرن السادس عشر اصبحت المدافع التي تلقم من فوهة السبطانة

قادرة على تكبيد مراكب العدو اضرارا قاتلة (لايمكن اصلاحها) الامر الذي ادى الى اختفاء الجدافين ، كما ازداد وزن السفينة واقتصر تسييرها على الاشرعة فحسب . وغدت السفن الحربية اقل مرونة في المعارك التي تجري على مسافات بعيدة . وطرأ تغيير هام على التكتيك ، فمن اجل الاستفادة القصوى من المدافع كان لا بد للسفن الحربية من الوقوف في مواجهة بعضها البعض بشكل متوازن تقريبا .

وفي المعركة الكبرى التي اشتبكت فيها الاساطيل الانكليزية بالاساطيل الاسبانية (الارماذا) عام ١٥٨٨ م ، استخدمت الاساليب التكتيكية الحديثة . وكان الاسطول الاسباني (الارمادا الذي لا يغلب) في هذه المعركة ، فريسة للرياح العاصفة الهوجاء التي اوقعت به من الاضرار اكثر مما تكبد من الخصم الانكليزي ، هذا مع العلم بأن الاسطول الانكليزي كان يتفوق بالمدفعية .

واستمر العمل بالاساليب والاشكال البحرية طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على الرغم من وقوع بعض التنوع في السفن الحربية . فقد ظهرت السفينة الحراقة ، ومراكب الخطوط ، والغراب [(١)] . ولم يظهر في هذه الفترة أي تفوق تقني لصالح سلاح البحرية .

اما الانتصارات التي حققتها الاساطيل البريطانية ضد اسطول نابليون ، فترجع لنوعية وكفاءة امراء البحر الانكليز اكثر مما ترجع الى

---

(١) اخذت هذه المصطلحات من المعجم العسكري الذي صدر في عام ١٩٦١ ، على الرغم من عدم قناعتنا بدقتها (المعرب) .

مميزات السفن الحربية الانكليزية . وكان الفضل في الحصول على السيادة المطلقة على البحار ، يرجع لاستيلاء الانكليز على مدينة قادس البحرية الأسبانية . يضاف الى ذلك انتصارات الأميرال ويلليفتون (الانكليزي) في شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا) .

البحـار والمعـادن

كانت اهم التحولات العميقة التي طرأت على الاساطيل البحرية في أواسط القرن التاسع عشر ، عندما استخدم البخار في تسيير المراكب التي سرعان ما اصبح بالامكان بناءها من المعدن .

ومع استخدام البخار في البحرية ، اصبحت المنارات في اعالي البحار اكثر سهولة ولم تعد تخضع لنزوات الرياح . ومع ذلك استمرت السفن الشراعية تنافس السفن المسيرة بالبخار بسبب بطء حركتها في البداية ، وظلت السفن الشراعية السريعة ذات السواري الاربع ، متفوقة على السفن البخارية بسرعتها ، كما استمرت في عملها لنقل الشاي من الهند متخطية رأس الرجاء الصالح ورأس هورن ، لان السفن البخارية لم تكن قد بلغت انذاك المستويات العالية التي وصلت اليها تجارب السفينة فيلتون فوق مياه نهر السين عام ١٧٩٧ م .

وكانت المرة الاولى التي قطعت السفينة البخارية فيها المسافة بين اوروبا والقارة الامريكية ، هي في عام ١٨٣٨ م .

وفي مجال السفن الحربية تم استخدام السفينة الحربية الحديثة لاول مرة في حرب الانفصال الامريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) . وحلت المروحة محل العجلة ذات الريش (او الاجنحة) في هذه السفن الحديثة . وبدىء باستخدام معدن الحديد في صناعة السفن ، وفتح ظهور اول سفينة حربية مصفحة (السفينة مونيتور) التي استخدمها الشماليون ، فتح عصرا جديدا على الرغم من ان النتائج التي توصلوا اليها لم تكن ذات اهمية كبيرة .

وكان ظهور الاساطيل البحرية الحديثة عاملا اساسيا استوجب توفير وسائل صناعية هائلة وتقنيات جديدة . وحول سفن النقل العادية والطرادة المصفحة والمراكب المختلفة من كل الاحجام ، دخل الى الخدمة النسافات ، والمضادات للنسافات ، وسفن الخفر ، وسفن التموين . وحافظت اسلحة البحرية على التقاليد القديمة ، واحتفظت بأسماء رتب البحرية الشراعية : كالقبطان ، وقائد الحراقة وقائد الغراب .

الغواصات والطائرات

تم انجاز اختراعين هامين في مطلع القرن العشرين فأحدثا انقلابا بمفاهيم الحرب البحرية . وهذان الاختراعان هما : الغواصة والطائرة .

وقد سجل هذان الاختراعان « مرحلة جديدة » كما كان الامر بالنسبة للمدفع . فالمدفع اجبر السفن على الابتعاد عن بعضها البعض اما

الطائرة فقد اضطرت السفن للدخول في المعركة على مسافات شاسعة جدا ودون ان ترى السلاح المهاجم .

وفي بادىء الامر كانت « المدمّرة » تشكل تهديدا عظيما على السفن العائمة ، لانها قويّة التصفيح في القسم العلوي فوق الخط الغاطس مما يجعلها قادرة على مقاومة اقوى قذائف المدفعية . غير ان المدمرة تبقى شديدة الحساسية حيال الطوربيدات التي تنفجر في مستوى الجزء الاقل تصفيحا .

أما الغواصات فزادت من اهمية الأخطار المحدقة بالسفن ، لقدرتها على الاقتراب منها دون التعرض للاكتشاف . واصبحت الغواصات اكثر فعالية ضد السفن التجارية المجردة من السلاح ، والتي اصبحت تنتقل على شكل قوافل تحت حماية المراكب الحربية .

وبظهور الغواصات اصبح بالامكان اغلاق شواطىء العدو بشكل غير مباشر ، ففي الحرب العالمية الاولى لم تتح الفرصة للاسطولين الانكليزي والالماني لان تشتبك تشكيلاتهما مباشرة الا مرتان : احداهما في معركة فولكلاند عام ١٩١٤ والثانية في معركة جوتلاند ١٩١٦ .

ومنذ عام ١٩١٤ اخذت الطائرة تلعب دورا هاما في المعارك البرية ، ولكنها بقيت ضعيفة الفعالية في البحار ، واضطرت الحرب الاولى بعض الدول الكبرى لبناء سفن مخصصة لنقل الطائرات ، اطلق عليها اسم « حاملة الطائرات » . وقد استخدم اليابانيون والامريكيون هذا النوع من السفن الضخمة ، بشكل رائع جدا في الحرب العالمية الثانية .

أما المهمة التي اسندت للطائرات في الحرب البحرية ، فكانت البحث عن الغواصات وتدميرها على اعماق معينة ، وما لبثت بعد ذلك ان بدأت بالتدخل ضد السفن العائمة واظهرت فعالية مرعبة في هذا المجال . وكانت اولى ضربات الطائرة الموجهة للسفن البحرية . في البحر الابيض المتوسط المعروف ببحر الحضارات القديمة وبحر النزاعات .. فقد هاجمت الطائرات البريطانية عام ١٩٤٠ في بحر تارانت الداخلي [1] ، الاسطول الالماني الذي كان محميا بشكل ممتاز ضد سفن السطح والغواصات ، فأغرقت العديد من السفن واعطبت عددا آخر دون ان تتمكن هذه السفن من المقاومة الفعالة .

وفي آذار (١٩٤١) تكبد الاسطول الايطالي ايضا خسائر فادحة بسبب غارات الطائرات البريطانية ، عندما كان يتجمع عند رأس ماتابان [2] ، وذلك بسبب عدم وجود طائرات محمولة تغطيه .

وفي المحيط الهادي والمحيط الهندي تبدلت ابعاد الحرب البحرية بين عام ١٩٤١ و ١٩٤٤ بعد ان اصبحت « حربا بحرية — جوية » . ولم يقتصر التغيير على الابعاد بل تناول المفاهيم التي اصابتها تغييرات جذرية حاسمة .

وفي ٧ كانون أول ١٩٤١ هاجمت الطائرات اليابانية السفن

---

(١) بحر تارانت : هو الجزء المائي الذي يقع في كعب الجزمة الايطالية ، ويتشكل من الخليج المسمى بأسمه .

(٢) رأس ماتابان : أو رأس تينا ، ويقع الى الجنوب من البوليبونيز .

الامريكية الراسية في ميناء بيرل هاربر (في جزر الهاواي) ، وخلال لحظات قصيرة دمرت هذه السفن التي كانت عاجزة عن القيام بأية مقاومة . وكان الفضل في هذه الغارة التاريخية للمفاجأة الكاملة ، فقد حملت هذه الطائرات سرا بواسطة السفن من الجزر اليابانية الى مسافة قريبة من الهدف ، الامر الذي لم يكن يتوقعه الاسطول الامريكي ، خاصة ولم تكن امريكا قد اعلنت الحرب بعد . وهكذا وقعت الكارثة .

وبعد هذا الحادث بفترة قصيرة اغرقت الطائرات اليابانية المدمرات البريطانية في عرض المحيط الهندي . وكانت هذه الطائرات تنطلق من قواعد سريعة واقعة في الهند الصينية

وهكذا دخلت الحرب البحرية في « مرحلة جديدة » ، ذلك ان السفن الحربية العائمة لم تشتبك مباشرة الا نادرا ، وكانت الطائرات وحدها هي التي تتدخل فتبادر بقصف السفن المعادية بالطوربيد والقنابل وتوقع فيها افدح الخسائر . وكان من نتيجة هذا التطور ان تخلت الطرادة الحربية عن مكانتها للسفن حاملة الطائرات المحاطة بالتشكيل .

وكان على سفن السطح (العائمة) ان تتدخل في عمليات الانزال ، غير انها تخلت عن مهماتها البحرية البحتة .

أما بعد الغارة اليابانية المفاجئة على ميناء بيرل هاربر (التي رغم عنفها ، لم تكن سوى نجاحا جزئيا لانها لم تتمكن من تدمير حاملتي الطائرات اللتان كانتا قاعدتهما في هذا الميناء لانهما كانتا في جولة بحرية)

اصبحت الاشتباكات البحرية في المحيط الهادي بعد هذه الغارة متوازنة في البداية .

وفي بحر الكوراي [1] القريب من استراليا احتلت الطائرات نهائيا المقام الاول في المعركة البحرية ــ الجوية .

واكدت هذا التحول في ايار ١٩٤٢ الى الغرب من ميدواي وفي عرض المحيط الهادي ، في حزيران ١٩٤٢ .

وقد استطاعت الولايات المتحدة الامريكية ، بفضل طاقاتها الصناعية الهائلة ، انتاج حاملات الطائرات بوتائر متسارعة ، وهكذا اجبرت الاسطول الياباني الممزق ، على التخلي عن السيادة البحرية لخصمه الاسطول الامريكي .

وبهذه الطريقة اصبح بالامكان تحرير الاماكن التي احتلتها اليابان . ولكن بعد ان اقتربت العمليات الحربية من الجزر اليابانية أخذت الطائرات اليابانية المنطلقة من القواعد الارضية تكيل ضربات قاسية جدا للسفن الامريكية التي تدعم عمليات الانزال ، واظهر طيارو (الكاميكاز) اليابانيون المشهورون ، وطائرات الانتحار ، اظهرتا مرة اخرى : « **أن الاسطول العائم لا يملك الوسائل اللازمة والكافية ليدافع عن نفسه ضد الهجمات التي تشن عليه من الجو** » .

---

(١) بحر الكوراي : يقع بين إستراليا وميلانيزيا ، حيث وقعت فيه المعركة الجوية ــ البحرية التي انتصر فيها الامريكيون على اليابانيين .

البحر والعصر النووي ـــ الفضـائي

فوجيء العالم بواقع جديد شديد الخطورة عام ١٩٤٥ عندما ظهر السلاح النووي الذي قلب معطيات الحرب رأساً على عقب . وفي المجال البحري ادى ظهور الطاقة النووية الى تطوير ثلاث امكانيات ثورية :

١ ـــ التدمير الكثيف لاساطيل السطح والقوافل التي تكتشفها الاقمار الصناعية .
٢ ـــ تزويد السفن بالمحركات النبووية (وخاصة منها الغواصات) يمكنها من الابحار الى مسافات بعيدة ، ويعطي الغواصات القدرة للغوص الى اعماق كبيرة داخل المحيطات .
٣ ـــ تسليح الطائرات المحمولة ، والغواصات بقذائف نووية .

ووالواقع ان الغواصة ذات المحركات النووية ، لا تزال حتى الآن تتمتع بحماية جيدة ، لانها تستطيع البقاء غاطسة تحت الماء لعدة اسابيع ، كما يمكنها الابحار تحت كتل الجليد في القطب . اما بعد ان اصبحت الغواصات النووية مجهزة بالصواريخ البعيدة المدى ذات الرؤوس النووية احتلت مكانا من الطراز الاول ، ليس في داخل الاسطول فحسب بل في اطار الاستراتيجية الكونية الشاملة .

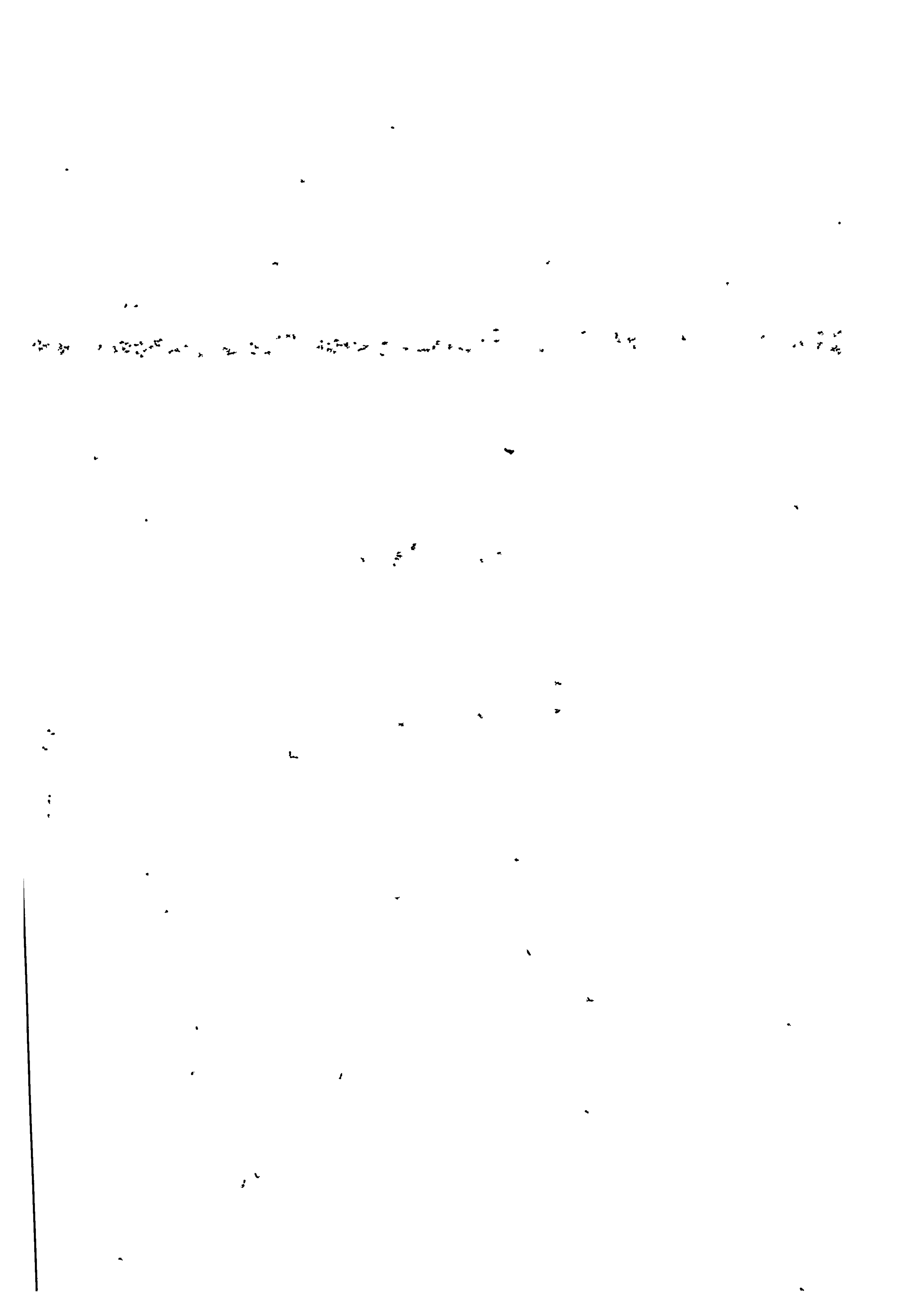
وتجدر الاشارة الى ان صواريخ البولاريس المعروفة اصبحت في

السنوات الاخيرة متخلفة عن الصواريخ المتطورة جدا والمزودة بالرؤوس النووية المتعددة ذات المزايا المتصاعدة ، ومن هذه الصواريخ الحديثة : البوزيدون والترايدنت والصاروخ المسمى (م — ٤) .

وهكذا اصبحت البحار اكثر ملاءمة للعمليات المخادعة الماكرة بعد ان قدمت الكثير من الخدمات للغزاة عبر التاريخ ، وقد شهدت التقنيات والتكتيكات تطورات هامة ، يمكن اعتبارها ثورة حقيقية عميقة .

لقد ارتبط تقدم البحرية خلال الاف السنين بالتقدم العلمي والصناعي ، وكان ذلك بطيئا . ولكن مبادىء استخدام القوات البحرية تبدلت في ابعادها وليس في طبيعتها . ولكن ادخال الطائرة في المغارك البحرية ادى الى تحول حاسم في طبيعة الاستخدام . اما ادخال الطاقة النووية في البحرية ، سيؤدي الى تحولات لا مثيل لها في الماضي . ولهذا فان المجابهة بالمستقبل ستسجل بدون شك قطيعة كاملة مع المفاهيم السابقة ، وستكون المجابهة جساسة جدا في المجال البحري . وان المجابهة بين القوى البحرية والقوى البرية التي سيطرت على احداث التاريخ تبقى احدى العناصر الاساسية في الصراع بين الحضارات من اجل الحياة وفي سبيل التوسع .

وان شوكة الة الحرب نبتون ذات الشعب الثلاثة كانت ولاتزال سيدة العالم . فمن الذي يحمل هذه الشوكة الآن ؟ .



الفصل الثالث عشر

من أيكار [1] الى هيروشيما

(١) ايكار : هو ابن المعماري ديدال باني مدينة لابيرانث في كريت . وقد سجن فيها بأمر من الملك مينوس ، ولكنه استطاع الهرب مع ابنه ايكار بواسطة اجنحة الصقها على جسده بواسطة الشمع وطار من السجن . وقد اوصى ابنه ايكار الا يقترب كثيرا من الشمس لكيلا ينصهر الشمع ، ولكن هذا لم يصغ الى نصيحة ابيه ، فأوغل بالتحليق الى أن صفعته حرارة الشمس فسقط محترقا في البحر .

في فجر الزمان ، عندما ظهر الانسان فوق كرتنيا الارضية عاريا لا يملك اية وسيلة للدفاع عن نفسه حيال العناصر الاخرى الموجودة في الطبيعة .. ولكي يحافظ على بقائه اخذ يتكيف مع الارض التي يقتات منها ويتجول فوقها ويستغلها . وسرعان ما توصل الى استخدام الانهار والبحيرات ثم تجرأ على خوض لجج البحار . وهكذا بدأ الانسان يسيطر بسرعة على اليابسة والبحار . أما العناصر الاخرى الموجودة في الطبيعة كالنار والهواء فقد أبدت مقاومة اشد حيال مغامراته . فالهواء كما تروي الاساطير القديمة لا يستطيع تحريكه سوى الالهة والملوك وحدهم كما فعل هيرميس [1] او بواسطة الخيول المجنحة التي كانت تجر عربة (بولون) « الاله اللامع الذي يستمد نوره من ضوء النهار » .

---

(١) هيرميس : اله يوناني ، وهو ابن الاله زوس ، وكان يعرف انه اله البلاغة والتجارة واللصوص ورسل الالهة .

اكتشاف النار واسطورة بروميثيه [1]

تروي الاساطير اليونانية ، انه تم اخضاع النار بفضل تواطؤ احد سكان الاولمب المسمى بروميثيه . فقد طلب الاله زوس من الاله الحداد هيفيستوس ، أن يصنع له أول امرأة ، فصنع له باندورا ، ثم كلف بروميثيه بأن يصنع الرجل الاول من صلصال الارض . ولكن الرجل الذي صنعته ايدي بروميثيه كان عاريا لا يملك وسيلة للدفاع عن نفسه ضد الحيوانات ، كما لم يكن يملك اية وسيلة تقيه من العناصر الطبيعية الاخرى .

ولكي يؤمن بروميثيه للانسان حياة افضل ويمكنه من الدفاع عن نفسه بأسلحة فعالة ضد الوحوش الكاسرة ويزرع الارض بالادوات الضرورية ، قرر ان يعطيه « النار » ويعلمه فن صناعة المعادن والادوات الاخرى التي تجنبه مصيره المحزن الذي يدعو للرثاء .

وهكذا أقدم بروميثيه على اختلاس شرارة من نار كور الحداد هيفيستوس يمكنها صهر المعادن ، وحملها كهدية منه الى الانسان .

ولكن البشر بعد امتلاكهم هذه الطاقات حسبوا أنفسهم في مستوى الالهة ، الامر الذي فجر ضدهم غضب الاله زوس . فما كان منه الا ان ارسل عليهم الطوفان واباد العرق الاول من بني البشر . وعاقب

---

(٣) بروميثيه : اله النيران .

بروميثيه على فعلته فصلبه فوق اعلى قمة من جبال القفقاس وأمر بتعذيبه الى الابد ، وجعل كبده طعمه للنسور .

ولدت هذه الاساطير في زمن كانت فيه التقنيات في حالتها البدائية ، ومنذ ذلك الوقت اخذ الانسان يناضل ويبذل الجهود لتحسينها الى أن أتى اليوم الذي استطاع فيه تفجير الذرة . كان ذلك في أواسط القرن العشرين ، وخيل اليه عند ذلك انه اصبح سيد المادة وكل ما تحويه الطبيعة من طاقات ، فهل يكون مصيره كمصير العرق الاول ؟ وما هو المصير الذي ينتظر من اطلقوا عنان القوى النووية ؟ وهل سيلاقون ما لاقاه بروميثيه ؟ .

اسطورة ايكار وتسخير الرياح

قضى الانسان آلاف السنين الى ان توصل لاخضاع الهواء ، ولم يستطع التحليق في الفضاء الا في القرن الثامن عشر الميلادي . ومنذ ذلك الوقت اخذ يرتفع في الجو تدريجيا قبل ان يتمكن من اختراق المحيط الهوائي والانطلاق في الفضاء اللامتناهي الذي طالما دغدغ احلامه .

وتقول الاساطير القديمة ، ان الالهة وحدهم هم الذين يملكون القدرة السحرية للظهور الى جانب البشر في ميادين المعارك ، ولكن اجسادهم كانت تنفجر في كل مرة يحاول احد البشر تقليدهم . ولذلك فان مصير الانسان الجسور هو السقوط الى الارض والموت .

وفي احدى هذه الاساطير ان فايتون ، ابن ابولون اله الشمس ، طلب مرة من ابيه بأن يقود عربة النور التي تجرها الخيول الاربعة المجنحة ، غير ان الخيول أدركت مباشرة بان الذي يمتطي العربة ليس فارسها المعتاد ، فما كان منها الا ان انحرفت عن الطريق ، مما عرض الكرة الارضية للدمار بسبب حرارة الشمس الشديدة فتضرعت للاله زوس لانقاذها من هذا المصير الرهيب ، واستجاب زوس لتضرعات الارض ولكنه صعق فايتون السفيه والقاه في خضم مياه ايريدان [١] .

واسطورة « ايكار » ذات مغزى توجيهي ايضا . فهي تحكي بأن « ديدال » كان نحاتا وعالما مشهورا (سبق ليونارد دوفانشي) وقد علم البحارة استخدام الاشراعة لتسيير سفنهم . دعاه مينوس ملك جزيرة كريت لبناء سجن في الجزيرة ليسجن فيه العملاق المرعب مينوتور [٢] ولكن ديدال ساعد تيزيه الانسان ، لتحرير الارض من الوحش المرعب . فما كان من ملك الجزيرة مينوس الا ان عاقب « ديدال » بالسجن ، كما اعتقل ابنه « ايكار » معه .

ولم تكن هناك أية وسيلة لهرب ديدال وابنه من السجن الا عن طريق الجو . « وبفضل ما يتمتع به ديدال من العلم والفن امتاز بهما عن

---

(١) ايريدان : نهر يقع في منطقة البو في شبه الجزيرة الايطالية .

(٢) مينوتور : وحش اسطوري ، نصفه العلوي انسان والنصف الاخر كالثور . وهو ابن باسيفاي . وقد سجنه مينوس ملك كريت وزوج باسيفاي في المتاهة (اللابيرانت) . وكانت اثينا تقدم له سنويا الاضاحي من خيرة شبابها الى ان قتله تيزيه (وتيزيه هذا بطل اغريقي ابن ملك اثينا ، الذي قتل الوحش مينوتور بمساعدة اريان ابنة ملك كريت) .

غيره ، قام بصنع اجنحة وربطها في كتفيه ، وذراعيه ، وفعل نفس الشيء من اجل ابنه ايكار ، ونصحه بألا يوغل بالتحليق بعيدا في الفضاء عند الطيران ، بل يبقى على ارتفاع متوسط . ولكن الفتى المغرور لم يكبح جماح غروره فاستسلم لرغباته الجامحة ، وانحرف عن خط الطيران الذي سلكه ابوه . وهكذا عرض نفسه لحرارة الشمس المحرقة ، التي صهرت الذي استخدم لالصاق الاجنحة ، فانفصلت وسقط ايكار صريعا في لجة البحر الذي سمي فيما بعد بالبحر الايكاري » .

نسيت البشرية انجاز ديدال العظيم الذي بقي زمنا طويلا في طيات الغيب يذكرنا بأول كارثة طيران عرفها التاريخ .

وما لبث الانسان ان ادرك اهمية الهواء الذي يستنشقه لان له قوة دفع ديناميكية عظيمة . فقد لاحظ طيران العصافير ، كما رأى كيف تتقاذف الرياح الاشياء الخفيفة كأوراق الشجر وريش الطيور ، ولكنها مع ذلك تبدي مقاومة شديدة لايمكن للانسان قهرها الا بصعوبة بوسائله البسيطة وحدها .

ومع تطور التقنيات اخترع الانسان بعض الاسلحة التي تساعده على القتال عن بعد ، فوضع « الحصا » في « مقلاع » ليقذفها معتمدا على قوة عضلاته . وهكذا ازدادت لاول مرة قوة المقذوف وابتعد مداه . وما لبث ان استخدم « المزراق » الذي يقذفه بذراعه مباشرة ، وتلا ذلك استخدام « القوس » المشدود الذي يختزن بعض القوة ليقذف بها النبال والسهام .

وساعدت التقنيات ، الانسان ، مع مرور الزمن ، على صناعة آلات اكثر قوة : كالقذافة التي ترمي السهام الضخمة والحجارة ، و « العرادة » التي تقذف كرات ضخمة تستخدم لتدمير اسوار المدن . ولم تكن هذه الاختراعات الاولية سوى نجاحات ميكانيكية . غير ان الامر تبدل تماما عندما قدمت الكيمياء للانسان « البارود » في القرن الرابع عشر .

ومنذ اختراع البارود توصل الانسان لضنع « الاسلحة النارية » التي تقذف الرصاصة والقنبلة الى مسافات بعيدة بالقوة الناتجة عن احتراق البارود . وهكذا بدأت التحسينات المتواصلة للاسلحة الانسيابية على اختلاف انواعها ، تعطي للقذائف قوة وبعدا متزايدين .

واذا كان الانسان قد استطاع منذ ذلك الوقت ارسال القذائف الى مسافات اطول فأطول ، الا انه بقي خاضعا للجاذبية الارضية ، ولم يستطع رفع القوس او القذيفة عن محاركها العادية المنخفضة نسبيا .

أما حلم « ايكار » بالتحرك بحرية كاملة في الفضاء ، فلن يتحقق الا بعد زمن طويل ، على الرغم من ان جميع الاساطير التي وردت في الكتب السماوية ، والاساطير اليونانية ، والصينية والاغريقية ، كانت تتحدث دائما عن البشر الذين يحلقون في السماء [1] .

---

(١) ولعل من ابرز هذه الاساطير تلك التي وردت في القرآن الكريم حول الاسراء والمعراج « سبحان الذي أسرى بعبده من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى » صدق الله العظيم (المعرب) .

وقد درس بعض فلاسفة العصور القديمة من امثال آرشيتاس تارانت ، وارستوت في القرن الرابع قبل الميلاد ، طيران العصافير وهياكل اجنحتها ، وكان لا بد من انتظار ليونارد دافنشي لكي تظهر لاول مرة دراسة علمية جدية حول هذا الموضوع صيغت بشكل عبقري يعتمد على الحدس ، فقد تصور هذا العبقري حوامة « او هيلوكوبتر » خفيفة تستطيع التحليق في الجو ، وعند وفاته بقيت رسومه ودراساته بكاملها طي النسيان ، ذلك لان التقنيات في ذلك الوقت لم تكن متقدمة الى الحد الذي يسمح بتحقيق مشاريعه .

من سفينة الهواء (المنطاد) الى الطائرة

وجه احفاد ليونارد دافنشي بحوثهم نحو بناء آلة اخف وزنا من الهواء ، ولكن الاوائل الذين توصلوا الى حقن الهواء الساخن داخل غلاف متين ، هم الاخوة مونتفولفييه ، ففي ٤ حزيران ١٧٨٣ ، وفي بلدة انوناي الواقعة بالقرب من مدينة ليون الفرنسية ، ارتفع في الجو لاول مرة « بالون » يبلغ قطره اثنا عشر مترا ، على مرأى من الجمهور الذي انتابه شعور من الخوف والاعجاب .

وفيما بعد اعطت التحسينات التي ادخلت على بناء البالونات واستخدم غاز الهيدروجين ، نتائج مشجعة .

وفي ٢١ تشرين الثاني ١٧٨٣ استطاع كل من فرانسوا بيلتار دو

روزييه ، والمركيز دارلاند ، أن يحلقا في الهواء على ارتفاع الف متر ، وان يقطعا اثني عشر كيلو مترا خلال مدة لا تزيد عن (٢٥) دقيقة من الطيران .

وظهرت « المناطيد » على شكل بالون بيضوي متطاول يسيره محرك بخاري ،

وفي مطلع كانون الاول من عام ١٧٨٣ قام الفيزيائيان شارل وروبير ، برحلة جوية من باريس الى نيوليه وقطعا مسافة اربعين كيلو مترا .

وقد سبقت هذه الاكتشافات ، نشوب الثورة الفرنسية بوقت قصير . وما لبثت الثورة ان فتحت عصرا من الحروب التي اعطت لهذه الاختراعات الجديدة اتجاها عسكريا . فاستخدمت البالونات التي تدار بواسطة الحبال من اجل استطلاع ميدان المعركة ، ومن المعروف ان هذه الوسيلة الحديثة استخدمت في معركة فلوروس [(١)] عام ١٧٩٤ .

وفي عام ١٧٩٧ ، ساعدت المظلة احد رجال الفضاء على مغادرة سلة المنطاد وان يهبط الى الارض بسلام وفي عام ١٨٧١ تمكن السياسي غابيتا من مغادرة باريس المحاصرة مستخدما احد المناطيد .

وفي نهاية القرن التاسع عشر تم انتاج الآلة الطائرة التي يتجاوز وزنها وزن الهواء ، والتي تعتبر المنافس المتفوق للمنطاد ، وبالرغم من كل

---

(١) فلوريس : مدينة بلجيكية تقع الى الشمال الشرقي من مدينة شالروا . حدثت فيها المعركة التي انتصر فيها القائد الفرنسي جوردان على الجيش النمساوي عام ١٧٩٤ م.

التحسينات التي ادخلت على المنطاد ، فانه لم يتمكن في نهاية المطاف من الصمود امام التقدم الهائل الذي حققته الطائرة المروحية خلال عدة سنوات خاصة بعد ان زودت بالمحرك الانفجاري . فقد حلق الاخوان رايت ، الامريكيين بطائرة مجهزة بمحرك قوته (١٦) حصان ومروحتين ، وقطعا مسافة (٣٦) مترا خلال مدة (١٢) ثانية وعلى ارتفاع (٨) امتار . ونجح كليمانت ادير قبل ذلك بالطيران مسافة عدد من الامتار .

وابتداء من هذه التحليقات الاولى اخذت الطائرة تتحسن بسرعة فائقة ، ولكنها بقيت متعبة بالنسبة للطيارين . وفي هذه الفترة تفنن الهواة والمختصون ببناء آلات طائرة ذات اشكال غريبة ، وكان بعضها عاجزا عن الطيران ... الا ان ذلك كان بداية لانطلاقة حقيقية في عالم الطيران .

وفي ٢٥ تموز ١٩٠٩ نجح بليريو باجتياز بحر المانش جوا ، وحلق فارمان لمدة ثلاث ساعات وخمسة عشر دقيقة حول مدينة رانس الفرنسية .

ومنذ ذلك الوقت اصبحت فكرة استخدام الطائرة كسلاح حربي تجول في اذهان المختصين . ولم يتأخر تنفيذ هذه الفكرة مدة طويلة : فقد استخدم الايطاليون الطائرة لاول مرة في طرابلس الغرب بمهمات الاستطلاع والقصف في عام ١٩١١ م .

اما المنطاد ، فأخذ يتجه نحو « البالون الصلب » واستطاع الالمان انتاج المنطاد المشهور « زبلن » الذي لم يعط النتائج المنتظرة منه ، ثم ما

لبث ان اهمل بسبب الكوارث التي سببها ومن بينها حادثة ديكسمود ، ومأساة القطب الشمالي .

وفي الحرب العالمية الاولى حقق الطيران تقدما عظيم الاهمية : فازدادت كفاءة الطائرة وامكانياتها العسكرية . ولكن استخدامها بقي بشكل افرادي على الرغم من ظهور بعض التشكيلات الجوية التي ضمت عددا من الطائرات .

وفي عام ١٩١٨ ولاول مرة في تاريخ استخدام الطيران الحربي ، قام تشكيل مؤلف من (٨) طائرات بقيادة الشاعر الايطالي دانونزيو بالقاء المناشير الدعائية فوق مدينة فيينا .

وخلال هذا العام بالذات ، ظهرت الاساطيل الجوية وبدأت انطلاقها نحو تحقيق انتصارات جوية جديدة .

ومنذ عام ١٩١٩ انشئت خدمات النقل الجوية المنتظمة ، واصبحت الطائرات تدريجيا قادرة على قطع مسافات طويلة ، ونقل حمولات هامة .

وفي عام ١٩٢٩ حلقت طائرة مائية من فوق سطح مياه بحيرة كونستانس [١] ، وعلى ظهرها (١٦٩) راكبا . وفي نفس العام تم التحليق فوق القطب المتجمد الجنوبي ، وبعد ذلك بثلاث سنوات جرى التحليق فوق القطب الشمالي .

---

(١) حيرة كونستانس : تقع على الحدود المشتركة السويسرية الالمانية ـــ الفرنسية (المعرب) .

وفي الفترة الواقعة بين ٢٠ و ٢١ ايار ١٩٢٧ ، اجتاز الطيار ليندبرغ ، المحيط الاطلسي خلال مدة لا تتجاوز (٣٣) ساعة .

وفي الثلاثينات تسارع التقدم في مجال الطيران ، واستطاعت الطائرات قطع جميع المحيطات في تشكيلات هامة ، وبدأ استخدام خطوط النقل الجوية بشكل منتظم ، على الرغم من ان بعض هذه الخطوط كان ضربا من الاعمال البطولية المحفوفة بالمخاطر ، كما هو الامر بالنسبة لخط المحيط الاطلسي الجنوبي واستمر تقدم الطيران الحربي طوال الفترة الواقعة ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ، الى ان اصبح الطيران سلاحا حاسما وفعالا في الحرب العالمية الثانية .

تسارع الحروب

استطاع الطيران ان يبرهن عمليا على فعاليته منذ بداية الحرب العالمية الاولى ، فقد امكن الحصول على المعلومات الهامة بواسطة طائرات الاستطلاع الموضوعة تحت تصرف الجيوش ، وتم تحديد مواقع وتحركات الجيوش الالمانية اثناء تقدمها نحو المارن في مطلع شهر ايلول ١٩١٤ .

وقام بعض الطيارين الشجعان بالتحليق في مناطيد استكشاف خاصة للقيام برصد واحكام رمايات المدفعية ، ومع ذلك لم يستطع المنطاد الصمود امام منافسة الطائرة ، التي فرضت واحتلت مكانا هاما في سير العمليات الحربية .

وتستخدم الطائرة في الميدان لانجاز عمليات الاستطلاع ، والمساهمة بتحديد مواقع العدو ، واحكام رمايات المدفعية ، ومطاردة طيرانه ومناطيده ، وتغطية وحماية الوحدات البرية المقاتلة اثناء تنقلاتها ، كما تستخدم لقصف وتدمير النقاط الاستراتيجية الهامة .

ومن الجدير بالذكر ان هذا التعريف لمهمات الطيران ، اخذ من سجل يوميات احد الطيارين في عام ١٩١٦ ، الذي يصف بدقة جميع الانواع الهامة من الطائرات العسكرية التي ظهرت خلال الحرب العالمية الاولى . غير ان هذه الطائرات رغم تقدمها وتنوعها لم تصل الى الحد الذي تستطيع فيه نقل المواد والاشخاص .

اما الحرب العالمية الثانية فستحمل معها تطورا عجيبا في جميع الميادين . فمنذ آب ١٩٣٩ ، اخرج الالمان طائرة مجهزة بمحرك نفاث ، وكتبوا بذلك فصلا جديدا في استخدام الجو لان هذا المحرك النفاث سيسمح ببدء مغامرات غزو الفضاء .

وفي ساحات القتال كانت مساهمة سلاح الطيران في العمليات البرية حاسمة ومثيرة للاعجاب منذ بداية الحرب . ففي بولونيا وهولاندا وبلجيكا وفرنسا استطاعت الغارات الجوية على القوات البرية ، وعمليات القصف ، ونقل وحدات المظليين والوحدات المحمولة جوا ، استطاعت ان تسجل تحولا حاسما بأشكال الحروب ، يعود الفضل فيها لاستخدام القوات الجوية بكثافات متزايدة .

أما ما يتعلق بأساليب القتال ، فقد ترتب على تصاعد التقدم التكنولوجي ، مجابهات وتناقضات عنيفة بين العقائد العسكرية في الفترة الواقعة ما بين الحربين ، ومن اهم هذه العقائد نظريات دوهيه ، ونظريات ميتشيل وآخرين .. وأدى هذا التنافس النظري الى ظهور رؤية واقعية جديدة للحرب ، ترجمت عمليا الى امتداد الحروب بالعمق حتى شملت المؤخرات البعيدة للقوات المسلحة ، والسكان المدنيين الابرياء ، ووسائل الانتاج والمراكز الحيوية المختلفة .

أما معركة لندن الجوية التي بدأت في آب ١٩٤٠ ، فكانت مقدمة لعمليات مماثلة كبرى في السنوات التالية . وساعد اختراع الرادار على كشف الطيران المعادي من مسافات بعيدة ، ولعب هذا السلاح دورا رئيسيا في المعركة وفتح الطريق لتطور المواصلات الجوية في المستقبل .

وهكذا اصبحت القوات الجوية ، التي لم تتوقف عن التطور لحظة واحدة طوال الحرب العالمية الثانية ، اساطيل حربية حقيقية .

وفي عام ١٩٤١ سجل الطيران في المحيط الهادي يقظة اولى في التنافس مع سفن السطح ، عندما دمر القطع البحرية الامريكية في ميناء بيرل هاربر .

وفي ميدواي ، بعد هذا الحادث بشهور ، لم تتمكن الاساطيل البحرية المتحاربة من تحقيق التماس مع بعضها البعض الا بواسطة الطيران المحمول فوق حاملات الطائرات . ومنذ ذلك الوقت اصبحت حاملة

الطائرات السفينة الاساسية في الاسطول وحلت محل الطرادة التي كانت حتى ذلك الوقت ملكة البحار .

وفي العمليات البرية تضمنت الاساطيل الجوية طائرات قوية تقوم بالاغارة على المدن بمجموعات مؤلفة من عدة مئات من الطائرات القاذفة التي تحمل كل منها عدة اطنان من القنابل ، فتحدث الدمار الهائل بالبشر والثروات .

الذرة والصواريخ والاقمار الصناعية

لقد بدل اكتشاف القوة المتفجرة الناتجة عن الانصهار النووي جميع المعطيات دفعة واحدة . ففي ٦ آب ١٩٤٥ ، في هيروشيما ثم في ٩ آب من نفس العام في ناغازاكي ، تمكنت طائرة واحدة تحمل قنبلة ذرية واحدة ، من احداث آثار تدميرية لا مثيل لها في التاريخ ، ولايمكن مقارنتها مع الآثار التي تحدثها غارات الاسراب بالاسلحة الكلاسيكية مهما كان عددها .

وفي هذا الوقت بالذات ادخلت تحسينات جديدة هامة على الطائرات تناولت ميدانين: الملاحة الجوية بدون طيار والطوربيد الطائر V - 1 ، وهو عبارة عن طائرة صغيرة توجه عن بعد بواسطة جهازين اوتوماتيكيين . ويحمل قنبلة عظيمة واحدة ، بينما اصبح الطوربيد V - 2 عبارة عن قذيفة حقيقية ، يذكرنا بالقنابل الا انه لا يحتاج الى سبطانة

لاطلاقه ولتلقي القوة الضرورية لاندفاعه لأن هذه القوة متصلة بالمقذوف نفسه . وهكذا يمكن اعتباره الرائد الاول للصواريخ العابرة للقارات الحالية .

لقد فتح هذا التقدم الرائع في مجال السيطرة على الجو ، طريقا جديدا استفادت منه ايضا الطائرة الكلاسيكية ، كما سمح بتصور الانطلاق الى ابعد من ذلك ، وتجاوز الجو المحيط بالارض وبالتالي « غزو الفضاء » .

أما المشاكل التي بقي على الانسان حلها فهي على نوعين :

— مقاومة الهواء في المستوى الذي يطلق عليه اسم « جدار الصوت » .

— والحرارة التي تصل الى درجات عالية لا يمكن لمعدن الفولاذ مقاومتها .

واستطاعت البحوث الحثيثة طوال خمسة وعشرين عاما ان توفر للانسان الوسائل للتغلب على « جدار الصوت » ، كما تم لاول مرة بتاريخ ١٤ تشرين الاول ١٩٤٧ اكتشاف الخلائط الخاصة التي باستطاعتها مقاومة الحرارات العالية جدا . واعطت التحسينات التي ادخلت على محرك الصاروخ V - 2 القوة الدافعة الضرورية التي سمحت بقذف الاقمار الصناعية ، التي كانت في بداية الامر ضمن اطار الجاذبية الارضية حتى ٤ تشرين اول ١٩٥٧ ، ثم تحررت نهائيا من هذه الجاذبية وانطلقت بعيدا في الفضاء الخارجي لتهبط على سطح القمر في عام ١٩٦٩ .

ومن جهة اخرى ، اخذت الخطوط الجوية تشق بانتظام جو الكرة الارضية بطائرات ضخمة ووتيرة تحمل كل منها مئات المسافرين ، واصبحت آلاف الطائرات تزحم السماء على الدوام منافسة السفن البحرية كوسيلة متوسطة للنقل البشري .

وهكذا كما رأينا استطاع الانسان تحقيق الاهداف التي حلم بها بروميثيه وايكار : فبانصهار الذرة استولى الانسان على نار الشمس ، وبالطيران حقق الهدف الذي فشل في تحقيقه ايكار « السفيه » ، كما سمحت التقنيات المتطورة جدا للانسان بأن ينتج الطائرة التي تصورها « ديدال » ... ومع ذلك لم يرتو غليل طموح الانسان ، فلا يزال راغبا بالذهاب بعيدا لاختراق غياهب المجهول : فها هو يحسن المراكب الفضائية ويسعى لجعلها مريحة وملائمة للسفر ، والمكوث في داخلها لمدد طويلة ، كما اخذ يزودها بالوقود الضروري بواسطة مراكب تموين فضائية . وتتم هذه العمليات اليوم على احسن وجه وفي اعلى درجات الأمان .

وقد اخذ الانسان الآن بالتطلع نحو اللانهاية ويبذل الجهود الفعلية لاستكشاف المجموعة الشمسية ، بل لعله يتطلع الى ابعد من ذلك ... غير ان هذه المشكلة تبدو غير قابلة للحل بسبب ، طول مدة الرحلة وصعوبة الهبوط على سطوح معظم الكواكب نظرا لمميزاتها الفريدة وخاصة حرارتها العالية جدا . وسيكون من واجب الانسان في هذه المحاولات ان يحسب الحساب اللازم لتجنب مخاطر الحرارات التي لا تزال تتجاوز امكانيات الوسائل التي لديه حاليا فوق سطح بعض الكواكب

وخاصة كوكب المشتري ، والا فانه سيلاقي نفس مصير « ايكار » المتمردِ .

ولكن الانسان يشبه في عقليته هذا « الايكار » فهو متعطش دائما للفهم وادراك عجائب الفضاء ، ولعله يطمح للوصول الى كوكب « الاولمب »[1] الذي لا يدرك .

ومن يدري لعل باستطاعة احد رواد الفضاء ان ينال من الحظ الكثير ، فيلتقي بالاله ... **ولما كان هذا الرائد الفضائي قد تكون على اساس فلسفة مختلفة .. فانه لن يجد امامه سوى مادة لا حياة فيها .**

(١) كوكب الاولمب : يرمز به المؤلفون الى « مجمع الآلهة » .

الفصل الرابع عشر

التسلسل الطبقي والمؤسسات العسكرية

رأينا في بداية البحث أن الطبقات الاجتماعية من العناصر الاساسية للحضارات . وتنبثق عن هذا التسلسل الطبقي جميع عمليات التطويع ، والتجنيد ، والتنظيم وقيادات الجيوش ، وهذه بدورها تلعب دورا اساسيا في تغيير التبسلسل الاجتماعي .

وقد كتب الكونت غيبرت في القرن الثامن عشر حول هذا الموضوع بما معناه « ان انتصارات الامم العسكرية تتوقف اكثر مما يعتقد على سياستها وعاداتها » . كما كتب الخبير العسكري البلجيكي الجنرال وانتي [1] مؤخرا مايلي : « ان الحرب ، واقع اجتماعي ، يستمد قواعده العميقة من طبائع الشعوب نفسها ، ومن بنيتها السياسية وتنظيمها الاجتماعي ، والاقتصادي . كما يلاحظ من النظر الى تاريخ المجتمعات البشرية ، والقبائل والمدن المستقلة ، والدول ، انها تنظم جيوشها وتديرها في ساحات المعارك بموجب القواعد التي ليست سوى انعكاسا امينا

(١) وانتي ـــ كتاب فن الحرب : من منشورات ١٩٦٧ ـــ١٩٦٨ .

لتنظيمها الاجتماعي والسياسي ، وبما يتلاءم مع امكانياتها الاقتصادية » .

واذا ما حاولنا تفسير ما كتبه اردان دوبيك في عام ١٨٢٨ ، في كتابه « دراسات حول القتال » ، أمكننا القول : « ان العقليات والمؤسسات والاسلحة والتنظيم في دولة ما ، على درجة عالية من الحضارة ، تؤمن انسجامها ونجاتها » .

آ ــ التجنيد

كانت جيوش الامبراطوريات الكهنوتية (أي التي يديرها الكهنة) ، في اغلب الاحيان ، حول نواة قليلة العدد من ابناء الشعب المسيطر ، ومن اعداد كبيرة من المجندين الذين تقدمهم الشعوب الحليفة وتنحصر قيادة الجيوش بالضباط القادة من الدولة الحاكمة .

وفي الممالك القوية تتكون القاعدة الاساسية للجيوش من المرتزقة ، ويتألف الجزء الاعظم من الجنود المحترفين من العناصر الاجنبية . أما الجيوش الوطنية التي تصادف في البلدان ذات الانظمة الديمقراطية ، فتكون غالبا على شكل ميليشيات كثيرة العدد لانها تقوم على الدعوة للخدمة الالزامية لجميع المواطنين الصالحين للخدمة .

وفي الدول الحديثة ، تجري تعبئة جميع المواطنين للقيام بخدمة وطنية حقيقية يمكن في بعض الاحيان ــ وخاصة في الازمات العنيفة ــ ان

تشمل النساء . وتعتبر هذه الخدمة بمثابة ضريبة واجبة على جميع المواطنين .

ومع ذلك فان بعض الدول تكتفي بالتطويع الاختياري لمدد طويلة لتشكيل جيشها الدائم المحترف ، عندما يبدو لها ان السلام مضمونا لسنين عديدة . وهذا ما تفعله المملكة المتحدة البريطانية التي اخذت تميل لهذا النظام منذ زمن طويل . وهي لا تلجأ إلى التجنيد العام الا في حالات الازمات الخطيرة (أي في حالة نشوب الحروب الكبرى) .

أما فرنسا ، فقد اختارت منذ قرن تقريبا ، دعوة جميع شبابها للخدمة في الجيش الى جانب الاحتفاظ بعناصر محترفة تشكل العمود الفقري للقوات المسلحة .

وهكذا نرى ان الجيوش كانت منذ اقدم العصور تطبق هذين النظامين : جيش محترف محدود العدد ، والتجنيد الالزامي العام لكل القادرين على الخدمة . ولم يطرأ اي تطور جوهري على هذين النظامين ، بل اقتصر التطور على تكييف انظمة التجنيد حسب النظام الاجتماعي القائم والمعطيات السياسية الراهنة .

جيوش المدن وجيوش الامبراطوريات

يمكن القول بالنسبة للجيوش انه لا جديد تقريبا تحت الشمس ، فمنذ ان اضطر الانسان للدفاع عن نفسه في عصور ما قبل التاريخ ، كان

جميع الرجال الصالحين حتميا من « المحاربين » مثلما كانوا « صيادين » او مزارعين ، فهذه النشاطات بأنواعها مكملة لبعضها البعض ، عند الانسان البدائي والقبائل البربرية . ولا يزال الامر على هذه الحال عند الشعوب المتطورة في العصور الحديثة .

ودلت الدراسات التي اجريت على قبائل غينيا الوسطى على ان جميع الرجال الاصحاء يساهمون في الغزوات الموجهة ضد القبائل المجاورة . وعندما يصبح الشباب في السن الملائمة يتلقون بعض التجارب التعليمية الصعبة ، وبعد ذلك يعينون في طائفة المحاربين . ومن واجب الشباب ان يتمتعوا بصفات جسمانية واخلاقية صلبة . وقد يطلب اليهم احيانا الذهاب لمقاتلة اعداء القبيلة وجلب رأس احد افرادها كبرهان على بلوغ الشاب سن الرجولة واهليته للانخراط في صفوف المحاربين .

وقد كانت هذه الطريقة معروفة عند بعض القبائل الافريقية السوداء قبل وصول المستعمرين البيض .

ومن المعروف عند قبائل البربر في المغرب ، ان جميع الرجال يجب ان يكونوا من المحاربين .

ويرجح ان هذا النظام كان سائدا في جميع المجموعات البشرية الاولى في عصور ما قبل التاريخ .

أما في المدن المستقلة القديمة والجماعات المتطورة ، فبالرغم من ان الواجب يقضي على جميع الرجال بالمساهمة في الدفاع عن مدينتهم او

مجتمعهم ، الا ان الفئات والعناصر التي كانت تملك شيئا تستحق الدفاع عنه ، هي التي تشترك في القتال . والواقع ان المواطنين الاحرار وحدهم هم الذين يدعون للخدمة في الجيوش ، اما الاجانب والعبيد فيحرمون من هذا الواجب .

وفي اثينا وجميع المدن الاغريقية ، كانت الحرب جزءا لا يتجزأ من حياة المدينة والنظام السياسي والاجتماعي . وكانت كل مدينة في ذلك العصر مقسمة الى عشرة قبائل ، وكل قبيلة تقسم الى عشر افخاذ ، وكل فخذ يجب ان يقدم للجيش سرية من المقاتلين تعدادها مائة رجل ، وهذا يعني ان كل مدينة كانت تملك جيشا من عشرة الاف مقاتل .

وابتداء من سن السادسة عشرة يصبح الشاب جاهزا لأداء واجبه العسكري كمدافع عن المدينة .

وتجدر الاشارة الى ان مدينة اثينا استطاعت ان تحقق لاول مرة « الامة المسلحة » فجيشها الدائم كان عبارة عن مدرسة حربية للامة بكاملها ، وجميع الرجال يمكن ان يدعون للخدمة العسكرية في حالة وقوع ازمة خارجية ما .

أما مدينة « اسبارطة » فتمثل الحالة المتطرفة التي يمكن ان تصل اليها التعبئة العامة ، لانها كانت بالفعل « المدينة الثكنة » . ومما كتبه الفيلسوف افلاطون في هذا المجال : « ان الشعب الاسبارطي بكامله هو الجيش الذي يشكل حامية المدينة والمدينة نفسها ليست سوى معسكر حربي » .

والمواطن الاسبارطي يبقى طيلة حياته خاضعا للخدمة العسكرية وهو ملزم بالمكوث في الثكنة حتى سن الثلاثين ويستمر على تناول طعامه في مطعم الحامية حتى سن الستين .

أما الاجانب فتفرض عليهم الاعمال الشاقة لخدمة الجنود المواطنين ، وتتحول الشعوب المغلوبة بكاملها الى العبودية لتساهم في خدمة وصيانة الجيش الاسبارطي ...

وفي روما ، كان الجيش قليل العدد في العصور القديمة الواقعة بين القرن الثامن والقرن الخامس قبل الميلاد . ويتألف الجيش الروماني من المواطنين الاحرار وحدهم ، كما كان الامر عند اليونان ، اما العامة فليس من حقهم التمتع بهذا الشرف .

ويصنف الرجال الاحرار الى طبقات ، تتناسب مع ما يملكه كل فرد منها ، لان التقاليد تلزم جميع المدعوين للخدمة بتحمل تكاليف العتاد . اما الرجال الاغنياء الذين يحضرون جوادهم معهم فيصبحون من طبقة الفرسان ويدخلون في فرق الخيالة .

وابتداء من القرن الرابع ق . م ، اصبحت العمليات الحربية تتجاوز حدود المدينة ، وتطلبت الحملات البعيدة غيابا طويلا . واصبح الرجال المجندون يتلقون راتبا محدودا يتناسب مع مراتبهم كما اصبحت الخدمة العسكرية واجبة من سن السابعة عشر حتى سن السادسة والاربعين ولا تعلن التعبئة العامة الا في الظروف الاستثنائية الشديدة الخطورة .

ومع ذلك فان النتيجة المترتبة على التعبئة العامة لم تكن جيشا نظاميا دائما بل ميليشيا مؤقتة من المواطنين . ومن الملاحظ خلال الحرب الانتقامية الثانية ضد مدينة قرطاجة ، حل القسم الفردي محل القسم الجماعي الذي كان يؤديه المقاتلون ، مما يدل على مبدأ الخدمة الالزامية . ومع توسع الفتوحات الرومانية ، حدثت بعض التغييرات العميقة . فقد طلبت روما ابتداء من القرن الثالث الميلادي من المدن المتحدة والشعوب المحتلة والمتحالفة ، تقديم المجندين للقتال الى جانب الجحافل الرومانية ، التي كانت حتى ذلك الوقت رومانية بحتة .

واستنادا الى هذا القرار اصبح تعداد الجنود الحلفاء في جيش الجمهورية الرومانية يفوق تعداد الرومان الاصليين .

والواقع ان اصلاحا رئيسيا حاسما اجري قبل هذا التاريخ وغير طبيعة الجيوش . ففي عام (١٠٢) قبل الميلاد فتح الدكتاتور ماريوس الجحافل الرومانية للطبقة البروليتارية ، والغى القانون الذي يميز بين الطبقات . ومع زيادة مدة الخدمة العسكرية تحول الجيش تدريجيا الى جيش محترف .

وفي عهد الامبراطورية ، اخذت الجحافل الصبغة الرومانية اما الجيش فأصبح يتشكل تدريجيا من « البرابرة » [١] . وفي القرن الاخير من عمر الامبراطورية الرومانية كانت الجحافل المتمركزة على الحدود ، تجند محليا ، وكان الجنود يمارسون زراعة الارض بالاضافة لعملهم العسكري .

---

(١) والمقصود من البرابرة هنا هو الشعوب غير الرومانية .

وفي النهاية ادى انخفاض الروح المعنوية الى تدهور قوة الجيش الروماني ، وترتب على ذلك السقوط النهائي للامبراطورية .

وعند المغول ، شعب الفرسان الرحل ، كان كل رجل محاربا منذ الولادة لان كل مغولي مكرس للخدمة في الحرب . اما الذين لا يشتركون بالحرب بشكل مباشر فعليهم ان يعملوا لصالح المجتمع دون اية مكافأة او أجر . وهذا يعني ان الجيش المغولي « جيش شعبي وطني » والخدمة العسكرية الزامية لكل الرجال ، وعليهم ان يكونوا مستعدين للدعوة في كل لحظة للاشتراك في العمليات الحربية ، وتراعى في التشكيلات العسكرية الروابط العائلية والقبلية .

وكان هذا المفهوم موجودا لدى الشعوب القديمة الاخرى ، ففي الامبراطورية الاشورية كان على جميع الرجال بين السادسة عشر والسادسة والعشرين ان ينخرطوا في الجيش فور نشوب الحرب ، وكان الامر كذلك لدى جميع القبائل السامية والفرسان البارثيون .

ومن الجدير بالذكر ان القبائل البدوية في الجزيرة العربية ، التي اعتنقت الاسلام كانت حتى زمن قريب ، تعبىء جميع الرجال للمشاركة بالفتوحات ونشر الدين الاسلامي الجديد .

ويمكن الملاحظة ، ان « الطوائف العسكرية » في جميع البلدان تقريبا ظهرت وميزت نفسها عن الجماهير . وعلى سبيل المثال : قامت في اسبارطة جماعة الانداد ونشأت طائفة الخالدون في فارس ، وحراس الطاغية

في روما وجميع هذه الفئات هي منظمات عسكرية محاربة ، وقد تطورت مع الزمن الى ان اصبحت تشكيلات اكثر تخصصا واكثر عسكرية .

ونلاحظ فيما سبق ان الدول التي وسعت حدودها كان لا بد لها من ادخال تعديلات على طريق تجنيد جيوشها ، كما فعلت روما . ففي عهد الدكتاتور ماريوس اصبحت الخدمة العسكرية مهنة ، واصبح الجندي المحترف يقضي مدة خدمته على الحدود .. وكانت هذه الصيغة نفسها مطبقة في الامبراطوريات الكهنوتية في العصور القديمة .

ومنذ الفترة التي لم تعد فيها العمليات العسكرية مقتصرة على الدفاع عن المدينة ـــ الدولة ، فحسب ، بل تعدت ذلك لتصبح حملات بعيدة هدفها الفتوحات ، تحولت الميليشيات الشعبية الى جيوش نظامية ، واصبحت تتطلب تشكيل وحدات مقاتلة كبيرة العدد ، وعلى مستويات عالية من التدريب والتسليح والتنظيم .

وفي الالف الثانية ق . م كانت الامبراطوريات تتصارع من اجل بسط النفوذ في الشرق الاوسط ، مما اضطرها لاستخدام الجنود المرتزقة الاجانب . ولم تكن هذه الامبراطوريات الوحيدة التي استخدمت هذه الوسيلة ، فقد عمدت المدن اليونانية ايضا الى نفس الطريقة لتشكيل جيوشها .

وفي بابل ، على الرغم من ان الرجال الاحرار كانوا مكرسين للخدمة الحربية ، الا ان الحرس الملكي كان يتألف من العبيد والمرتزقة .

وفي مصر لم يعد لجيش المدينة وجود ، عندما انشيء جيش الامبراطورية الوسطى . ومع ذلك كان فرعون يملك حرسا ملكيا خاصا . اما الرجال المتطوعون في الجيش في ذلك الزمن ، فقد شكلوا طائفة عسكرية منفصلة عن الامة . وكذلك فعل العسكريون في الامبراطورية الاشورية ، حيث شكل الجيش كيانا منفصلا يدين بالولاء التام لقائده .

ومن المعروف ان الولاء للقائد وحده اصبح تقليدا في المرحلة الاخيرة من حياة الامبراطورية الرومانية حيث اصبحت الجحافل العسكرية هي التي تعين الامبراطور ، وترتب على ذلك سلسلة من الصراعات على السلطة بين القادة ادت الى اضعاف الامبراطورية وكانت من بين اسباب انهيارها .

وكان الجيش الفارسي يجند سكان المقاطعات ، ويحتوي على اعداد كبيرة من المرتزقة الاجانب معظمهم من اليونان . بل لقد كان تعداد اليونانيين في الجيش الفارسي يفوق عددهم في جيش الاسكندر المكدوني خلال حملة الاسكندر الكبير في اسيا الوسطى .

أما جيش الاسكندر فقام في البداية على المجندين المكدونيين ثم تضخم بالمتطوعين الاجانب ، وعندما وصل هذا الجيش الى الهند اصبح خليطا غريبا يتكلم جنوده جميع اللغات .

وتجدر الاشارة في هذه المناسبة الى ان جيش نابليون العظيم في مطلع القرن التاسع عشر اصبح في نهاية الامر في معظمه من المتطوعين الاجانب .

وهكذا نرى ان معظم جيوش الامبراطوريات القديمة كانت في الاساس جيوشا محترفة قوامها المرتزقة والمتطوعون .

اما جيش الامبراطورية البيزنطية في عهد جوستنيان ، في القرن السادس الميلادي فكان يتألف من العناصر التالية :

— المتحالفون والزبائن والعبيد .

— المتطوعون الذين يستأجرهم الامبراطور ويقاتلون ضمن تشكيلاتهم وحسب تقاليدهم وعاداتهم .

— الفيالق الامبراطورية المؤلفة من المرتزقة الذين يخدمون في الجيش بموجب عقود خاصة ، ويشكلون الاحتياط العام او حرس الحدود .

— الميليشيات المحلية ، التي تتكون من المواطنين وتكلف بالدفاع عن المواقع المحصنة والمخافر العسكرية .

— يضاف الى ذلك بعض الوحدات الخاصة التي يقدمها بعض القادة العسكريين الكبار ويدفعون اجورها ويتعهدون تجهيزها وتسليحها ، وهي بمثابة حرس خاص لهم ، وتشبه الى حد بعيد جيوش الاقطاعيين والنبلاء في القرون الوسطى .

البنيات الاقطاعية والخدمة العسكرية

كان الجيش عند القبائل الجرمانية مرآة حقيقية تعكس بنية القبيلة .

أما في قبائل الفرنجة ، فكان جميع الرجال ملزمين بأداء الخدمة العسكرية . اما الجنود اللازمين للعمليات الحربية والدفاع فلا يعبأون الا من بين سكان المناطق التي تجري فيها هذه العمليات .

ولم يظهر المفهوم الشامل للخدمة العسكرية الا في عهد الامبراطور شارلمان : ففي هذا الوقت اصبحت الخدمة العسكرية واجبة على كل رجل حر ، وكان عليه ان يحضر الى مراكز الجيش عندما تبدأ الحملة السنوية ، مزودا بالمعدات والاسلحة بل وبالتموين احيانا . ولكن هذه الصيغة خلقت الكثير من المشاكل المعقدة الصعبة لقيادة الجيش . وفي مقابل هذه الالتزامات ، يحق لكل محارب ان يحصل على جزء من الغنائم الحربية التي لا يستهان بها في معظم الاحيان .

وتحت ضغط الاحداث وخاصة منها غزوات الاقوام الشمالية البربرية ، بدأت تتغير جيوش دول اوروبا الغربية . والواقع ان التغييرات التي طرأت على المجتمع في هذه الدول ترجع في اسبابها الى التطورات التي اصابت الجيوش . لقد اتجهت الامور بقوة الاشياء نحو المجتمع المسلح الذي حل فيه الجندي الخاص تدريجيا محل جندي الدولة ، فكان ذلك فاتحة للعالم الاقطاعي . واكتسحت النزاعات الداخلية اوروبا وحولتها الى حالة حرب دائمة . وكان النبلاء الاقطاعيون النموذج المثالي لمحاربي ذلك العصر . اما المقاتل فكان عبارة عن فارس مترفع ، يقوم على خدمته العديد من سدنة الاسلحة والعبيد ومروضو الخيول ، وكان من واجب هذا

« الفارس الاقطاعي » ان يقدم خدماته وولاءه للملك الذي منحه (أو اقطعه) ارضه مقابل بعض الخدمات .

وهكذا نشأت في اوروبا الغربية طبقة النبلاء من الفرسان الاقطاعيين التي كان لها ميزة مرافقة الملك في عملياته الحربية .

أما الشعب البسيط (العامة) فكانوا يتحملون اعباء الحرب ولا يدعون لحمل السلاح الا في حالات نادرة جدا كما حدث في عام ١٢١٤ م في مدينة بوفين [1] .

تطـور الجيـوش الملكية

على اثر التقدم الهائل في التجارة والاكتشافات الكبرى ، ازدادت ثروات الطبقة البرجوازية ، وتطور العديد من المدن ، ومن جهة اخرى تدعمت السلطة الملكية المركزية ولم يبق للفارس الاقطاعي دورا كبيرا يلعبه واخذت الحملات الملكية تجتاز حدود المملكة الى الخارج . وبدأ بعض رجال الحرب المحترفون يشكلون وحدات مقاتلة محترفة يؤجرنها لمن يدفع اجرا اعظم . وتشكلت في هذه الفترة كتائب مقاتلة كبيرة تميزت

(١) بوفين : مدينة في شمالي فرنسا تابعة لمحافظة ليل . وهي المكان الذي وقعت فيه المعركة التي تغلب فيها ملك فرنسا فيليب اوغست بفضل المساندة العظيمة التي قدمها لجيشه المتطوعون من سكان المدن الفرنسية ، وادى ذلك الى انتصاره على الامبراطور الجرماني-اوتون الرابع ٢٧ تموز ١٢١٤ م .

بعمليات الابتزاز والسطو . ولكن الملك شارل الخامس نجح بالتخلص منها بارسالها الى الحرب في اسبانيا تحت قيادة دوديغيسكلان حيث تستعر الحروب هناك بين الاسر الملكية الحاكمة ، وحيث يمارس قطاع الطرق المحليون عمليات النهب والسلب ويرتكبون افظع الجرائم .

وفي ايطاليا طبعت عصابات الكوندوتوري والكوليوني ، مجمل تاريخ شبه الجزيرة الايطالية في القرن الخامس عشر . وكان اكثر عناصر هذه المنظمات من اللصوص . ومن بين قادة هذه العصابات من استطاع اقتطاع امارات كبيرة بقوة السلاح ونال شهرة وحظا كبيرين . اما رجال العصابات من المقاتلين فكانوا يجندون بعقود مؤقتة يرافقهم اطفالهم الذين اطلق عليهم اسم « فانتي » ، ومن هذا الاسم اخذت كلمة جندي المشاة ، وتعني الرجل الذي يقاتل على قدميه .

اما قادة هذه العصابات « الكوندوتيوري » فيؤجرون خدماتهم بعقود تسمى « الكوندوتا » التي اخذوا اسمهم منها .

وكانت المدن المستقلة والامراء الذين يدفعون اجورا اكبر يستطيعون استخدام هذه الوحدات المرتزقة لاغراضهم بصرف النظر عن حقيقة هذه الاهداف . لان هذه الوحدات لم يكن لها صفة قومية حتى ولا صفة وطنية محلية ، وكان رجالها يتقاضون اجورهم من قائد العصابة الذي يحتفظ لنفسه بالاسلاب والغنائم .

وفي القرن السابع عشر بدأ التطور يأخذ طريقا مختلفا بالتعامل مع

عصابات المرتزقة الالمانية التابعة لكل من المدعو ويللنشتاين وبرنارد دوساكس ــ فيمار . وكانت وحدات هذه المرتزقة عظيمة الولاء لزعمائها لانهم يتقاسمون الغنائم مع افراد عصاباتهم .

وتجدر الاشارة في هذا المجال بأن هذا النظام نفسه كان مطبقا في العصابات التي سيطرت على الصين حتى فترة قريبة جدا . حيث لكل من القادة العسكريين الكبار « سادة الحرب » جيشه الخاص .

أما حروب الامارات والمدن في ايطاليا ، وكذلك الحروب الدينية فقد تميزت بهذا النوع من المنظمات شبه العسكرية ، وكان الى جانب هذه العصابات ، وحدات من الجنود المرتزقة الذين عرفوا بروحهم العسكرية القوية ، ومن اشهر هؤلاء المرتزقة الذين عرفتهم اوروبا الغربية ، المرتزقة السويسريون الذين لم يكونوا يجدون في بلادهم الفقيرة وسيلة للعيش فأخذوا يمارسون مهنة التدريب العسكري في البلدان المجاورة . ثم ما لبثوا بعد ذلك ان انشأوا تشكيلات مقاتلة شديدة البأس تشبه « الكتائب الاغريقية » والجحافل الرومانية . وقد اشتهرت هذه الوحدات السويسرية بالشجاعة والولاء وقوة التنظيم ، واظهرت براعة خارقة في ساحات المعارك الاوروبية قبل ظهور الاسلحة النارية . واستمرت الكانتونات السويسرية التي ترتبط بمعاهدات دائمة مع المملكة الفرنسية ، على تقديم جنودها الابطال للملك الفرنسي مدة طويلة من الزمن انتهت بقيام الثورة الفرنسية ، عندما لم يجد الملك لويس السادس عشر من يدافع عنه في بداية هذه الثورة سوى هؤلاء المرتزقة الاجانب .

والحقيقة ان وحدات المرتزقة السويسرية تجاوزت حدود الارتزاق البسيط واصبحوا يخدمون بشرف واخلاص ، كما ستفعل بعد ذلك وحدات الكتائب الاجنبية في الجيش الفرنسي حاليا .

وفي الأزمنة الحديثة كانت الممالك تعتمد بشكل واسع في جيوشها على المحترفين .. والمثال النموذجي لهذا الاسلوب حدث في فرنسا بين القرن الرابع عشر والقرن الثامن عشر ، حيث ساعد استمرار النظام على بعض الاستقرار . وفي نهاية حرب المائة عام التي سجلت تدهور نظام الفروسية .. وفي عهد الملك شارل السابع تم التخلص من السفاحين ، وانشىء نظام الرواتب للعسكريين ، هذا النظام الذي ادى الى تطور النفوس والبنيات الاجتماعية والسياسية .

لقد أنشأ الملك (شارل السابع) وحدات سرايا المرافقة للخيالة عام ١٤٤٥ وبعد ذلك بثلاث سنوات احدث سرايا المرافقة للمشاة ، والتي تتألف من رماة الاسهم (النبالة) . وهكذا تشكل لاول مرة جيش وطني ملكي حقيقي له صفة الدوام .

وكان تطويع « النبالة » يتم في النواحي وما لبثت هذه الوحدات ان زالت في نهاية القرن الخامس عشر لتحل محلها الوحدات السويسرية ووحدات المرتزقة الالمانية ، وعلى هذا الاساس لم يعد التجنيد وطنيا لانه يتم في خارج البلاد ويكلف مبالغ باهظة .

وفي القرن السابع عشر وجه تيلييه والد دو لوفوا [1] ، الدعوة للجنود المحترفين الوطنيين للتخفيف من اعباء النفقات . وكان الضباط من رتبة عقيد ونقيب هم الذين يقومون بتطويع الرجال . وقد استمر هذا النظام حتى عام ١٧٨٢ حيث احدث شوازول [2] التجنيد المباشر من قبل السلطة الملكية ، وساعد هذا الاجراء على استمرار الوحدات المقاتلة الامر الذي لم يكن معروفا حتى ذلك الوقت .

أما الميليشيات الشعبية التي لم تدع قط عهد لويس السابع فستدعى لاول مرة في عام ١٦٨٨ ثم في عام ١٧١٣ ، حيث سيشكل منها مائة كتيبة مقاتلة ، تم تجنيدها بالقرعة بين الفلاحين . والواقع ان هذه الميليشيات لم يكن لها قيمة قتالية كبيرة ، ومن سخريات القدر ان هذه الكتائب الغيت في عام ١٧٨٩ م (عند نشوب الثورة الفرنسية) باعتبارها تسيء الى الحريات العامة . وبالرغم من انها كانت النواة الاساسية للجيش الوطني لكنها لم تلعب في القرون الماضية الا دورا متواضعا جدا .

ومع ذلك فقد دعيت الميليشيات الشعبية عام ١٧٠٩ في

(١) المركيز ميشيل لوتيليه (١٦٤١ — ١٦٩١) : الامين المساعد لوزارة الحرب ، اصبح من اشهر وزراء لويس الرابع عشر : وهو الذي طور نظام التجنيد ، وصيانة الوحدات ، وانشأ نظام الترفيعات في الجيش وزود المشاة بالحربة ، ونظم وحدات الهندسة ، ومدارس الضباط .

(٢) شوازول : الدوق دو شوازول (١٧١٩ — ١٧٨٥) رجل دولة فرنسي ، وزير الشؤون الخارجية في الفترة (١٧٥٨ — ١٧٦١) ثم وزيرا للحربية (١٧٦١ — ١٧٧٠) وقد نجح في اصلاح مآسي واضرار حرب السبع سنوات . يعود الفضل اليه في عقد معاهدة الاسرة ، والحصول على منطقة اللورين ، وجزيرة كورسيكا .

مالبلاكيه [1] واستطاعت ان تعيد ذكرى امجاد المعركة التي خاضتها واحرزت النصر فيها عام ١٢١٤ م في بوفين .

وسجلت الجيوش الملكية في البلاد الاوروبية الاخرى بعض الاختلافات بالنسبة لجيش ملوك فرنسا .

ففي السويد كان جيش الملك غوستاف ادولف يتألف من المرتزقة الالمان الذين يتطوعون بعقود لمدد محدودة ، ومن عدد من الوحدات الوطنية التي تجند عادة من الفلاحين لمدة عشرين عاما ، على اساس مصادرة رجل من كل عشرة رجال بين الشباب الذين تتجاوز اعمارهم الخمسة عشر عاما .

وفي انكلترا ، كان انصار الملك من المتطوعين الذين لا يتقاضون اية اجور طيلة الحروب الداخلية ، لانهم يقاتلون انتصارا للمبدأ .. ولكن هؤلاء المتطوعين لا يعرفون الانضباط .

أما جيوش البرلمان فكانت تتألف ايضا من الانصار المتطوعين الذين يتقاضون راتبا مقطوعا ، ويدعمهم ايمانهم الديني وطهاريتهم ، وكان هؤلاء اكثر انضباطا من جنود الملك .

اما الجيش في الامبراطورية العثمانية ، فكان يتكون حول نواة دائمة من الانكشاريين . وكان العسكريون من مختلف المراتب يتقاضون رواتب

---

(١) مالبلاكيه : قرية في شمالي فرنسا .

بصورة منتظمة ، ويتلقى النخبة من القادة بعض الاقطاعات بالاراضي ، وكانت ملاكات الجيش مفتوحة للموظفين الكبار في الدولة .

وتقدم الولايات وحدات مقاتلة مساعدة عند الحاجة .

وفي المانيا ، اعد الملك سرجان البروسي والد فريدريك الثاني ، جيشا من النخبة المنتقاة بين الاصحاء جسمانيا ، وكان الجيش البروسي يجند عناصره من الكانتونات ، بموجب نظام يجمع بين التطويع الاختياري والتجنيد الالزامي .

وتجدر الاشارة الى ان تشكيل الجيش البروسي والطريقة التي سار عليها في تعبئة افراده ، كانت بداية « للجيش الوطني » الذي تكونت وحداته الكبرى مطبوعة بالطابع الاقليمي . ولما كان عدد الجنود الذين يطوعون من بين السكان غير كاف ، فقد لجأت السلطات البروسية لاكمال ملاكات الالوية من المرتزقة الاجانب .

وفي بروسيا ظهر الاهتمام لاول مرة بتحضير كوادر على مستوى عال من الكفاءة . ولذلك انشئت المدارس العسكرية للطلاب الضباط .

وسار لويس الخامس عشر ملك فرنسا على هذا النهج فأمر ببناء المدرسة الحربية كخطوة اولى نحو تكوين القادة الاكفاء لقيادة وحدات الجيش .

ب ـــ البنيات الوطنية لها جيوش وطنية

لم تر الجيوش الوطنية الحقيقية النور الا في نهاية القرن الثامن عشر . وابتداء من نشوب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، لم يعد الجندي يقاتل في سبيل الملك بل يقاتل من اجل الامة . ومع ذلك فان جميع سجلات المظالم الخاصة بالنواب في المجالس الوطنية الفرنسية ، كانت تدين التجنيد الالزامي واعتبرته « اعتداء على الحريات » .

ومع ذلك فقد اصبح التجنيد الاجباري الشكل الطبيعي لتجنيد جيوش الثورة والامبراطورية . وكان لهذه الجيوش صفة وطنية على الاقل في الفترات التي سبقت توسع الامبراطورية وزيادة تعداد الجنود الاجانب في الجيش .

والواقع ان حروب الثورة والامبراطورية دعمت الصفة الشعبية للحرب ، فأصبحت اكثر كثافة ، وتمس اعدادا كبيرة من الناس . وفيما بعد ادت صدمة القوميات تدريجيا الى الاتجاه نحو الحرب الشاملة للامم المسلحة التي تميز بها القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

كانت النوادي والمجتمعات الثورية في باريس ، هي التي أنشأت في البداية « الجيش البرجوازي » عام ١٧٨٩ ، وذلك عند تأسيس « الحرس الوطني » . وكان افراد الحرس الوطني هذا ينحدرون من البرجوازية الباريسية وينحدر بعضهم من عامة الشعب ، كما كان بعضهم من الجنود الذين يتقاضون رواتب منتظمة ويعيشون داخل الثكنات .

اما تطويع الحرس ، فيتم اراديا بموجب مرسوم صادر عن الجمعية الوطنية ، يحدد مهمة هذا الحرس بالدفاع عن حدود الوطن . وعندما ظهر الخطر على اثر اعلان اوروبا الحرب على الثورة في عام ١٧٩١ كان لا بد من العودة للتجنيد الالزامي الذي الغي في عام ١٧٨٩ .

وقد اطلق لقب « المتطوعين » على الرجال الذين تمت دعوتهم للخدمة الالزامية في عام ١٧٩٢ (او السنة الاولى من تقويم الجمهورية الفرنسية) .

وفي عام ١٧٩٣ ، كان لا بد للجمعية التأسيسية من ان تحل نفسها بعد ان اصدرت مرسوما يعلن « الوطن في خطر » ويقرر حق المصادرة والتعبئة العامة للجنود . هذا القانون الذي غناه الشاعر فيكتور هوغو بقصيدة مطلعها :

يا جنود العام الثاني للجمهورية ،

أيتها الحرب ،

يا أيتها الملحمة ،

وكان على جميع الرجال الاصحاء الذين تتراوح اعمارهم بين الثامنة عشر والاربعين ، ان ينخرطوا في الجيش ، وان تكون جميع طاقات الامة بأسرها معبأة لدعم المجهود الحربي : فقد سار الرجال والشيوخ والاطفال والنساء الى الساحات العامة ليثيروا حماس وشجاعة الجنود .

قام بتنظيم الجيش الثوري لازار كارنو عضو لجنة الانقاذ الوطني [١] ، وذلك بمزج المجندين الجدد مع من تبقى من عناصر الجيش الملكي .

وقد صقلت المعارك هذا الجيش الجمهوري الحديث ولكن قدرته على المناورة كانت محدودة ولم تساعده على خوض عمليات كبرى .

ويمكن القول ان نظام التعبئة العامة للامة لايزال يجد من ينادي به حتى في ايامنا الحاضرة .

وفي ايلول ١٧٩٨ قررت الجمعية الوطنية الفرنسية احداث التجنيد العام ، وذلك بطريقة الدعوة السنوية للمكلفين بالجندية على اساس « القرعة » التي تحددها السن ، ونص هذا القانون نفسه على امكانية التطويع الاختياري الذي يكمل التجنيد الاجباري للرجال بين سن العشرين والخامسة والعشرين .

وقد تم تعبئة جيوش الامبراطورية على هذا الأساس ولوحظ زيادة عدد الفارين من الجندية في نهاية العهد الامبراطوري [٢] .

وبعد سقوط الامبراطورية ، عادت فرنسا تدريجيا الى الجيش

---

(١) كارنو لازار : استاذ رياضيات (١٧٥٣ — ١٨٢٣) وأحد مؤسسي علم الهندسة الحديث . وقد اصبح عضوا في لجنة الانقاذ الوطني بعد نشوب الثورة الفرنسية ، واشرف على تنظيم الجيش الجمهوري الرابع عشر ، ووضع جميع الخطط الحربية ، واطلق عليه اسم « منظم لنصر » .

(٢) ويقصد بالعهد الامبراطوري هنا : الفترة التي اعلن فيها نابليون الأول نفسه امبراطورا .

المتطوع ، ولم تستأنف العمل بالخدمة الالزامية (او الجيش الوطني) الا بعد هزيمة حرب (١٨٧٠) .

وفي بقية اوروبا تبنت الدولة صيغا مختلفة . ففي روسيا القيصرية لم تكن الخدمة العسكرية بالنسبة للفلاحين سوى استمرارا للعبودية ، وفي الامبراطورية النمساوية ، كان التجنيد يشمل جميع القوميات لذلك كان الجيش النمساوي قليل الانسجام ولكنه يجسد تنوع الدولة . اما بريطانيا العظمى فقد رفضت جميع انواع الخدمة الالزامية وشكلت جيشها من المتطوعين لمدد طويلة . وانفردت بروسيا بعد معركة يينا بارساء قواعد الجيش الوطني الحديث ، الذي كان سببا في تفوقها عام ١٨٦٦ وعام ١٨٧٠م .

وعندما نشبت الحرب الاهلية في الولايات المتحدة الامريكية كان الجيش الاتحادي قليل العدد ويتألف من المتطوعين فقط . ومع استمرار الحرب لجأ الطرفان المتحاربان (الشماليون والجنوبيون) لدعوة جميع الراغبين بالخدمة لانشاء جيوشهما ، وكانت الدعوة لفترة محدودة .

وفي عام ١٨٦٥ عندما قامت الدولة الاتحادية الامريكية تبنت نظام الجيش المحترف .

وهكذا نرى انه حتى عام ١٨٧٠ لم يكن تشابها في اساليب تجنيد الجيوش في مختلف الدول ، ولكن تنظيم المجتمع الصناعي ، والشروط الاقتصادية والنزاعات والتوسع الاستعماري ادى الى خلق تيار جديد

لتنظيم الجيوش : فقد تبنت معظم الدول نظام الخدمة العامة ، مع تخفيض مدة الخدمة العسكرية . ولم يعد هناك ميليشيات مطلقا بل « جيوشا وطنية » تشمل خدمتها جميع المواطنين ، كما اعتمدت معظم الدول في تنظيم جيوشها على نواة اساسية من الكوادر والوحدات المحترفة التي تعتبر بمثابة عمود فقري للجيش ، وبدأت بذلك « مرحلة الامة تحت السلاح » التي تميزت بها حروب القرن العشرين .

الحرب الصناعية والتعبئة العامة

اجبرت ظروف الحربين العالميتين الاولى والثانية جميع الدول المشتركة في الصراع بما في ذلك التي لم تكن تعرف الخدمة الالزامية ، على اللجوء الى اعلان التعبئة الشاملة لجميع الموارد البشرية والصناعية والاقتصادية .

ومنذ عام ١٩١٤ تبين ان جيوش السلم ليست كافية لحماية الجبهات الواسعة التي امتدت الى مختلف مسارح العمليات . لذلك بادرت الدول المتحاربة لدعوة الاحتياطيين الذين سبق لهم ان خدموا في الجيش ، فضاعف ذلك تعداد الجيوش ، ولكن حاجة المقاتلين للعتاد والاسلحة والذخائر اضطر الدول لتعبئة عدد هائل من العمال في المصانع ، بل كان لا بد من دعوة اليد العاملة النسائية لاكمال الملاكات الضرورية في المصانع بعد ان تم سوق بعض العمال للخدمة الميدانية .

وفي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) تطورت القوات المسلحة واصبحت شديدة التعقيد ، وتطلبت المزيد من العتاد من جهة والاختصاصيين الاكفاء من جهة اخرى . وعلى سبيل المثال كان مقاتل واحد في الجبهة يحتاج الى عشرات الاشخاص على امتداد حلقة التموين ، وذلك لتأمين تصنيع ونقل وتكديس وصيانة الاعتدة المتزايدة والمتنوعة باستمرار ، كما احتاج الامر منذ بداية الحرب لدعوة النساء للخدمات العسكرية في الاركان العامة ، والمستشفيات وسلاح الاشارة والنقل ومعظم الادارات في المؤخرات ، وهكذا شهدت الحرب الثانية « الامة تحت السلاح » بالفعل .

وبعد انتهاء الحرب ، عادت الجيوش فتقلص تعدادها الى المستوى الذي كانت عليه في زمن السلم تقريبا ، وعادت هذه الجيوش الى طريقة التجنيد التقليدي .

ومع ذلك كان لا بد من ان تبقي الكثير من الاعمال في ايدي الاختصاصيين الذين لا يمكن تكوينهم خلال فترة الخدمة الالزامية القصيرة . ولهذا بدأ الاتجاه نحو اعادة تنظيم الجيوش بصورة تكون معها قليلة العدد عالية الكفاءة يتزايد فيها عدد الاختصاصيين المحترفين يوما بعد يوم على ان مهمة الدفاع عن الاوطان بقيت من واجب جميع المواطنين في حالة قيام تهديد حقيقي . ولهذا تبنت الدول صيغا مختلفة للتعبئة بما يتناسب مع موقعها الجغرافي وانظمتها الاجتماعية والسياسية وتقاليدها ، وعلاقاتها الدولية .

الـروح المدنيــة والوطنيــة

لقد لاحظنا ان « التجنيد » تطور خلال قرون عديدة بما يتلاءم مع الانظمة الاجتماعية والسياسية ومعطيات الزمان ، ولم يكن هذا التطور يسير على وتائر منتظمة بل كان يتم على شكل قفزات الى الامام ثم عودة الى الوراء ، ففترات من السكون ، واحيانا تسارع غير منتظر .. وحلت التصرفات الجماعية المنسقة للمدن والممالك والامبراطوريات ، محل الاعمال الفوضوية الفردية والعفوية التي كانت تعرف في عصور القبائل البدائية . وأدى تصاعد الروح المدنية في بعض الازمنة ، الى ان تهب الشعوب بكاملها للمساهمة في الدفاع عن المدينة او الدولة (الوطن) ، واصبح المختصون (الحرفيون) ضروريين للجيوش من اجل القيام بالحملات الطويلة الامد ، كما تزداد اهميتهم عندما تنخفض الروح المدنية الجماعية ، في بعض الانظمة .

ومن الجدير بالذكر ان الانسان عامة لا يقاتل الا من اجل قضية يشعر بأنها كامنة في وجدانه ، كالايمان إلديني ، والشعور القومي والايديولوجية التي تنغرس في النفوس لتصبح في مستوى العقيدة .

واخيرا فانه مهما كانت طريقة التجنيد فان الجيوش لا قيمة لها الا اذا كان المقاتلين (الجنود) يؤمنون ايمانا وطيدا بأن هناك شيئا يستحق منهم الدفاع عنه ، كأرض الوطن ومستوى المعيشة ، وطريقة التفكير والحضارة .

ج ــ التنظيم

يبدو انه لم يكن لدى القبائل والاقوام البدائية تشكيلات معينة للقتال ، ومما لا شك فيه ان المحاربين كانوا يخضعون لخطة حربية ما يضعها قائدهم ، ولكن المعارك كانت تجري بالنظام المنتشر ، وكل فرد يتصرف بغريزته ووحي اللحظة التي يمر فيها .

ولم يكن القتال سوى سلسلة من الاعمال الفردية ، لان الجماعات المقاتلة لم تشكل جيشا حقيقيا او وحدات منتظمة .

التشكيلات بالنظام المنضم

ظهر الجيش المنظم على اساس نموذج محدد ، مع نشوء المدن والدول . وأدت طبيعة التسليح والمفاهيم المعروفة في تلك الازمنة الى تبني تشكيلات متماسكة ونظام منضم ، للمحافظة على الانسجام واعطاء الصدام القوة الضرورية . وكانت التشكيلات المقاتلة تتحرك كتلة واحدة فوق مساحات محدودة من الارض .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد ، كانت الكتائب اللاسيديمونية تضم (٢٠٠٠) جندي من المشاة الثقيلة ، وتشغل عادة مساحة من الارض جبهتها (٥٢) مترا وعمقها ٦ متر ما لكتيبة المكدونيه فتضاعف عددها ، وازدادت اعداد تمرس على الارض

اما الجحفل الروماني فقد ازداد تعداده خلال اربعة قرون ق . م من (٣٠٠٠) الى (٦٠٠٠) جندي مشاة . وبقي تشكيله متماسكا ، وتحولت جبهة التشكيل على الارض من (٩٠٠) الى (٢٠٠٠) متر . أما عمق التشكيل فكان يتراوح بين (١٠٠ الى ٣٠٠) متر .

وتجدر الاشارة الى ان هذا التشكيل لا يمكن ان يتجزأ خلال المعركة ، وذلك للمحافظة على الانضباط وتجنب الفوضى وتفشي الذعر في الظروف المأساوية .

وفي العصور الوسيطة تبنت وحدات المشاة السويسرية والاسبانية ، التشكيلات المتراصة [1] ، لكي تستطيع الصمود امام خيالة العدو .

والواقع ان هذا النوع من التشكيلات المتراصة تصلح للقتال القائم على الصدام المباشر بين المقاتلين ، وقد ظل صالحا في المراحل التي كانت فيها الاسلحة مقصورة على السلاح الابيض (السيوف والرماح الخ) .

وعندما ظهرت الاسلحة النارية ، كانت نتائج المعارك التي خاضتها الوحدات بالتشكيلات المتراصة مأساوية بسبب ارتفاع نسبة الخسائر بالارواح .

ففي عام ١٧٤٥ حشد الانكليز عشرة الاف رجل في معركة

---

(١) التشكيلات المتراصة : هي تشكيلات [illegible] تستخدمها [illegible] في العرض والاستعراض [illegible] معرب) .

فونتينبيو ، (بالنظام المتراص) فكانت النتيجة الهزيمة بعد ان تكبدوا خسائر فادحة جدا بتأثير نيران الاسلحة الموجهة توجيها جيدا .

وفي معركة واغرام عام ١٨٠٩ ، جلت الهزيمة النكراء بقوات ماكدونالد لان كتائبه شنت هجومها بتشكيلات متلاحمة ، وبلغ عدد القتلى (٦٠٠٠) رجل من مجموع القوات الذي لا يزيد عن (٩٠٠٠) رجل .

وفي القرون الوسطى ، كان فرسان الاقطاع يقاتلون بالتشكيلات المتراصة ، لاعتقادهم لن الكتلة التي يشكلها الخيول والرجال المدججين بالسلاح تشكل قوة صدم هائلة قادرة على زعزعة ترتيب العدو واحداث الثغرات فيه واختراقه .

ولم يكن هذا النظام مطبقا في جميع الحالات خاصية عندما تكون التشكيلات الدفاعية على مستوي عال من القدرة القتالية ، وتمتلك اسلحة من انواع جيدة .

وتجدر الأشارة الى ان القوات الالمانية استخدمت في الحرب العالمية الثانية اثناء القتال على الجبهة الروسية في عام ١٩٤٣ تشكيلات مدرعة كثيفة ، لاقتحام مواقع السوفييت الدفاعية ، وكانت هذه التشكيلات تتألف من : دبابات ثقيلة في المقدمة ، وعلى الجوانب ، وفي وسط التشكيل تتحرك وحدات المشاة المرافقة للمدرعات والتي اطلق عليها اسم « الحرس المدرع » .

وبعد ان كانت الجيوش لفترة طويلة قليلة العدد ، تخوض المعارك بتشكيلات متراصة (على شكل كراديس) اخذت الدول الكبرى والامبراطوريات في العصور القديمة تنشيء جيوشا ضخمة ، واضبحت هذه الجيوش تتشكل على الوجه التالي في ساحات المعارك : مقدمة وقلب واجنحة ومؤخرة . ومع ذلك بقي الجيش تحت أمرة قائد واحد يغطي ببصره ساحة المعركة بكاملها . واستمرت هذه التشكيلات الجديدة عدة قرون ، وكانت الجيوش في هذه الفترة تتحرك وتقاتل كتلة واحدة مما حدد امكانياتها على الحركة والمناورة .

اما الجيوش المغولية العظيمة فقد عرفت كيف تجتاز المسافات الشاسعة بمهارة وكفاءة منقطعة النظير . واعطت صورة عما يمكن ان تكون عليه مناورة الوحدات المدرعة في العصور الحديثة كما يقول الخبير العسكري البريطاني ليدل هارت .

وتجدر الاشارة الى ان ظهور المدفعية في اوروبا لم يحمل معه اي تبديل في تشكيلات القتال .

تشكيلات الفرق

كان لا بد من الانتظار حتى منتصف القرن الثامن عشر لمشاهدة التحول الحاسم في تنظيم الجيوش الذي يعتبر بداية عصر جديد في مجال المناورة .

وترجع فكرة تقسيم الجيش الي « فرق » من اجل تسهيل التنقلات والحركة في ساحات المعارك ، للمارشال دوبروغلي . ففي عام ١٧٥٩ قام هذا المارشال بتقسيم جيشه الى مجموعات تحتوي كل منها على الاسلحة الرئيسية الثلاث : المشاة والخيالة والمدفعية . وكانت غايته من هذا التشكيل ان تكون كل مجموعة قادرة على العيش والقتال بمفردها ، وان تتبادل الدعم والتعاون بنفس الوقت مع غيرها للقيام بمناورة شاملة تحت اشراف قيادة الجيش . وهكذا ظهرت فكرة « الفرقة » لاول مرة .

وفي الحرب الايطالية اشتهر نابليون بونابرت عام ١٧٩٦ في ادارة مناورات الفرق ، تجاه عدو لا يزال يتمسك بالتشكيلات الصلبة القديمة .

ولم يمض زمن طويل حتى تبنت الجيوش المعروفة الاخرى نظام الفرق .

وأدت بعض الاعتبارات والظروف الاخرى الى تنظيم التعاون ، ليس بين مختلف صنوف الاسلحة فحسب بل وبين القوات المسلحة البرية والبحرية والجوية .

وفي الجيوش الحديثة الآن تعاون لا مندوحة عنه ، وهو يتطلب صيغا جديدة لتحقيقه على الوجه الاكمل ، ذلك هو تعاون القوات المختلفة في العمليات المشتركة .

وقد اصبحت جيوش الدول العظمى في هذه الايام كتلا هائلة من البشر والعتاد تغطي مساحات شاسعة على مستوى القارات . كما اصبحت

متنوعة الى اقصى الحدود وتغطي الابعاد الطبيعية الثلاث : (سطح الارض ، واعماق البحر ، والفضاء الخارجي) .

وبالرغم من كل التقدم الذي انجز في جميع الميادين التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والايديولوجية .. وبالرغم من كل الوسائل التي اصبحت في حوزة الانسان ، الا انه هو « أي الانسان » يبقى العنصر الاساسي في الكون . ومن الواجب ان تكون غاية جميع التنظيمات والوسائل ايجاد الظروف الملائمة للانسان لكي تتفتح جميع ملكاته ومواهبه وتمكنه من التعبير عن اسمى قيمه ، وهذا يعني ان الانسان يبقى الوسيلة والغاية في كل الحروب والنزاعات في كل زمان ومكان .

وفي هذا يقول اردانت دوبيك [1] : « ان الانسان الذي يحمل لقب وشرف حضارة ما بثقافتها وتقنياتها يتحمل واجب الدفاع عنها في الصراعات المحلية والخارجية التي تعترض حضارته ... » .

د ـــ القيادة

القيادة المدنية والقيادة العسكرية

ظلت الجيوش زمنا طويلا خاضعة لقيادة رجال لم يكونوا مهيئين لهذه المهمة . وفي الاقوام البدائية ، كانت القيادة في الحروب ، تعطى

---

(١) اردانت دوبيك : كاتب عسكري فرنسي ولد في مدينة بيرينيه (١٨٢١ ـــ ١٨٧٠) ، وكان لمؤلفاته تأثيرا كبيرا على الجيش في عام ١٩١٤ .

للرجل الاقوى والاكثر شجاعة ، واحيانا للرجل الذي تميز بالذكاء والمهارة . وكانت الصفات الجسمانية المدعومة بشيء من الذكاء ، تكفي لتجعل من الرجل قائدا مقبولا .

وفي اغلب الاحيان كان قائد القبيلة هو نفسه القائد العسكري طالما ان السن ، لم يضعف قواه الجسمانية . ومع مرور الزمن تبين لبني البشر أن التأهيل المتقدم ضروري جدا من اجل قيادة المقاتلين في الصدامات المحدودة الكثيرة الحدوث .

وفي المجتمعات الكهنوتية القديمة ، كان حق قيادة جيش المدينة المستقلة ، والدولة والامبراطورية ، محصورا في الكاهن ـــ الملك الذي يمثل الالهة على الارض .

وكان فرعون مصر ، وملوك اشور وبابل وفارس ، دائما ، على رأس جيوشهم كفاتحين وغزاة يتجابهون في ساحات المعارك . وتدل الكتابات والصور المنقوشة فوق الاثار القديمة على انتصارات المحاربين العظام من امثال اشور بانيبال ، ونبوخذ نصر ، وغيرهم من القادة الذين اشتهروا في تلك الازمنة وتوحي لنا هذه الكتابات ، بأن جميع هؤلاء القادة العسكريين ، كانوا ابطالا مرعبين ، يبيدون خصومهم المغلوبين ، ويدمرون مدنهم ويستولون على ثرواتهم ومواطنيهم . وهذه الصورة هي اقرب لصور « الطغاة » منها الى صور الجندي الشجاع .

أما الاسماء المشهورة التي خلفها لنا التاريخ القديم مثل : سيروس

الفارسي ، والأسكندر المكدوني ، وغيرهم ... ليست سوى اسماء ملوك استولوا على امبراطوريات واسعة بقيادة عسكريين كانوا دائما على رأس جيوشهم .

وكان الاسكندر الاكبر ، قائدا حربيا ، وهو في سن العشرين وهو يمثل في ايامنا النموذج الكامل للفاتح العظيم .. وكانت عبقريته العسكرية والسياسية الخارقة ، كافية في ذلك الزمان لتؤمن له التفوق البارز على خصومه الذين لم يكونوا في مستوى كفاءاته وذكائه .

وقد عرف التاريخ زعماء لشعوب اخرى اثبتوا عمليا انهم من اعظم القادة الفاتحين ، ومن هؤلاء جنكيزخان وتيمورلنك اللذان عرفا كيف ينظمان ويقودان جيوشا جرارة كبيرة العدد محمولة على الجياد ، ويقطعا بها الفيافي الاسيوية الشاسعة واراضي القارة الأوروبية التي تغطيها الغابات والمستنقعات والانهار .

وكان الملوك في اوروبا ، لفترة طويلة من الزمن ، قادة للجيوش ، ومن الامثلة على ذلك : فيليب اوغست في معركة بوفين ، وسانت لويس في الحرب الصليبية ، وحنا الطيب ، (الذي اسر في معركة بواتييه ، وهو في وسط وحداته الخيالة) ، وفرانسوا الاول (الذي اسر ايضا في معركة خاسرة) ، كل هؤلاء الملوك قادوا بأنفسهم جيوشهم في القتال . ولم تكن قيادتهم لهذه الجيوش ، قيادة شكلية ، كما سيحصل فيما بعد ، ولكنها قيادة فعلية ومباشرة ، يمارسها صاحب السلطة الملكية ويتحمل مسؤولياتها .

وكان الامر كذلك بالنسبة لغوستاف ادولف ، وشارل الثاني (ملوك السويد) ، اللذان اظهرا كفاءة ومهارة فائقتين في ساحات المعارك ، وادخلا تجديدات هامة بالتقنية والتكتيك العسكري .

والواقع ان معظم الملوك في تلك الازمنة رفضوا ممارسة القيادة الفعلية في ساحة المعركة ، واحتفظوا لانفسهم بصلاحيات القائد العام للجيش .

ومن المعروف ان ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، شهد عمليات الحصار الذي قادها المارشال فوبان ، كما حضر عملية عبور نهر الرين التي قادها الجنرال تورين . وشهد لويس الخامس عشر معركة فونتينوا التي كان يقودها المارشال دوساكس . وكذلك فعل كل من غليوم الاول وغليوم الثاني (ملوك المانيا) اللذان ارتديا بذة الجنرال واقاما في مقر القيادة العامة للجيش ، ولكنهما تركا القيادة الفعلية المباشرة للجنرالات ليقودوا المعارك باسم الامبراطور .

وفي روسيا القيصرية ، لم يكن القيصر نيكولا الثاني يتمتع بهذا القدر من الحكمة ، فاحتفظ لنفسه بمسؤوليات القيادة العسكرية المباشرة طيلة الحرب العالمية الاولى (وكانت النتيجة الكارثة التي حلت به وبأسرته) .

وهناك بعض رؤساء الدول الاخرين مثل فريدريك الثاني ، ونابليون وهتلر ، وستالين ، مارسوا في ظروف مختلفة تماما ، هذه المسؤولية المزدوجة السياسية والعسكرية .

والواقع ان نابليون كان جنرالا في الجيش قبل ان يكون رئيسا للدولة ، ثم اصبح بفضل عبقريته الاستثنائية ، قائدا سياسيا وقائدا عسكريا . فكان يعد الحروب كزعيم سياسي ثم يقود العمليات الحربية بمهارة خارقة كقائد عسكري .

وفي عهد ستالين ، اصبحت الظروف مختلفة تماماً عن الماضي ، فقد كان بالفعل المفوض السياسي الاعلى للجيوش ، ويشرف على قيادة العمليات وكان بنفس الوقت القائد السياسي بلا منازع .

ولكن اتساع مناطق العمليات في العصر الحديث ، ادى الى تطور اساليب القيادة ، فلم يعد بالامكان قيادة العمليات الفعلية على الارض كما فعل نابليون . لذلك كان ستالين يتصور وينظم ويدير هذه العمليات الكبرى في مكتبه ، يساعده في ذلك بعض القادة العسكريين الاكفاء ، غير ان السلطة الكاملة كانت بين يديه شخصيا في المجالين : المدني والعسكري ، لكي يتمكن من ادارة الحرب بكاملها .

أما هتلر ، فكان ايضا رئيسا للدول وقائدا أعلى للجيش الالماني ولكنه ، سار على مفهوم مختلف تماما عن مفهوم ستالين للقيادة . فلم يكتف بان يكون القائد السياسي المطلق الصلاحية بل والقائد الاعلى للقوات المسلحة ، يتدخل في اكثر الامور التفصيلية الدقيقة في العمليات ، بينما كان ستالين يترك للجنرالات مسؤوليات واسعة في قيادة العمليات البرية والجوية والبحرية .

وقد أدى هذا الاسلوب الى خلق البلبلة في القيادة وادت الى قيام اوضاع معقدة صعبة بسبب شخصية الفوهرر النادرة وشذوذه كدكتاتور ، مطلق الصلاحية ، فقد الرؤية الشاملة للعمل السياسي والعسكري وأغرق نفسه وأضاع كل امكانياته في التفاصيل التافهة .

اما الدول الديمقراطية ، فقد أوجدت صيغة مختلفة تماما عن النماذج المذكورة ، في القيادة العسكرية .

ففي العصور القديمة ، كان المواطنون اليونان والرومان يشاركون مشاركة فعالة في مختلف مسؤوليات السلطة الدينية والعسكرية .

وفي اثينا كانت القيادة العسكرية ، تعطى لرجال الحرب الذين ينتخبهم المواطنون لمدد محدودة (لا تزيد عن السنة في اغلب الاحيان) .. ومع ذلك فقد اعيد انتخاب بيريكليس (1) لقيادة الجيش خلال خمسة عشرة عاما متوالية وقد تم ذلك في ظروف عظيمة الاهمية وفريدة من نوعها .

وفي روما كان القناصل ، الذين ينتخبون لمدة سنة واحدة يتولون

---

(1) بيريكلس : رجل دولة من اثينا (٤٩٥ ـــ ٤٢٩) ق . م . اصبح في عام ٤٥٩ ق . م رئيسا للحزب الديمقراطي ، وكانت له شعبية واسعة في اثينا فتم انتخابه كقائد للجيش (استراتيجي) خمسة عشر عاما متتالية (٤٤٣ ـــ ٤٢٩) فدعم الطبيعة الديمقراطية للدولة . وبعد اتفاقية السلام مع اسبارطة التي دامت ثلاثين عاما استطاع ان يبني قوة اتينا البحرية والاستعمارية في اطار الاتحاد الاثيني . وازدهر في عهده الفن والادب ، والعمران ، واصبح اسمه يدل على القرن الذي عاش فيه لان الاغريق بلغوا الذروة في هذه المرحلة .

قيادة الجحافل الرومانية . وكان هؤلاء يقومون بهذه المهمة بكل اخلاص وتغمرهم السعادة بهذا الشرف الذي اولاه المواطنون لهم .. وقد اظهر القنصل سيزار عبقرية خارقة واحتفظ بالقيادة لعدة سنوات في بلاد الغول (فرنسا) الامر الذي هيأ له الظروف الملائمة للوصول الى السلطة العليا في روما .

فصل السلطة السياسية عن السلطة العسكرية

كان لا بد من القيام بقفزة عظيمة طولها عشرين قرنا ، لكي يمكن ايجاد شكلا من الحكم يمكن مقارنته نظريا بالديمقراطيات القديمة .

والواقع ان رؤساء الدول في الامم الحديثة ، هم بنفس الوقت زعماء سياسيين وعسكريين ، ولكنهم لا يمارسون صلاحياتهم العسكرية الا من خلال القادة العسكريين المحترفين الذين تلقوا تدريبا مهنيا يؤهلهم لهذه المهمة الفنية المعقدة واثبتوا خلال ممارساتهم الفعلية للقيادة في الوحدات العسكرية كفاءة استحقوا عليها الرتبة التي يحملونها . فالحقيقة ان تطور الجيوش الحديثة ، وتنوع الاسلحة ، وصعوبة استخداماتها ، بالاضافة الى اتساع مسارح العمليات وانتشار الجيوش والقواعد العسكرية على مسافات شاسعة تغطي احيانا اجزاء كبيرة من الكرة الارضية ، كل ذلك جعل من الضروري اعطاء صلاحيات القيادة العسكرية للاختصاصيين تحت الاشراف المباشر للقيادات السياسية .

ومع ذلك تبقى القيادات العليا السياسية والعسكرية ، مترابطتان الى اقصى الحدود . واصبح هذا الترابط اكثر بروزا عندما اضطرت الظروف الدولية الراهنة ، للتجمع في احلاف عسكرية منذ ايام السلم في الحربين العالميتين الاخيرتين ، وحيث اصبح من الضروري على كل دولة ان تتنازل عن جزء من صلاحياتها لصالح « الحلف » .

وفي الايام الراهنة اصبحت المشاكل المطروحة (على الدول) شديدة التعقيد وحلولها تستوجب معلومات وايضاحات في منتهى الدقة والصحة . ولهذا اخذ رؤساء الدول يحتفظون بهيئة اركان مشتركة تساعدهم على ايجاد الحلول للمشاكل التي لها صلة بالجيوش والنزاعات المسلحة . وهكذا كان الامر بالنسبة لرئيس الولايات المتحدة روزفلت ، ورئيس الوزارة البريطانية ونستون تشرشل طيلة الحرب العالمية الثانية .

والواقع ايضا ان التحالفات بين الدول ليست شيئا بسيطا لان كل دولة من الدول المتحالفة لها مصالحها الخاصة ، ومن الصعب جدا التوفيق بين مصالح جميع الاعضاء . ففي الحرب العالمية الاولى عانى المارشال فوش المكلف بالتنسيق بين الجيوش الحليفة ، الامرين للقيام بهذه المهمة المستحيلة ، وقد عبر عن هذه المعاناة عندما قال : « انني افهم الآن اكثر من اي وقت مضى اسباب انتصارات نابليون .. » وهو يشير في هذا الى ضرورة وحدة القيادة في الحروب ، وصعوبة التنسيق بين مصالح وآراء الحلفاء .

وهكذا نرى ، انه بينما كان بالامكان خلال الاف السنين اسناد

قيادة الجيش لاشخاص لم يسبق لهم اي تأهيل خاص لهذه المهمة ، وكل ما يتمتعون به هو كفاءتهم الفطرية وقوتهم الجسمانية ، ومهارتهم في ساحة المعركة .. اصبحت الجيوش الحديثة من التنوع والتعقيد ، تستوجب ان يكون القادة في مختلف المستويات والرتب ، ممن تلقوا تأهيلا جيدا في مدارس ودورات عسكرية خاصة ، تزداد تعقيدا ودقة يوما بعد يوم .

وقد انقضى الزمن الذي كانت فيه الشجاعة وبعض المهارة كافية لقيادة الجيوش ، واصبح من الضروري ان يكون القادة على مستوى عال يمكنهم من السيطرة على التقنيات الحديثة .

اما على المستويات العليا فلا بد من توفر الكفاءة والثقة والانسجام الكامل بين القائد السياسي وهيئة اركانه وخاصة القائد العام للجيش والقوات المسلحة .

والخلاصة فانه مهما اكتسبت الحرب مزيدا من الصفات العلمية والتكنولوجية ، فانها ستبقى فنا يحتل فيه القائد مكانا رئيسيا . والحرب في الحقيقة « واقع اجتماعي » يستمد قواعده العميقة من طبيعة الشعوب نفسها ، ومن بنياتها السياسية وتنظيمها الاجتماعي والاقتصادي .

واخيرا فان « ادارة الحرب » على الرغم من انها تتطلب من القادة صفاتا استثنائية فقد كانت ولا تزال وستبقى دائما « واقعا حضاريا » .



الفصل الخامس عشر

نحو آفاق عـام ٢٠٠٠ م

التغيير في العصر النووي ــــ الفضائي

الانفجارات الثلاث

منذ عام ١٩٤٥ ، دخل العالم في « عصر الكوارث » ، أي « عصر الذرة والفضاء » ، وذلك نتيجة لتأثير الجهود الموحدة للانفجارات الثلاث التي تهدد مستقبله بأعظم المخاطر .

وأول هذه الانفجارات الثلاث : هو التفجير النووي ، الذي وقع لاول مرة بتاريخ ١٦ تموز ١٩٤٥ في صحراء لوس الاموس التابعة لولاية نيومكسيكو في الولايات المتحدة الامريكية . وكانت اول قنبلة ذرية هي التي استخدمتها الولايات المتحدة فوق مدينة هيروشيما اليابانية بتاريخ ٦ آب ١٩٤٥ ،(وأدت دفعة واحدة الى استسلام اليابان) . وفي عام ١٩٥٢ استطاعت الولايات المتحدة الامريكية الوصول الى امتلاك القوة الحرورية النووية او ما يسمى بالقنبلة الهيدروجينية .

وبعد ذلك بعام واحد فجر الاتحاد السوفياتي اول قنبلة نووية وانهى بذلك احتكار السلاح النووي الامريكي الذي استمر حوالي عشر سنوات .

ومما لا شك فيه ان المأساة الكبرى بالنسبة للبشرية ان الانسان لم يتوصل الى اختراع الطاقة النووية في فترة السلم ، وهو يسعى للبحث عن وسائل تساعده على تحقيق اهدافه السلمية ، وشاءت الظروف آن تجعل هذا الاكتشاف الرهيب في زمن الحرب ، وان يستخدم في الاعمال الحربية .

والانفجار الثاني : هو اطلاق الصواريخ ذات القوة التي تسمح بغزو الفضاء ، وكان اول صاروخ من هذا النوع هو الذي قذفه السوفييت وحمل معه اول قمر صناعي ، اطلق عليه اسم « سبوتنيك » في ٤ تشرين الاول ١٩٥٧ .

اما الانفجار الثالث : فهو التفجر السكاني ، والديمغرافية العالمية ، والذي بلغ ذروته في الخمسينات من هذا القرن ، في بلدان العالم الثالث .

وبعد هذه الاحداث الثلاث ، اصبح لدى البشرية قدرة مثلثة للبنقل والتدمير والخلق لا مثيل لها في القرون العديدة السابقة ، حيث بقيت هذه الطاقات بمجموعها محدودة ومتوازنة .

أما الآن فقد عرفت البشرية تغييرا جوهريا جديدا لا تزال مدته وآثاره مجهولة في جزئها الاعظم .

القــوى النوويــة

لقد ضاعفت الاسلحة المتطورة الحديثة النووية ، والبيولوجية

والكيماوية او المناخية ، القدرة التدميرية بنسب هائلة لم يسبق لها مثيل .

وبتاريخ ١ كانون الثاني ١٩٨٠ اقام البابا يوحنا بولص الثاني صلاة خاصة في كاتدرائية القديس بطرس ، شرح فيها الدمار الرهيب الذي سيترتب على الحرب النووية المحدودة ، معتمدا على التقرير الذي قدمه اليه عدد من العلماء الذين اجتمعوا في اكاديمية العلوم التابعة للفاتيكان . ومما جاء في كلمته بهذه المناسبة :

« ان عدد القتلى الذي سينتج عن الانفجارات النووية مباشرة او بصورة غير مباشرة ، يتراوح بين (٥٠ الى ٢٠٠) مليون نسمة .

وسوف تتناقص الموارد الغذائية بصورة مذهلة بسبب الاشعاعات الذرية التي تنتشر فوق سطح الارض .

وسوف يترتب على التفجيرات النووية تغييرات وراثية بالنسبة للبشر والحيوان والنبات لا يمكن التنبؤ بها .

واذا ما قدر لمدينة ما ان تكون ضحية لانفجار نووي مباشر فستدمر فيها جميع مرافق الخدمات العامة ، وسيشل الرعب جميع الامكانيات المخصصة للنجدة والاسعاف ، وتسيطر على السكان الاحياء حالة من الذعر الذي يشبه الكابوس المزعج من الصعب ان يتحرروا منها » [٢] .

---

(١) يقدر الخبراء الطاقة الاجمالية المخزونة للاسلحة النووية الموجودة في العالم في عام ١٩٧٩ بما يكفي لابادة مئات الملايين من البشر وتدمير معظم المدن العالمية الكبرى ، وهذا يعني اصابة الحضارات القائمة بجرح مميت لا يمكن شفاؤه .

واخيرا لن يقتصر الدمار على دولة واحدة او عدة دول او امبراطوريات بل ستصاب الحضارات الكونية في منجزاتها الحية ابلغ اصابة .

ويوضح الاستاذ جان هامبرغر في كتابه بعنوان « القوة والهشاشة » الذي نشر في عام ١٩٧٢ : « ان وجود الحياة البشرية بالذات فوق الكرة الارضية ، سيكون معرضا لاعظم الاخطار .

ويزداد الخطر ايضا لان الارهاب النووي يمكن ان يكون في آخر الامر مفجرا لـ « قيامة نووية حقيقية » كما قال العالم المعروف جان غيتون [١] .

تطــور وظـائف الحــروب

يبدو ان الحرب كانت ولا تزال حتى ايامنا هذه تقوم اساسا بستة وظائف رئيسية هي :

١ ــ التدمير الديمغرافي ــ الاقتصادي لحياة البشر والثروات المادية والنشاطات من كل الانواع .

(١) جان غيتون : في المقال الذي نشره في صحيفة الفيجارو الفرنسية بعددها الصادر في ١٣ كانون ثاني ١٩٧٣ ، تحت عنوان « القرصنة والذرة » .

٢ ـــ المقامرة للحصول على ارباح كبيرة مقابل خسائر محدودة بالاعتماد على احتمال كبير في النجاح .
٣ ـــ المزج بين اللعب والمغامرة .
٤ ـــ تعديل التوازن السياسي الداخلي والدولي .
٥ ـــ تغيير البنى (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) .
٦ ـــ تجربة الاسلحة والعتاد والتقنيات والتكتيكات الحديثة .

وقد كان للحرب النووية بمجرد التهديد بها وحده ، تأثيراً كبيراً على جميع هذه الوظائف .

فوظيفة « التدمير » رفعت الى درجة اصبح معها اصلاح الاضرار الناتجة عن الحرب النووية امرا مشكوكا فيه (وهميا) ، كما لا يمكن التأكد من امكانية اجراء حساب عقلاني نظري ، لنتائج الحرب ، لان المنتصر نفسه ستكون اصاباته بليغة جدا في قوته (موارد عيشه) ومنجزاته الحيوية ، بل سيكون تحت رحمة قوة ثالثة محايدة بقيت بمنجاة من الكارثة ، او مهددا بالثورات الداخلية الناتجة عن الفوضى التي تعم البلاد بسبب اهوال الحرب .

اما وظيفة « اللعب » فلم يعد بالامكان الحديث عنها عندما يتم التدمير المتبادل بغتة وخلال ساعات محدودة ، ودون علم الجماهير ، وبدون توفر الوقت الضروري للمغامرة .

وبالنسبة للتوازنات الداخلية والخارجية ، فسوف تتأثر بشكل عميق ، كما ستتأثر البنيات المختلفة بحيث يصبح من المستحيل تحولها .

واخيرا الوظيفة التجريبية (للاسلحة والعتاد والتقنيات)ـــمن الصعب تصورها [1] .

ومن المؤكد اننا نجد انفسنا اليوم امام جدلية جديدة ، تقوم على « الردع النووي » . ولا يزال هناك ستة مجاهيل كبيرة مخيفة هي :

١ ـــ القدرة على ارهاب الجماهير .

٢ ـــ قدرة السيطرة على السلطات التي بيدها القرارات .

٣ ـــ خطر الطوارىء او الخطأ .

٤ ـــ خطر انتشار الاسلحة النووية ووصولها الى ايدي غير المسؤولين او المهووسين .

٥ ـــ عدم ثبات آثار الردع لمدة طويلة .

٦ ـــ حالة اليأس المطلق .

علـــم الفضـــاء

لقد اعطت قوة ومدى الصواريخ والقذائف العابرة للقارات ،

(١) لم تجرؤ حتى هذه الايام اي من الدول العظمى والمتوسطة التي تملك الاسلحة النووية على استخدامها في الحروب المحلية والاقليمية التي نشبت منذ عام (١٩٥٠) في كوريا وفي مختلف القارات . وبقيت التجارب النووية محصورة في نطاق يمكن ان نسميه « مخبريا » وليس لدى البشرية اي مثال حي على آثار هذه الاسلحة الا ما نتج عن قنبلتي هيروشيما وناغازاكي (المعرب) .

وامكانية وضع الاقمار الصناعية في مدارات فضائية جول الارض ، اعطت للاسلحة النووية ابعادا كونية ، فقد اصبحت كل نقطة من الكرة الارضية معرضة للضرب والاصابة المباشرة القاتلة .

صحيح ان الفضاء الخارجي لا يزال حتى الآن مجردا من الاسلحة النووية ، ولكن الصواريخ العابرة للقارات والاقمار الصناعية لا تتوقف ابدا عن اختراقه ، واصبح بالتالي ملعبا للاقمار الصناعية والسفن الفضائية المدمرة .

ومنذ نهاية عام ١٩٧٩ ، كان هناك ما ينوف عن (٢٠٠٠) سفينة فضائية تسبح في الفضاء فوق رؤوسنا ، واكثر من نصف هذه السفن يشبه « سيف ديموكليس » المسلط على الرقاب ، وجميعها ذات اهداف عسكرية محددة .

الديمغرافيــة ــــ الاقتصاديــة

او المركب الســكاني ــــ الاقتصـــادي

لما كانت الحروب تولد اساسا من العدوان الجماعي الذي يتطور داخل البنى الديمغرافية ـــ الاقتصادية ، فان هناك خطرا ثالثا ينتج عن الخلل بالتوازن بين السكان والموارد .. وهذا الخطر ماثل فعليا الآن ويشكل تهديدا جديا للسلام ، بسبب الخلل بالتوازن بين شمالي العالم المتطور وجنوبه الفقير الذي اصبح يضيق بالسكان منذ اربعين عاما .

ومما لا شك فيه ، ان تطور هذا الخلل الى الحدود التي لا يمكن التحكم بها ، قد يؤدي الى فيضانات بشرية مدمرة .

ويوضح الجدولان التاليان (١ و ٢) مدى تطور الخلل السكاني (الديمغرافي) في العالم .

الجدول رقم (١)

المجموع الصافي للولادات لكل (١٠٠٠) من السكان[١]

الفترات	البلدان المتطورة (الشمال)	البلدان النامية (الجنوب)
١٧٥٠ — ١٨٠٠	٣٨	٤١
١٨٠٠ — ١٨٥٠	٣٩	٤١
١٨٥٠ — ١٩٠٠	٣٨	٤٠
١٩٠٠ — ١٩١٠	٣٤	٤١
١٩١٠ — ١٩٢٠	٢٦	٤٠
١٩٢٠ — ١٩٣٠	٢٨	٤١
١٩٣٠ — ١٩٤٠	٢٢	٤١
١٩٤٠ — ١٩٥٠	٢٠	٤٠
١٩٥٠ — ١٩٦٠	٢٢	٤٣
١٩٦٠ — ١٩٧٠	١٩ر٢	٣٩ر٢
١٩٧٠ — ١٩٧٥	١٧ر٢	٣٧ر٨

(١) المصدر الذي اخذت منه هذه الاحصائيات هو المعهد الوطني للدراسات السكانية في فرنسا بتاريخ ٤ تشرين اول ١٩٧٤ .

وابتداء من اربعينات ، وخاصة ابتداء من السبعينات سجلت العلاقة بين القوى البشرية خللاً متصاعداً ، بسبب التأثير المزدوج لهبوط عدد الولادات في البلدان المتطورة ، وتقدم الطب وانخفاض نسبة الوفيات في البلدان النامية .

الجدول رقم (٢)

تطور السكان في العالم بين ١٧٥٠ و ١٩٧٥ (بالملايين) (١)

التاريخ	البلدان المتطورة	البلدان النامية
١٧٥٠	٣٠١	٥٩٠
١٨٠٠	٢٤٨	٧٣٠
١٨٥٠	٣٤٧	٩١٥
١٩٠٠	٥٧٣	١٠٧٧
١٩١٠	٦٥٠	١١٢٥
١٩٢٠	٦٨٢	١١٥٥
١٩٣٠	٧٥٩	١٢٨٥
١٩٤٠	٨٢١	١٤٤٦
١٩٥٠	٨٥٧	١٦٤٩
١٩٦٠	٩٧٦	٢٠١٩
١٩٧٠	١٠٨٤	٢٥٣٧
١٩٧٥	١١٣٣	٢٨٥٥

(١) مصدر هذه الاحصائيات : المؤتمر العالمي للسكان الذي عقد في بوخارست عام ١٩٧٤ .

ان هذا الخلل الذي ضاعف خطورته ظهور الثروات والتنوع الهائل بالناتج القومي الخام بالنسبة للفرد ، سيزداد خطورة في السنوات الباقية من القرن الحالي .

وتقدر الاحصائيات ان سكان العالم في عام (٢٠٠٠) سيتراوحون بين (٦ الى ٨) مليارات نسمة ، وسيكون سكان البلدان المتطورة اقل من ١/٦ من هذا الرقم .

وان بعض الامثلة التي اختيرت من بين عشرات الدول النامية تؤكد هذا التزايد السكاني المتسارع :

— فالجزائر التي كان تعداد سكانها في عام ١٩٥٤ حوالي ٨ ملايين نسمة ، اصبح تعداد سكانها في عام ١٩٧٩ حوالي (١٨) مليون نسمة على الرغم من هجرة مليون مستوطن اوروبي .
— ومصر يبلغ تعدادها في عام ١٩٧٩ حوالي (٤١) مليون نسمة ، وتصل زيادتها السنوية الى مليون نسمة . والمرأة المصرية لها وسطيا ستة اولاد .
— وفي كينيا خلال السبعينات (١٩٧٠ — ١٩٧٩) تضاعف سكانها بنسبة ٥٠٪ .
— والصومال التي كان تعدادها في عام ١٩٧٩ حوالي خمسة ملايين ، اضيف اليهم حوالي ١ر٢٠٠ر٠٠٠ لاجىء دفعة واحدة .
— وخلال عشرة سنوات سيكون هناك اكثر من (٣٠) مدينة في

العالم الثالث يزيد سكانها عن (٥) ملايين نسمة ، معظمهم تقل اعمارهم عن (٢٠) عاما .

— أما الصين فقد تجاوز سكانها المليار نسمة ، وبذلك اصبح لكل اربعة اشخاص في العالم شخص خامس صيني ، وقد يزداد عدد سكانها في عام (٢٠٠٠) بحوالي (٢٠٠) مليون نسمة .

وتجدر الاشارة الى ان هذا التفجر السكاني غير المتوازن ، اذا لم تتم السيطرة عليه سلميا ، وذلك باعادة التوازن بالقوى والموارد بين شمالي العالم وجنوبه ، بما يشبه الطريقة التي استخدمت للسيطرة على التفجير النووي (بما يسمى توازن الرعب ، وبتدابير اخرى لا تزال غير كافية) فانه يمثل على المدى المتوسط والبعيد خطرا عظيما على البشرية والحضارة .

ففي عام ١٨٩٩ م كتب ماكس دوفونتون [١] مايلي :

« من الملاحظ منذ ابعد الاصول البشرية وحتى زمن تطور الزراعة في العصر الحجري الاخير ، وظهور الاقتصاد الانتاجي ، بشكل عام ، ان اجدادنا في تلك الازمنة لم يكونوا يمارسون الحروب . وهذا لا يعني ابدا ، انهم كانوا افضل منا ، وانما يعني ببساطة ان اسباب الحروب لم تكن موجودة ، فتعداد البشر كان قليلا جدا ، ومفهوم « الارض » كان

(١) ماكس ايسكالون دوفونتون : استاذ البحوث في المركز القومي للدراسات والبحوث ومؤلف البحث الذي نشر تحت عنوان : « فترة ما قبل التاريخ وعلم الحرب في جنوبي فرنسا » . في الربع الاول من عام ١٩٦٨ م .

مجهولا ، وكانت الروح العدوانية تقتصر فقط على البحث عن الغذاء والصيد الوفير من اجل الجميع . وابتداء من عضر التغييرات الكبرى في البيئة المحيطة بالانسان ، ابتدأ التزايد السكاني في اوروبا (أي حوالي ٤٠٠٠ ق . م) . واعتبارا من فترة الفيض السكاني اخذ « مفهوم الملكية العدوانية » بالظهور ، واصبح نصيب الفرد عرضةِ للتناقض ، في كل زيادة جديدة بعدد السكان .

وبعد ذلك بقليل بدأ « عصر هجرات الشعوب والغزوات الكبرى » مما سارع ايضا بانتشار الفوضى . ولم تكن الاحداث التي شهدها هذا التاريخ المحزن البناء للبشرية ، سوى النتيجة المنطقية لانقطاع التوازن بين الجنس البشري والبيئة الجغرافية .

وقد ولدت الحرب من انهيار التوازن بين ارض محدودة غير قابلة للتوسع ، وجنس بشري في حالة دائمة من الطوفان السكاني .

والواقع ان اول سبب للحرب لم يكن ، اجتماعيا ، بل كان بيئويا وحيويا (بيولوجيا) ، لانه الانعكاس الطبيعي لجنس نشيط في حالة التكاثر المفرط او بالاحرى التكاثر المفرط جدا .

وفي القرن الخامس عشر ، كان « العالم » لا يزال غير مستثمرا ولا مكتشفا بكامله ، فأصبح متنفسا مضمونا لسكان القارة الاوروبية الذين كانوا انذاك شديدو الاخصاب . ولكن « العالم » الذي بلغ مداه في القرن العشرين الذي يقترب من نهايته ، لن يسمح ابدا بمثل هذه الفرصة التي وجدت في القرن الخامس عشر ، من اجل اعادة التوازن الديمغرافي .

التحـديات الثـلاث

منذ عام ١٩٤٥ وجدت الانسانية والحضارة نفسيهما امام تحد ثلاثي الاطراف يتألف من :

ــ التحدي النووي .

ــ تحدي الفضاء .

ــ التحدي الديمغرافي ــ الاقتصادي ، الناتج عن الخلل بين السكان والموارد .

ومجموع هذه التحديات يمثل شكل التحدي الذي تطرحه الحضارة الحديثة في « العصر الديمغرافي ــ النووي ــ الفضائي » .

بقي علينا الآن ، القاء نظرة اكثر دقة ، ذات منظور تنبؤي على المخاطر العدوانية منذ عام ١٩٤٥ ومدى قدرة قادة العالم الحديث (من رؤساء دول ومعاونيهم من المدنيين والعسكريين والعلماء ، ورأي عام ، وكنائس واحزاب ونقابات وشركات وطنية وشركات متعددة القوميات) على تجنب مخاطرها .

الفصل السادس عشر

التهديدات العدوانية والحضارة الانسانية

السؤال الذي يتردد على السنة الكثيرين هو : هل نحن في بداية الثمانينات من القرن العشرين الذي يقترب من نهايته على شفا الهاوية من الحرب ؟ أي هل نحن في وضع مولد للحرب على المدى القريب (خلال عام واحد من هذا التاريخ) ؟ أم على المدى المتوسط (أي من هنا حتى عام ١٩٨٥) ؟ أم على المدى البعيد (أي من هنا حتى نهاية عام ٢٠٠٠) ؟

ان هذا السؤال على درجة عظيمة من الأهمية ، بالنسبة لكل فرد ولكل دولة ، حسبما ستكون السنين المقبلة حربا أم سلما ، لان الوجود المادي والمعنوي سيكون مختلفا تمام الاختلاف في كل من الحالتين .

وهو سؤال يمس الحالة الراهنة مباشرة : فمنذ عدة سنوات تتوقع الصحف والمجلات نشوب حرب عالمية ثالثة ، بل لقد حاول بعض الكتاب رسم الاشكال المحتملة لهذه الحرب .

وفي فجر الثمانيات عبرت اعلى السلطات السياسية والاخلاقية عن

مشاعرها محذرة بأن العالم يمر في وضع يهيمن عليه التهديد بالحرب .

فمنذ الصدمة النووية المفاجئة عام ١٩٤٥ تعيش البشرية حالة من القلق النووي بانتظار عام ٢٠٠٠ الذي سيشهده ابناؤنا واحفادنا ، كما سبق ان عاشت البشرية مثل هذه الحالة من القلق العظيم عند مرور عام (١٠٠٠) ميلادية .

وهناك سؤال مسبق يطرح نفسه في المشكلة موضوع البحث وهو : هل نحن على شفا هاوية الحرب ؟ وهل تنطبق كلمة « نحن » على فرنسا مثلا ؟ ام على العالم بأسره ؟ والجواب هو : ان المسألة بسيطة نسبيا بالنسبة لفرنسا ، وعلى عكس ذلك فهي اكثر تعقيدا بالنسبة للعالم .

فبعد ان كانت فرنسا عمليا في حالة حرب منذ عام ١٩١٤ (بداية الحرب العالمية الاولى) وحتى عام ١٩٦٢ (نهاية الحرب الجزائرية) ، أي طوال مدة ثلاثة واربعين عاما [١] ، فانها اليوم لا تمثل اي عامل حربي ، ليس بحد ذاتها ، ولا في علاقاتها مع جيرانها . وهي بالاضافة الى ذلك تسير على استراتيجية وسياسة تهدف للسلام والانفراج . وان صدمة الحربين العالميتين وتصفية الاستعمار وانخفاض عدد الولادات وضآلة عدد الشباب في سن اقل من عشرين عاما (٣٦٪ من السكان فقط) وهشاشة الاقتصاد ، كل ذلك يساهم في نزع عدوانيتها واضعاف قوتها .

---

(١) مع اخذ فترة السلم التي يبلغ طولها خمس سنوات بعين الاعتبار ، وهي الفترة الواقعة بين عام ١٩٣٤ (نهاية العمليات في المغرب) وعام ١٩٣٩ (بداية الحرب العالمية الثانية) .

واذا لم تكن فرنسا عدوانية فهي اقل عرضة للتهديد بالانزلاق الى حرب قد تنفجر في مكان ما من الكرة الارضية ، في قلب اسيا او على شواطىء المحيط الهندي او البحر المتوسط او على امتداد الستار الحديدي ، باعتبار ان جميع المشاكل اصبحت منذ الآن عالمية وكونية .

والسؤال الاساسي الذي يجب طرحه هو اذن : « هل العالم في كانون الثاني من عام ١٩٨٠ يقف على حافة الحرب » ؟ .

ونظرا لعدم وجود حرب حتى ولا عنف سياسي بدون عدوانية جماعية ، فان تصعيد العنف لنا الآن وكأنه المشكلة المركزية . فبعد ان شاهدنا أولا طريقة التصعيد العام للعنف ، ثم تطبيقه منذ عام ١٩٤٥ — أي منذ بداية العصر النووي — الفضائي — سنتمكن من القيام بعملية استطلاع او سبر لاخطار تصعيد العنف المنتظرة خلال السنوات العشرين المقبلة .

الاساليب العامة لتصعيد العنف الجماعي

كان للحرب في مختلف العصور اسباب متعددة ، فهي في وقت واحد ، طارئة وسببية وبنيوية .. وهذه الاسباب الاخيرة (الديمغرافية — الاقتصادية ، والاجتماعية والسياسية والتاريخية والجغرافية والعقلية ؟) ، هي الاكثر اهمية ، لان العدوانية الجماعية التي تبرز في العنف السياسي الذي يعتبر جرثومة الحروب ، انما تولد وتنمو في البنى الاساسية للمجتمع .

والحقيقة ان مستوى العدوانية الجماعية يحدد مستويات النزاعات السياسية ، ويمكننا في هذا البحث ان نميز ستة مستويات تمثل اللوحة رقم (٣) (التي يجب ان تقرأ من الاسفل الى الاعلى حسب تصاعد العنف السياسي) :

١ ــ اذا لم تكن العدوانية موجودة أو في حالة كونها خاضعة تماما للسيطرة ، نكون امام حالة من النزاعات التحتية الصغيرة لا ينتج عنها اية خسائر (كأزمة كوبا عام ١٩٦٢ ، والخلل بالتوازن الاقتصادي العالمي ، وأزمة البترول منذ عام ١٩٧٣ ، او الخلل في البنيات الديمغرافية ــ الاقتصادية العالمية) .

٢ ــ اذا كانت العدوانية تنفجر بالعنف ، واذا كان هذا العنف ضعيفا او محليا او محدودا ، تنتج عنه خسائر محدودة ، فاننا نكون حيال عدد كبير من النزاعات التحتية الصغيرة داخل الدول او بين الدول كما هي الحال في حوادث الحدود ، والمجابهات الدموية ، واعمال الانصار المتفرقة ، والاعمال الارهابية .

وقد سجل المعهد الفرنسي لعلم الحرب ، وحلل وشرح اكثر من (٦٠٠٠) حادث عدوائي ، منذ كانون الثاني عام ١٩٦٨ حتى كانون الاول عام ١٩٧٩ .

٣ ــ أما اذا اتخذت العدوانية ابعادا اكثر اهلية وتوترا فذا ، دون ان يصل ذلك الى حد الحرب ، فاننا نجد انفسنا في هذه الحالة امام نزاعات متوسطة ، او اضطرابات مزمنة ، ومع ذلك فان العنف يبقى

محدودا ومحليا كاضطرابات ايرلندا الشمالية ، او اضطرابات بلاد الباسك الاسبانية والصحراء الغربية .

٤ ـــ وعندما يتفجر العنف السياسي ويمتد بالزمان والمكان ، وتتحول الجماعات المتخاصمة محليا بشكل لا يمكن تبديله ، من حالة السلم الى عالم الحرب ، دون ان يصل ذلك الى اعلان الحرب فعليا ، فان الوضع الذي ينشأ في مثل هذه الظروف ، انما هو نوع من الحروب المحلية (مثل الحرب الكورية) او الحروب الداخلية (مثل حرب بيافرا) او الحروب المختلطة اي حرب داخلية مع تدخل دولة اجنبية (مثل حرب بنغلاديش ؟ او اضطرابات او ثورات (مثل ثورة ايران ١٩٧٨) .

٥ ـــ حروب يمكن ان تأخذ دفعة واحدة او تدريجيا بعدا عالميا كحرب عام ١٩١٤ وجرب عام ١٩٣٩ .

٦ ـــ واخيرا ، اذا كان العنف السياسي يتجاوز العتبة النووية ، تصبح الحرب بتدخل وقرار القوى النووية : (حربا نووية او بيولوجية او كيماوية) ينتج عنها خسائر رهيبة تعد بالملايين .

تصاعد العنف يمكن ان يكون تدريجيا أو شرسا أو وحشيا

يولد العنف السياسي بشكل عام ، في البنيات ، وينمو بشكل متدرج ومتواصل ، بالانتقال من مستوى الى مستوى اعلى ، بعد ان يجتاز

مرحلة انتقالية متوسطة . كما يمكن ان يتصاعد العنف بفظاظة وبشكل متقطع ، دون المرور بمستويات متوسطة .

وهكذا رأينا ان الحرب الاهلية اللبنانية ، والثورة في ايران سبقتها عدة سنوات من التوتر ، اخذت تتصاعد خلالها عدد وكثافة الصدامات الصغيرة ، بلا انقطاع .

ويمكن للعنف السياسي احيانا ان يقفز مباشرة بتصعيد فجائي ودون انذار متدرج ، فيشمل جميع المستويات . ففي عام ١٩١٤ انفجرت الحرب العالمية الأولى دون أن يسبقها نزاعات تحتية صغيرة منذرة .

وفي عام ١٩٦٢ كان يمكن لازمة الصواريخ السوفياتية في كوبا ، التي لم تكن سوى نزاع تحتي بسيط ، ان تنفجر مباشرة بتصعيد شامل وتتحول الى حرب نووية .

والحروب المحدودة والحروب المحلية ايضا تولد عموما من النزاعات الصغرى المنذرة ، كما يمكن ان تنشب احيانا دون ان تسبقها اية اضطرابات .

والحرب الكونية الثالثة ، التي قد تصبح نووية بدون شك ، يمكن ان تنفجر نتيجة لتطور حرب محدودة او اقليمية ، كما يمكن ان تنفجر مباشرة بسبب تعدد واشتداد خطورة النزاعات الصغيرة ، أو بدون انذار مطلقا .

وفي حالة وجود الانذارات (أي النزاعات التحتية الصغيرة او

الحروب المحلية) فان باستطاعتها السماح للسلطات المسؤولة ، بأن تسيطر على الازمة وان تخمد العنف بتدابير سياسية خاصة ، شريطة ان تكون هذه السلطات واعية ولديها الارادة والقوة الضروريتين ، ذلك لان السلام ، قبل كل شيء عمل سياسي قائم على التوازن .

إما في حالة غياب هذه الانذارات ، فان السلطات المسؤولة تملك المصدر لمراقبة صعود مجمل العدوانية المتبادلة في البنيات المختلفة والنزاعات التحتية كأزمة البترول او النزاعات التحتية الصغيرة كالارهاب في ايران ، وذلك بتدابير انفراج سياسية ، من اجل اخماد تصاعد العنف في الوقت المناسب .

تصاعد العنف منذ عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٧٩

منذ ان دخل العالم في العصر النووي ـــ الفضائي عام ١٩٤٥ ، أمكن السيطرة على الوضع المتفجر بواسطة عدد من الوقائع اهمها كما نعتقد هي :

- الواقع النووي .
- الخصومة الايديولوجية والسياسية ـــ العسكرية ، وعدم الانسجام بين الشرق والغرب .
- النزاع السوفياتي ـــ الصيني .
- حروب التحرير ضد السلطات الاستعمارية (نزاعات تصفية الاستعمار وما بعد الاستعمار) .

— بروز ما يسمى بالعالم الثالث ، وسكون ما يمكن ان يسمى بالعالم الرابع .
— انتشار الحروب الداخلية ، وتزايد التدخل الخارجي في هذه الحروب .
— يقظة المشاعر الدينية وخاصة في البلدان الاسلامية التي هيجتها العداوات القومية ، والاجتماعية والاقتصادية منذ عام ١٩٤٧ .
— ازدياد اهمية الطلاب (عام ١٩٦٨ في اوروبا والولايات المتحدة الامريكية ، وعام ١٩٧٩ في ايران وفي تركيا [1] .
— انطلاق الحركات القومية .

وكان اول خطر تمت السيطرة عليه هو « الواقع النووي » لانه منذ ان ادركت البشرية القوة التدميرية للذرة في عام ١٩٤٥ ، وهي تتصور الرعب النووي الممكن في عام (٢٠٠٠) م .

ونتيجة للخطر النووي ، وتوازن الرعب بين القوى العظمى ، فان العنف الجماعي ، الذي كان في الماضي يتحول بين فترة واخرى الى حروب اجنبية ، اخذت في اعوام ١٩١٤ و ١٩٣٩ ابعاداً عالمية ، هذا العنف مكبوح الآن بهذا الاتجاه .

(١) برزت اهمية الطلاب لاول مرة في ظروف مختلفة اثناء الحركات الوطنية والليبرالية بعد عام ١٨١٥ .

اللوحـــة رقم (٣)*

بعض الأمثلة عن النزاعات السياسية في نهاية عام ١٩٧٩ ومستوياتها

المستوى	الأمثلة
نزاعات متطرفة (حروب أ . ب . ج) عتبة (هـ)	لا شيء
أقصى انواع النزاعات : (حروب شاملة عالمية كحرب ١٤ و ١٣) عتبة (د)	لا شيء
نزاعات كبيرة [4] (حروب محلية ومحدودة) ـ حروب أجنبية ـ حروب مختلطة (بتدخل اجنبي) حروب اهلية عتبة (جـ)	ـ الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ١٩٧٣ ـ حرب لبنان ١٩٧٥ ـ حرب اثيوبيا ١٩٦٩ ـ حرب افغانستان ٩٧٩ ـ ثورة ايران ١٩٧٨
ـ نزاعات متوسطة [3] (وسط بين النزاعات الصغيرة والحرب المحلية) عتبة (ب)	وجميعها داخل الدول تشاد وبلاد الباسك الاسبانية وايرلاندا الشماليةوالصحراءالغربية

أ) ـ اسلوب تصعيد مستمر ومتدرج (حالة عادية)

ب) ـ أساليب تصعيد متقطعة وعنيفة (حالات ممكنة)

جـ) ـ الاسلوب الذي أتيح في الحرب اللبنانية (١٩٧٤ ـ ١٩٧٥) وفي ايران (٧٢ ـ ٧٨)

مستويات النزاعات	أمثلة وقعت في نهاية ١٩٧٩	عتبات العنف
نزاعات صغيرة جدا (٢) ــ داخل الدول ــ خارج الدول عتبة (أ)	هناك امثلة عديدة ــ افريقيا الجنوبية ــ ارهاب طهران ــ الارهاب في اوروبا الغربية ــ حرب عصابات ــ مجابهات متنوعة	(خ) أسلوب الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ (هـ) أسلوب ممكن خلال أزمة الصواريخ السوفياتية في كوبا عام ١٩٦٢
نزاعات تحتية صغرى (١)	ــ فوضى نقدية ــ ازمة البترول (١٩٧٣) ــ الخلل بالتوازن السكاني والاقتصادي ــ النزاع السوفييتي ــ الصيني الخصومة من الشرق والغرب ــ توازن القواعد	

★ قراءة اللوحة من النهاية صعوداً .
والحواشي على الصفحة التالية .

حواشي اللوحة رقم (٣)

(١) نزاعات كبيرة : هي عنف منظم ، اسبغت عليه القدسية ، يتضمن عمليات عسكرية هامة ، ويكلف خسائر فادحة بالارواح ، وتجري فيه مجازفات رئيسية خطيرة .
ملاحظة : النزاعات المسلحة العظمى = حروب + نزاعات متوسطة .

(٢) نزاعات متوسطة : هي نزاعات مزمنة ذات آثار سياسية هامة وخسائرها بارزة تجازوت عتبة العنف (ب) .

(٣) نزاعات صغيرة جدا : هي عدوانية ضعيفة ، محدودة ومحلية ، متفرقة ، وخسائرها ضئيلة وآثارها ضعيفة ايضا ، تجاوز عتبة العنف (أ) بين ١٩٦٨ حتى كانون اول ١٩٧٩ تعدادها (٦٠٠٠) حادث .

(٤) نزاعات تحتية : عدوانية غير قائمة (وغير معلنة) لم تتجاوز العتبة (أ) للعنف السياسي .

والواقع ان كلا من القوتين النوويتين العظيمتين ــ الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفياتي ــ اصبحت تتحاشى المجابهة المباشرة ، مما ادى الى صيانة مراكزها الحيوية والمناطق التي تخضع لحمايتها .

ومنذ ذلك الوقت اخذ العنف الجماعي اربعة اتجاهات ثانوية سالكا اساليب اربعة :

١ ــ جغرافيا : في المناطق الهامشية حيث يمكن للاستراتيجية غير المباشرة ان تطور مصالحها ، وتحسين مواقعها ، وتستثمر النزاعات لمصلحتها ، مع ابقائها محدودة لتحاشي احتمالات التصعيد النووي . ومن هنا جاءت الحروب المحلية المحدودة في جنوب شرقي اسيا والشرق الاوسط وافريقيا . وجميع هذه المناطق تعتبر من الناحية الجغرافية السياسية مناطق هامشية .

٢ ــ قطاعيا : بواسطة استراتيجيتان ، اقتصادية وثقافية ، غدت في السنوات الأخيرة اكثر حدة ، خاصة وان المجابهات العسكرية يصعب تطورها دون الانزلاق الى المخاطر المهلكة .

٣ ــ جعله (أي العنف) داخليا : نظرا لأن معظم حدود الدول الناشئة تم تخطيطها من قبل الاستعمار فانها تبقى في حالة هشاشة شديدة الحساسية بعد تصفية الاستعمار ، وفي بعض الاحيان يمكن اعتبارها حدودا مؤقتة ، ومصدرا للنزاعات الدموية بين الدول الحديثة ، لهذا اصبح بالامكان استغلال هذه النقطة الحساسة واستغلال نزاعات هذه الدول تحت أشكال جديدة (سياسية ــ

اقتصادية) بدلا من التدخل العسكري الوقح الذي كان يستخدمه الاستعمار القديم وبهذا الاسلوب يمكن الوصول الى تبديل الانظمة والحكومات واشعال النزاعات ثم تهدئتها في الوقت المناسب قبل ان تصبح مهددة للمصالح .

٤ ــ الأخيرا تجزئة وتصغير النزاعات : فالتدخل الأجنبي ، والحروب المحلية ، والاضطرابات ، والحروب الاهلية والارهاب ، كلها اساليب او مظاهر لتجزئة العنف يمكن استخدامها بالإستفادة من الردع النووي الذي يعتبر ضمانة ضد التصعيد وتحول النزاعات الى حروب عالمية كما حدث عام ١٩١٤ وعام ١٩٣٩ .

ومنذ عام ١٩٧٢ ، اصبح الارهاب الواقع المعبر الاكثر اهمية بين اشكال النزاعات التحتية الصغرى ، ومن امثال هذا الارهاب المعبر : احتلال السفارة الامريكية في طهران ، واحتجاز الرهائن من قبل الطلاب المسلمين (الذين تغطيهم السلطة) بتاريخ ٤ تشرين ثاني ١٩٧٩ ، هذا الحادث الذي أعطى للارهاب بعدا جديدا : وهو الارهاب الذي تمارسه الدول ضد بعضها والذي تترتب عليه نتائج مرعبة .

وفي الحروب الداخلية بشكل خاص ، والحروب الخارجية احيانا ، التي وقعت في الفترة بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٧٩ ، كان هناك القليل من المعارك نسبيا ، والكثير من المجازر والهجرات ، كما حدث بالفعل

خلال الحروب المأساوية في بيافرا وبنغلاديش وكمبوديا [1] .

أما الوقائع الاخرى التي هيمنت على تطور النزاع في الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ و ١٩٧٩ ، فهي التنافس بين الغرب والشرق او بين الاتحاد السوفياتي سيدة القارة وقلب الارض ، وبين الولايات المتحدة الامريكية سيدة البحار بلا منازع ، والنزاع الصيني السوفياتي ، والنزاعات الاستعمارية وما بعد الاستعمار ، وبروز العالم الثالث ، وسكون العالم الرابع .

وجميع هذه الوقائع لا تزال ماثلة في الأذهان . ونحن نكتفي في بحثنا بالاشارة احصائيا الى تفوق النزاعات الداخلية وازدياد التدخلات الاجنبية (اللوحة رقم ٤) .

فمنذ عام ١٧٤٠ حتى عام ١٩٤٥ ، كان عدد الحروب الخارجية اكثر بقليل من الحروب الداخلية ، ولم تكن التدخلات الاجنبيه فى الحروب الداخلية ، تحدث الا في حالة من خمسة .. ، أما في الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ و ١٩٧٩ ، فكان عدد الحروب الداخلية ضعف الحروب الخارجية ، وقد حدث التدخل الخارجي في نصف هذه الحروب .

ولهذا فان الحروب الداخلية (من أمثال حرب بنغلاديش ولبنان) تنطوي على مخاطر حقيقية للتصعيد .

(١) مرة اخرى يتجاهل المؤلفون عمدا مأساة الشعب الفلسطيني التي بدأت منذ عام ١٩٤٧ ، ولا تزال تزداد مأساوية حتى يومنا هذا ، والتي سببت في تشريد مئات الالوف من العرب الفلسطينيين خارج بيوتهم ، وهم يتعرضون كل يوم للغارات الاسرائيلية الجوية والبرية والبحرية في مخيماتهم بين الحين والاخر ويتكبدون العشرات من القتلى في كل يوم (المعرب) .

اللوحــة رقــم (٤)

طبيعة النزاعات المسلحة الرئيسية للفترة الواقعة بين ١٧٤٠ و ١٩٧٩

الفترات	عدد النزاعات الرئيسية المسلحة	منهــا		عدد النزاعات الكبرى التي وقعت فيها تدخلات أجنبية
		داخلي	خارجي	
١٧٤٠ــ١٧٩٩	٤١	٢٣	١٨	٢
١٨٠٠ــ١٨٩٩	١٧٣	٨٧	٨٦	١٧
١٩٠٠ــ١٩٤٤	٨٢	٣٢	٥٠	٧
١٩٤٥ــ١٩٧٤	٦٨	١٥	٥٣	١٥
١٩٧٥ــ١٩٧٩	١٣	٢	١١	٦
المجموع	٣٧٧	١٥٩	٢١٨	٤٧

أوضاع النزاعات الدولية في مطلع عام ١٩٨٠

قبل ان نحاول التنبؤ بنزاعات المستقبل ، يجدر بنا القاء نظرة فاحصة على الوضع التنازعي العالمي في بداية عام ١٩٨٠ (يرجى الرجوع للوحة رقم ٣) ، التي تصور بشكل اجمالي النظام التصاعدي للعنف .

ففي نهاية عام ١٩٧٩ كان في العالم اربعة حالات من الاضطرابات الخطيرة او النزاعات وهي :

١ ــ الاضطراب الاقتصادي العالمي الذي بدأ يذر قرنه منذ نشوب حرب رمضان عام ١٩٧٣ وبداية أزمة البترول .

٢ ــ الخلل بالتوازن الاقتصادي ــ الديمغرافي العالمي (التعارض بين الشمال والجنوب) .

٣ ــ التنافس الحاد بين الشرق والغرب .

٤ ــ العداوة البنيوية بين الصين والاتحاد السوفياتي .

هذا بالاضافة الى النزاعات الداخلية في ايران [1] ، وافريقيا

---

(١) لم تكن الحرب العراقية ــ الايرانية التي يستعر اوارها منذ ٢٣ ايلول ١٩٨٠ ومن الصعب التنبؤ بنهايتها ، قد نشبت بعد صدور هذا الكتاب ، وهي من نوع الحروب بين الدول التي تتعرض في كل دقيقة للتدخلات الخارجية ، بل وهناك احتمالات كبيرة لان تتسع وتشمل دولا اخرى من المنطقة او خارجها (المعرب) .

الجنوبية ، والنزاعات الداخلية الاخرى في عدد من الدول (مجابهات دموية ، عمليات افرادية للانصار ، واعمال ارهاب افرادية ... ؟

وقد امكن بالفعل رصد حوالي (٣٦) حادث اضطراب داخلي خلال شهر كانون الاول من عام ١٩٧٩ وحده وتتضمن الانواع التالية :

(٦) ستة عمليات أنصار .

(١٨) ثمانية عشر عمل ارهابي .

(١٢) مجابهة من أنواع مختلفة .

ومنذ عام ١٩٧٢ تمثل عمليات الارهاب حوالي ٤٠ ـــ ٥٠٪ من النزاعات التحتية بين الدول . منها .

— أربعة نزاعات متوسطة جميعها داخلية (تشاد ، بلاد الباسك الاسبانية ، ايرلندا الشمالية ، الصحراء الغربية) .

— ستة حروب محلية (الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ، التي لا تزال مستمرة حتى الآن ، الحرب اللبنانية ، الثورة الايرانية[1] ، الحرب الافغانية ، الحرب الكمبودية ، الحرب الارتيرية) .

ومن الجدير بالذكر ان النزاعات التحتية الصغيرة ، والنزاعات المتوسطة والحروب المحلية ، ليست موزعة على سطح الكرة الأرضية بمجرد الصدفة ، فمنذ عام ١٩٤٥ وهي تتكثف فوق بعض الخطوط والجبهات العدوانية الجماعية .

جبهات العدوانية الجماعية

يبدو ان هناك جبهات عدوانية ، كما يوجد في الطبيعة :

— جبهات مناخية ، ونباتية .

— وجبهات رصد جوية ، وهذه اقل استقرارا كجبهات الرياح الموسمية .

— جبهات زلزالية (التصدعات العظمى التي اصابت قشرة الارض) .

---

(١) والتي تحولت الى حرب ايرانية عراقية .

وهذه الجبهات المختلفة هي المكان المفضل للصراعات والمجابهات والاضطرابات والثورات .

أما الجبهات العدوانية فهي أقل وضوحا ولكنها حقيقية ايضا ، وفيها يمكن ان تتفجر مظاهر العنف الداخلية والدولية ومن هذه الجبهات :

ـــ الجبهات العرقية والقومية .

ـــ والجبهات الايديولوجية والسياسية ـــ الاقتصادية .

وجميعها وليدة التطورات والاحداث التاريخية ، وغالبا ما تعود فتنشط تبعا للظروف . وهي على نوعين : جبهات دولية (تشمل جغرافيا عدة دول) تتجاوز القارات فتغطي بعض الدول او تفصلها عن بعضها ، وجبهات داخلية مسببة انقسام الدول .

وعلى اساس المفهوم الحديث للجبهات العسكرية ، فان الجبهات العدوانية ليست متصلة وتمثل شيئا من العمق : وفيما عدا ذلك فان مؤخراتها تتميز دائما بالبؤر العدوانية (الاضطرابات ، وحروب الانصار) ، كالجبهة العرقية الداخلية « السوداء » في الولايات المتحدة الامريكية .

وبالرغم من كون هذه الجبهات من صنع الطبيعة والتاريخ والبشر ، ككل الحقائق البشرية ، الا انها بنفس الوقت متحركة قابلة للانتشار ، ومتغيرة في حالات انفجارها ونشاطها .

فقد تكون في ذروة نشاطها في معظم مراحل تطورها ، واحيانا اخرى يقتصر نشاطها على بعض اجزائها ، وفي بعض الاحيان يمكن ان تكون هادئة في الجبهة والعمق ، ولكن هدوء هذه الجبهات يشبه الى حد سكون البراكين التي يمكن ان تدخل من جديد في طور النشاط الجزئي او الشامل ، ويتوقف ذلك على قوة الشحنة العدوانية التي تكمن فيها .

وفي العصور القديمة كانت جبهات العدوان على الاشكال التالية :

— جبهات تتجه من الشمال الى الجنوب تساير اتجاهات الخطوط الارضية البارزة (كالانهار والجبال) التي تفصل سهول الهجرات والغزوات العظمى في الفيافي الاورو ـ اسيوية (مثل خط نهر الرين ، وخط نهر الفيستول ، وخط نهر الفولغا) .
— وجبهات تتجه من الشرق الى الغرب ، تشير الى المجابهات التاريخية بين الشمال والجنوب (في فترات انطلاق الشعوب نحو الاراضي الجنوبية او الشمالية ذات الموارد الفائضة) .

وتتميز الفترة الواقعة بين عام ١٧٤٠ و ١٩٧٩ بالتأرجح الواضح في جبهات العدوان ، حسب تبدل مراكز القرارات السياسية ، ويمكن ان نميز فيها مرحلتين رئيسيتين :

— المرحلة الاولى بين ١٧٤٠ و ١٩٤٥ ، وتنطبق على الفترة التي ساد فيها التفوق الاوروبي والتوسع الاستعماري .

— والمرحلة الثانية بين ١٩٤٥ و ١٩٧٩ ، وتنطبق على الفترة التي برز فيها العالم الثالث وشملته حالة من عدم الاستقرار .

وابتداء من عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٧٩ ، حدثت إعادة لتوزيع جبهات العدوان ، ترجع اسبابها لضعف اوروبا الغربية وبروز العالم الثالث كقوة جديدة ، وترتب على ذلك اختفاء الجبهة الأطلسية والجبهات الاسيوية والأفريقية القديمة التي كانت مرتبطة بالاستعمار .

أما الجبهات الأخرى فقد تبدلت نتيجة للتوازن الجديد الناتج عن الحرب العالمية الثانية ، وصعود حركة تصفية الاستعمار .

واللوحة رقم (٦) تشرح بدقة جبهات العدوان النشيطة في الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ و ١٩٧٩ :

اللوحـــة رقـــم (٦)

واذا رجعنا إلى الحروب الاجنبية والداخلية في نصفي الكرة الارضية والنزاعات الجزئية بين الدول (كحوادث الحدود) او النزاعات الداخلية ، التي تم رصدها منذ عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٧٩ لوجدنا انها كانت تدور بشكل ظاهر فوق عشرة جبهات وهي :

— جبهة شمال افريقيا (F . 1) بين افريقيا الوسطى السوداء ، وافريقيا الشمالية الاسلامية البيضاء .

— جبهة جنوب افريقيا (F . 2) بين افريقيا الوسطى السوداء وجنوب افريقيا البيضاء .

— جبهة شمال امريكا (F . 3) بين امريكا الشمالية البيضاء ، وامريكا الوسطى والجنوبية .

— جبهة جنوب امريكية (F . 4) ، شديدة التعقيد عبر نصف القارة الامريكية الجنوبي .

— جبهة صينية (F . 5) تحاذي الصين .

— جبهة جنوب اسيوية (F . 6) تمتد من استراليا الى اليابان ، مارة عبر الارخبيلات واشباه الجزر في جنوب شرق اسيا .

— جبهة افريقية اسيوية (F . 7) بين العالم العربي الاسلامي ، والاجناس البيضاء الاخرى من جبل طارق غربا الى الهند شرقا .

— جبهة شرق اوروبية (F . 8) بين العالم الشيوعي والعالم الغربي (الستار الحديدي) .

— جبهة شمال ايرلندا (F . 9) عبر ايرلندا الشمالية .

— جبهة غرب اوروبية (F . 10) تأخذ اوروبا الغربية بشكل موارب .

وكانت جميع هذه الجبهات بالتتابع ، جبهات عرقية وقومية واجتماعية — اقتصادية ، وايديولوجية .

وكان الى جانب هذه الجبهات ، جبهات اخرى ثانوية في داخل عشرات من الدول (كالجبهة الداخلية السوداء في الولايات المتحدة) تستطيع خلق اضطرابات نشيطة وعامة ، كالنزاعات القومية والدينية والايديولوجية التي عرفتها اوروبا خلال تاريخها .

ويذكرنا هذا « المفهوم » لجبهات العدوان ، الذي هو عبارة عن فرضية أوجدها « علم الحرب » ، بالملاحظات الهامة التالية :

— على الرغم من عالمية وشمولية المشاكل ، فقد أخذت جبهات العدوان منذ عام ١٩٤٥ بعدا قاريا او بالاحرى وجهة عامة غرب ← شرق ، وفق متوازيات تجتاز او تفصل القارات ، بعد ان كانت مجزأة متفرقة بين عام ١٧٤٠ حتى عام ١٩٤٤ .

— وبينما كانت جبهات العدوان قبل عام ١٩٤٥ ، من قارة الى

اخرى ، بل وفي نفس القارة مستقلة نسبيا ، فقد اصبحت الآن متشابكة مع تصاعد العالمية . وهكذا اصبح تطور ونشاط جبهة ما مرتبط تمام الارتباط بالجبهات الاخرى ، وخاصة بالجبهات المجاورة .

وتجدر الاشارة الى ان جبهات العدوان في نهاية عام ١٩٧٩ كانت كما يلي :

- الجبهة الافريقية الشمالية في جزئيها الاوسط (تشاد) والشرقي (اثيوبيا) .
- الجبهة الافريقية الجنوبية (ناميبيا ، وجنوب افريقيا) .
- جبهة شمال امريكا (سان سلفادور).
- جبهة جنوب شرق اسيا (فيتنام ـــ كمبوديا) .
- جبهة شمال ايرلندا (الارهاب) .
- جبهة غرب اوروبا (الارهاب في اسبانيا ، وفرنسا ، وايطاليا ، والمانيا الغربية) .
- وبشكل خاص ، الجبهة الافرو ـــ اسيوية (الصحراء الغربية ، اسرائيل ، لبنان ، ايران [١] ، وافغانستان) .

وهكذا نرى انه منذ عام ١٩٤٥ تفجرت سبعة جبهات عدوانية

---

(١) والعراق بعد ايلول ١٩٨٠ منذ نشوب الحرب بين ايران والعراق .

من اصل عشرة . وانفردت جبهة جنوب امريكا ، والجبهة الصينية ، والستار الحديدي ، بالنشاط عدة مرات ، ثم عرفت فترة من الخمود في نهاية عام ١٩٧٩ ، كما هي الحال بالنسبة للبراكين .

مخاطر التصعيد المحتملة في الفترة بين عام ١٩٨٠ وعام ٢٠٠٠

تعتبر ظاهرة « الحرب » من أشد الظواهر الانسانية ــ الاجتماعية والسياسية تعقيدا ، ولا يوجد أي مجال للتخمين والتنبؤ في هذا الميدان . فالحرية الانسانية بالنسبة للشعوب والرجال الذين يتخذون القرارات ، بالاضافة الى تعقيد التفاعلات بين المجموعات البشرية ، والظهور المفاجىء المحتمل لبعض المخترعات الجديدة التي يمكن ان تؤدي الى تغييرات عميقة ، كما حدث عام ١٩٤٥ ، كل ذلك يجعل المستقبل محفوفا بالشكوك والغموض .

لذا فان « عملية البحث » لاستطلاع المستقبل ، هي وحدها الشيء المقبول شريطة ان يرافقها الكثير من الدقة والحذر .

والاستقبالية او العلم الذي يدرس الاسباب العلمية والاقتصادية والاجتماعية التي تدفع تطور العالم المعاصر ، والتنبؤ بما سيكون عليه ، بالمستقبل ويحدد العوامل التي تسهل او تعرقل مختلف الفرضيات الممكنة ، هو الوسيلة الوحيده الممكنة للبحث عن المستقبل .

الآفــاق المحتملــة (هـ + ٢٠)

لكي نبين ضرورة الحذر الشديد عندما نحاول تحديد الآفاق هـ + ٢٠ ، (وهذا يعني في الحالة الراهنة ــ من عام ١٩٨٠ ــ الى عام ٢٠٠٠) يمكن ايراد ثلاثة امثلة قديمة معبرة : احتمالات الأفق هـ + ٢٠ ، أولا في عام ١٨٩٩ ، ثم في عام ١٩٢٥ ، واخيرا في عام ١٩٥٩ .

ففي عام ١٨٩٩ ، اي بعد معركة فاشودا ، وفي الفترة التي نشبت فيها حرب البوير ، كان من الممكن تصور حرب فرنسية ــ المانية ، وحتى حرب اوروبية شاملة ... ولكن كيف كان بالامكان تصور شكل هذه الحرب والشخصيات البارزة التي ستقودها او تعارضها ، والثورة الروسية والوضع الذي سيكون عليه العالم الذي سينقلب رأسا على عقب في عام ١٩١٩ ؟ .

وفي عام ١٩٢٥ ، اي في الفترة التي كانت فيها اوروبا تؤمن السلم ، وعندما كانت المانيا تشهد اعظم انهيار اقتصادي في تاريخها كيف كان من الممكن تصور نشوب حرب عالمية ثانية ، وتصور الحروب المحلية التي ستمهد الطريق لها ، والوضع الذي سيكون عليه العالم في عام ١٩٤٥ ، والذي انقلب وتحول من جديد ؟ .

وفي عام ١٩٥٩ ، اي بعد عامين من تاريخ اطلاق اول قمر صناعي (سبوتنيك) حيث كانت تسود الحرب الباردة ، وحيث تستمر

عملية تصفية الإستعمار ، كيف كان من الممكن تصور الامور الهامة التالية :

— التفجر السكاني .

— الغزو المتسارع للفضاء .

— النزاعات التي تلت مرحلة تصفية الاستعمار ، حول المخلفات والسلطة الاستعمارية ، والتي ستمزق الدول الحديثة الاستقلال من بيافرا الى فيتنام .

— صعود قوة الاتحاد السوفياتي ، وتدهور قوة الامبراطورية الامريكية .

— توتر الوضع على الحدود الاسيوية ـ السوفياتية .

— ثورة المشاعر الدينية .

— الازمة الاقتصادية العالمية .

— أزمة الطاقة وتدفق البترول .

كل هذه الامور ، عبارة عن وقائع عظيمة الخطورة ، من الصعب التكهن بحدوثها ، او على الاقل معرفة آجال حدوثها ، وهي بالذات التي ستعطي لعام ١٩٧٩ وجهه الجديد .

كيف اذن يمكن الاجابة على السؤال التالي :

هل العالم اليوم في وضع قابل للانفجار ؟ .

وما هي التهديدات بالحرب خلال العقدين القادمين ؟ .

ومن اجل الوصول الى الجواب الصحيح لا بد من امتلاك الوسيلة التي يمكن ان تسمح لنا بالتنبؤ بالحروب او ما يمكن ان يسمى بـ « مقياس ضغط الحروب » يفوق بدقته وتعقيده مقاييس الضغط الجوي والمقاييس الاجتماعية ــ الاقتصادية .

غير ان هذا الجهاز الذي نسعى لايجاده ، لم يتم انجازه حتى الآن ، لذلك فان الوسائل المتنوعة المتوفرة الآن لا تسمح لنا الا بوضع بعض الفرضيات على المستوى المتوسط المدى أي من هنا حتى عام ١٩٨٥ .

ومع ذلك يمكن تقديم بعض العناصر الصالحة للاجابة ، تستند من جهة اخرى على اسلوب تصعيد العنف ، ومن جهة على التصعيد الذي حدث بالفعل بين عام ١٩٤٥ و ١٩٧٩ .

فمن الملاحظ اولا ان العالم في مطلع عام ١٩٨٠ هو في وضع اكثر من متفجر ، لانه يشهد ، كما رأينا ، بالفعل ستة حروب محلية ، علما بأنه منذ عام ١٧٤٠ لم يكن هناك سنة واحدة بدون حرب .

ومما لا شك فيه انه منذ بدايات البشرية ، او على الاقل منذ العصر الحجري ، لم يكن هناك الا سنوات قليلة بدون حرب . وان كثافة الحروب (الخسائر بالقتلى من العسكريين والمدنيين) لم تتوقف عن الازدياد :

— ففي حروب الثورة الفرنسية والامبراطورية بين ١٧٩٢ و ١٨١٥ بلغت الخسائر مليونان من القتلى .

— وفي الحرب العالمية الاولى بلغ عدد الخسائر بين ١٩١٤ و ١٩١٨ حوالى (٩) ملايين نسمة .

— وفي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) كانت الخسائر بالارواح تزيد عن (٤٠) مليون نسمة .

— أما بالنسبة للعشرين حرب محلية خلال الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ و ١٩٧٩ فقد بلغت خسائرها بالارواح حوالي (١٠) ملايين قتيل .

لهذا نعتقد ان العالم سيشهد ولا شك حروبا محلية عديدة ، على اقل تقدير خلال العقدين القادمين من هذا القرن ، ذلك لان دورة تصفية الاستعمار وما بعد الاستعمار لم تنته بعد ، وان العالم الثالث يختلف عن القوى الهرمة ، لانه لايزال في بداية شبابه ولم يبلغ مرحلة الرشد والاتزان السياسي .

بعض المشاكل الرئيسية

لكي نستقرىء المستقبل لنعرف ما يمكن ان يقع من حروب في الفترة الباقية من هذا القرن (بين ١٩٨٠ و ٢٠٠٠) ، يمكننا بالاستناد

الى الجدول رقم ـــ ٣ ـــ ، المتعلق بتصعيد العنف السياسي ، ان نستخلص ونطرح عدة مشاكل رئيسية ، دون امل بالوصول الى اجوبة اكيدة .

غير ان الشيء الاساسي هو ، قبل كل شيء ، ادراك ومعرفة المشاكل ، لكي يمكن ايجاد حلول اقل فظاظة وأخف عدوانية لها .

١ ـــ ان نزاعا صغيرا كأزمة البترول مثلا ، قد يؤدي الى حرب محلية ، بل وحتى حرب عالمية ، وهذه الحرب ستكون ولا شك حربا نووية .

والواقع ان هذه الفرضية ليست مستبعدة ، خاصة اذا وضع سلاح البترول القوى الصناعية في « حالة اختناق » ، الامر الذي يشكل « مبررا قاطعا للحرب » . ذلك ان الحروب تتفجر عندما يجد احد الاطراف نفسه في وضع يائس لا مخرج منه ، وعندما يتجاوز الطرف الآخر عتبة « التسامح » كما فعل هتلر في غزو بولونيا عام ١٩٣٩ . وهذه العتبة هي « الحد الذي لايمكن احتماله » ، والتي اشار اليها السيد جان بابتيست دوروزيل في احدى مقالاته التي نشرت في مجلة السياسة الدولية (العدد الخامس ١٩٧٩) فقال : « ان الحد الذي لا يمكن احتماله هو الشيء الذي يستحق المغامرة من اجله بالحياة ... » .

وان ما يستحق التضحية بالنفس في اللحظة الحرجة هو

الشيء الذي لا يمكن احتماله . وهذا الموقف ينتج بلا ريب عندما يرفض الانسان التنازل عن نظام القيم التي يؤمن بها .

ولما كان التناوب بين السلم والحرب ، بما في ذلك الاعداد لهذه والتهديد بتلك ، يشكل السمة المهيمنة للعلاقات الدولية ، فانه يصبح من الضروري جدا دراسة « الوضع الذي لايمكن احتماله » و « العتبة » التي تؤدي اليه .

وهنا يتبادر للاذهان السؤال التالي : هل يمكن ان يتطور النزاع التحتي ، كعدم توازن البنى الديمغرافية ـ الاقتصادية العالمي الذي يولد الروح العدوانية ، هل يمكن ان يتطور هذا الى حرب عالمية ؟ .

... الواقع ان خلل التوازن الديمغرافي ـ الاقتصادي المتفاقم بين الشمال والجنوب .. والذي يمكن ان يأخذ في نهاية القرن الحالي ابعادا مخيفة ، يمكن ان يؤدي إما الى نزاعات مباشرة او الى اغراق البلدان الصناعية في المناطق المعتدلة بطوفان من سكان البلدان النامية (المناطق فوق المدارية والمناطق الاستوائية) .

وهنا تظهر اهمية الحوار بين الشمال والجنوب .

وهذه الحالة تنطبق ايضا على الخلل الديمغرافي ـ الاقتصادي بين الاتحاد السوفياتي والصين على جانبي حدود البلدين الذي ينوف طولها عن ستة الاف كم ، مما يخلق حالة متفجرة .

وكذلك الامر بالنسبة للعداء بين الشرق والغرب .

٢ ــ الا يمكن ان يؤدي تعدد النزاعات الصغيرة ، الى نشوب نزاعات متوسطة ، كما حدث بالفعل في لبنان عام ١٩٧٥ ، وفي ايران عام ١٩٧٨ ، وفي افغانستان عام ١٩٧٩ ، اي الى حروب داخلية وثورات تهدد دائما بالتدخل الاجنبي ؟ . ثم الا يمكن ان يؤدي تطور عمليات الارهاب الى زرع الفوضى في بعض البلدان ؟ وهل يؤدي الارهاب النووي الى تفجير حرب نووية ؟ .

٣ ــ أولا تهدد النزاعات المتوسطة ، مثل نزاعات تشاد والصحراء الغربية بالخطر ، عن طريق التصعيد ، بنشوب حروب محلية ، اذا لم يتم التحكم والهيمنة عليها في الوقت المناسب من قبل المجتمع الدولي ؟ .

والحقيقة ان الخطر كان قائما في قبرص عام ١٩٧٤ ، وفي لبنان عام ١٩٧٥ ، وفي ايران عام ١٩٧٨ .

٤ ــ والحروب المحلية ، الا يمكن ان تتدهور بسرعة بالتصعيد وتتحول الى حروب واسعة قد تصبح عالمية ونووية ؟ .

ان هذا الخطر ، هو بلا شك احد التهديدات الاكثر خطورة ، بل هو الاكثر انتشارا ، فالحرب الكمبودية أدت الى التوتر بين فيتنام من جهة والصين وتايلاند من جهة اخرى ،

والحرب الافغانية ادت الى حدوث توتر عالمي لا يزال قائما حتى الآن [1] .

ومن الجدير بالذكر ان ديناميكية النزاعات تطرح السؤالين التاليين :

اولا : هل ستبقى الحروب المحلية « الجزئية » التي لا بد من تأديتها من اجل تحاشي الحرب النووية ؟ أو على العكس ، هل الحروب المحلية مؤهلة لان تتحول بارادة البشر او بسبب عجزهم الى حرب نووية شاملة تدمر المدن وتبيد المئات من ملايين البشر ؟ .

ثانيا : الى أي حد ترتبط القوى الصغرى التي تتجابه في حروب محلية ، بالقوى العظمى ، التي تعتمد عليها بالتسليح والتموين ؟ وهل هي قادرة على جر هذه القوى العظمى الى الحرب فتصبح الحرب بعد ذلك حربا عالمية ونووية ؟ او على العكس هل باستطاعة القوى العظمى الاستمرار بالتحكم والسيطرة على مسألة الحرب والسلام ؟ .

والحقيقة ان هذه الاحتمالات الاربعة ممكنة ، وينتج عنها اربعة أشكال مستقبلية للحروب المحلية :

آ ـ السلام ، عن طريق التفاهم ، او الوساطة ، او الاكراه ، او الانهاك :

(١) والمقصود هنا حتى تاريخ نشر الكتاب الذي نحن بصدد تعريبه ، اي في الربع الاول من عام ١٩٨٠

ب ـ تدهور الحرب الى حد استحالة الاستمرار .

ج ـ الاتساع المحدود والتحول الى حرب محيطية تشترك فيها احدى القوى الكبرى كما هي الحال في حرب افغانستان .

د ـ الاتساع الكامل والتحول الى حرب عامة وعالمية عن طريق الاشتباك الفعلي للقوى العظمى ، ليس على مسرح عمليات النزاع فحسب ، بل وفوق منحدراتها واراضيها بالذات .

وعلى هذا الاساس يمكن اعتبار الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ، والحرب في لبنان ، والثورة الايرانية الداخلية [1] والحرب الافغانية (التي لم تسو حتى مطلع عام ١٩٨٠) من اعظم الاخطار التي تهدد العالم الآن ، خاصة بسبب حساسية الشرق الاوسط من الناحية الجغرافية ـ السياسية ، وبسبب ما تختزنه من البترول .

٥ ـ هل تؤدي نهاية توازن الرعب ، واجتياز العتبة النووية بالعالم الى الانزلاق الى الحرب التي ستكون في هذه الحالة حربا نووية ؟ واخيرا الا يمكن ازالة هذا الخطر ؟ .

من المؤكد انه طالما استمر توازن الرعب بين القوتين العظميين فان الفرضية القائلة بأن العنف السياسي سيبقى محصورا

---

(١) والحرب الايرانية ـ العراقية التي نشبت في ٢٣ ايلول ١٩٨٠ ولم تسو حتى الان (المعرب) .

في اللعبة النووية ، وسيكون خلال العقدين القادمين من هذا القرن ، مجموعة من المشاكل المتنازع عليها التي ستسبب نزاعات جزئية صغيرة ، ونزاعات متوسطة وحروبا محلية .

غير ان هذا « الحصر النووي » يمكن ان ينهار على اثر تقدم تكنولوجي حاسم ، أو بسبب خطأ في التقدير على مستوى الاستراتيجيات النووية ، او نتيجة لهروب احدى القوى العظمى الى الامام، عندما تشعر انها اصبحت في وضع يهدد وجودها نفسه بالخطر ، واخيرا يمكن ان ينهار الحصر النووي بسبب جنون بعض القادة المهووسين .

يقي علينا ان نشير الى اربعة مشاكل عظيمة الاهمية :.

١ ــ الحتمية والحرية .

٢ ــ المسؤولية .

٣ ــ الاضطراب .

٤ ــ الحذر .

الحروب الحتمية والحروب غير الحتمية

والسؤال هنا هو : هل تتغلب الحتمية في الميدان السياسي ــ الاستراتيجي وديناميكية النزاعات الى الحد الذي تصبح فيه نوعا من

« القدر » ؟ وهل يبقى لدى القادة شيئا من الحرية بمثابة هامش مناورة ؟ او بالاحرى هل تتفوق الحرية في هذا المجال الغامض ، على الحتمية التي تقلص وتهدد هامش المناورة ؟ .

والحقيقة ان هذا السؤال على جانب عظيم من الاهمية ...

ويبدو انه يمكن تمييز نوعين من الحالات :

ــ حالة الحروب التي تصبح حتمية .

ــ وحالة الحروب التي لا تزال غير حتمية .

وفي حالة الحروب الحتمية ، مثل الحرب العالمية الثانية ، كان من الواضح (قبل نشوب الحرب) لن الحرب لا يمكن تجنبها ، وان هامش المناورة اصبح ضيقا الى افصى الحدود . ولم يبق امام المسؤولين، ضمن بعض الشروط ، سوى امكانيات محدودة للتأثير على زمان ومكان وشروط هذه الحرب لجعلها اكثر ملاءمة او على الاقل التخفيف ما أمكن من شرورها .

فالتأثير على « الزمان » يمكن الحصول عليه باستباق موعد نشوب الحرب ، والمبادرة بحرب وقائية ... مثلا ، ومع ذلك لا بد من الاشارة هنا الى المصاعب التي تطرحها الحرب الوقائية على الصعيد الاخلاقي وعلى صعيد القرار ، الامر الذي يفسر ندرتها ، اما محاولة تأخير وقوع الحرب ، باجراء بعض التنازلات او اللجوء للمفاوضات ، مثلا ، فهذا ينطوي دائما

ن بمغامرة دقيقة جدا وخطيرة النتائج (ويكفي ان نذكر اتفاقية ميونيخ
ام ١٩٣٨ للبرهان على ذلك) ...

والتأثير على « المكان » يمكن الوصول اليه بتحاشي الصدمة
ولى ، أو بالاحرى تغيير اتجاه الصدمة الاولى .

اما التأثير على الشروط فيمكن الوصول اليه بالعمل الدبلوماسي .

والخلاصة : « ان مفهوم هامش المناورة ، في حالات الحرب
لحتمية يعتبر عنصرا جوهريا يجب البحث عنه واستغلاله بكل السبل
لوسائل » .

وفي حالة الحروب غير الحتمية : فان هامش المناورة يكون عادة
كثر اتساعا . لذا يجب العمل على تحاشي نشوب هذه الحرب
(تكتيكا » ، وهو امر ممكن ، واستراتيجيا عن طريق حل عقدة الازمة
بشكل يزيل خطر الحرب على المدى المتوسط والمدى البعيد . لذا يجب
عدم الاقدام على أية مجازفة قبل اتخاذ جميع الاحتياطات واجراء الحسابات
الدقيقة لكل الاحتمالات ، لانه في حالة الفشل قد تنقلب هذه الحرب الى
حرب حتمية اشد خطرا او هولا .

وهناك حالتين مثاليتين مختلفتين تجسدان بشكل دقيق حالة الحرب
غير الحتمية : الحالة الاولى وقعت قبل العصر الذري وهي احتلال المانيا
الهتلرية لمنطقة رينانيا عام ١٩٣٦ ، والحالة الثانية في العصر النووي وهي
ازمة كوبا عام ١٩٦٢ .

ففي الازمة الكوبية ، كان من الممكن ان تؤدي الازمة الى حرب نووية على عكس ازمة رينانيا التي سبقت العصر النووي .

ومن المعروف تاريخيا انه مع ازمة رينانيا عام ١٩٣٦ لم تتخذ الاجراءات اللازمة والكافية لتحاشي الحرب ، وبالتالي فقد جعلت الحرب حتمية .

أما في الازمة الكوبية ، في عام ١٩٦٢ فقد سمحت المجازفة المحسوبة واستخدام الردع النووي المتدرج ، بتحاشي الحرب ...

لذا فان المجازفة المحسوبة اساسية في حالة الحرب غير الحتمية ، ولكن يجب الحذر خلال عملية المجازفة من الانزلاق الى مجازفة اخرى لا تحسب عقباها ، فتتحول عندها الحرب غير الحتمية الى حرب حتمية .

وهنا لا بد من طرح السؤال التالي وهو : كيف يمكن ايجاد الترابط المنطقي والتخلص من الحتمية ؟ .

ويبدو ان « التهديد النووي الجدي » ، المبني على حسابات دقيقة جدا ومفهومه ، أثبت جدواه .

وتجدر الاشارة في هذا المجال ان التهديد النووي اكثر من التهديد بالغاز الذي لم يستطع هتلر او لم يتجرأ على استخدامه بين عام ١٩٤٢ و ١٩٤٥ .

لذا نعتقد ان هناك علاقة منطقية بين التهديد النووي وبين

الحتمية ، فاذا تغلبت الحتمية النووية على الحتمية غير النووية أمكن تحاشي الحرب .

قادة الدول والاحبار العظام (الكهنة العظام)

الواقع ان رؤساء الدول ، يقومون في وقت واحد بدور المحرك لشعوبهم ، وبدور التعبير عن ارادة هذه الشعوب . فهم تارة يقررون مصير هذه الشعوب ، وتارة يخضعون لارادة الرأي العام كما فعل نابليون الثالث عام ١٨٧٠ (١) .

وتجدر الاشارة الى ان سلطة رؤساء الدول باتخاذ قرارات الحياة او الموت لشعوبهم (الحرب او السلم) كانت مختلفة عبر التاريخ . فعندما يجمع رؤساء الدول بين السلطة السياسية والسلطة المقدسة ، يكونون ملوكا وقضاة في وقت واحد ، وفي هذه الحالة لا يكون لشعوبهم اي صوت او رأي في مسألتي الحرب والسلم .

وفي القديم كان صوت الملك هو « صوت الرب » ، وكان ذلك

---

(١) نابليون الثالث (١٨٠٨ — ١٨٧٣) انتخب رئيسا للجمهورية الفرنسية في كانون اول ١٨٤٨ ، واقسم الولاء للدستور ، ولكنه تنكر لقسمه الجمهوري ، واعتقل السياسيين الجمهوريين وقام بانقلاب اطاح بالجمهورية ٢١ كانون اول ١٨٥١ واعلن نفسه امبراطورا عن طريق الاستفتاء العام المباشر بتاريخ ٢ كانون اول ١٨٥٢ . واصبح حاكما مطلقا حتى عام ١٨٦٧ ، ثم اضطر لاصدار بعض القوانين التي اعادت عددا من الحريات للمواطنين بين ١٨٦٧ و ١٨٧٠ . وبعد هزيمة ١٨٧٠ اعتقله الالمان ثم توفي عام ١٨٧٣ .

هو الحق الالهي للملوك . صحيح انهم كانوا يحيطون انفسهم بالمستشارين كما فعل لويس الرابع عشر في اللحظة التي طرحت عليه مشكلة خلافة العرش الاسباني ، ولكنهم كانوا في نهاية الامر يتخذون القرار لوحدهم مستندين الى حقهم الشرعي .

وفي العصور القديمة كان رؤساء الدول « أحبارا عظاما » اي أنهم يملكون السلطة الدينية العليا والدنيوية . وبموجب هذه السلطة العليا يمكن للملوك (الاحبار) ان يغامروا بمصائر شعوبهم نظرا لان مسؤولياتهم شاملة ومطلقة .

ومع تقدم الديمقراطية ، وازدياد قوة الرأي العام ، انتقلت سلطة اقرار الحرب والسلم ، في الدول الديمقراطية الى المجالس النيابية التي تجسد السيادة الشعبية . وهكذا انقلبت الآية واصبح « صوت الشعب هو صوت الرب » . وان المهلة الزمنية التي يتطلبها اعداد الجيوش الكلاسيكية ، وتعبئة الجيوش الوطنية ، سمحت للبرلمانات بأن تناقش مسألة الحرب والسلم وان تجري التصويت لاقرار هذه الحالة او تلك ، مع الاشارة الى ان هذه البرلمانات قد تكون في بعض الاحيان خاضعة بنسب متفاوتة لرؤساء الدول والحكومات مما يجعل تصويتها ومناقشاتها اقرب الى الاجراءات الشكلية ..

ولكن الشروط الراهنة السائدة في العصر النووي الفضائي ، أدت الى تقليص « مهلة القرار » لتصبح عدة ساعات او عدة دقائق ، بعد ان اصبح في مقدور الصواريخ العابرة للقارات التي تحمل الرؤوس النووية

المتعددة ، اصابة المراكز الحيوية للدول ، على مسافة الاف الكيلو مترات وتدميرها تدميرا كاملا خلال ساعات معدودة .

وهكذا يجد رئيس الدولة نفسه ممسكا السلطة والمسؤولية باتخاذ القرار باستخدام السلاح النووي لغايات الردع او لاغراض هجومية ، في مهلة قصيرة جدا . ولن يكون امام المجالس النيابية (البرلمانات) الوقت اللازم للتداول والتصويت على القرار . وبذلك يصبح العدد القليل من المستشارين وحدهم ، هم الذين يقدمون آراءهم للرئيس كي يتخذ القرار الحاسم النهائي . وهذا الوضع يذكرنا بصلاحيات « الكاهن الاعظم » وسيد الحياة والموت لاتباعه في العصور القديمة .

أولا يعني هذا ان البشرية تعود من جديد الى العصر الذي كان فيه « صوت الملك هو صوت الله » مع تغيير بسيط ان الملك في عصرنا الحاضر هو رئيس الدولة ؟ .

ولكن هذا الوضع الجديد لا بد وان تتوفر فيه شروط ثلاثة :

١ ــ ان يكون رئيس الدولة فعليا ومن الناحية الشرعية مجسدا للسيادة الشعبية ، وان يملك الصفات اللازمة لكي يكون قراره معبرا تمام التعبير عن ارادة الامة ومصلحتها العليا .

٢ ــ وان يكون رئيس الدولة منتخبا من الامة بكاملها كما هو الامر في البلدان ذات الانظمة الديمقراطية . وان تكون قوته في اتخاذ

القرارات مستمدة من قوة شرعيته . وان تكون سلطته متوقفة على مدى شعبيته في الامة .

٣ — وان تكون متانة اخلاق الرئيس في مستوى حكمته وعدالته ووضوح رؤيته ..

وفي رأي الاستاذ جاك فيرنان (عميد المعهد العالي للعلوم السياسية بباريس) :

« ان من واجب رجل الدولة ، في الازمات ، السعي الحثيث لتحقيق هدفين على الاقل ، يستطيع بواسطتهما الوصول الى طريقين مختلفين للعمل في اغلب الاحيان الا وهما :

— تأمين استقرار السلطة في الداخل للمدى المتوسط .

— والبحث في الخارج عن الحل الاكثر ملاءمة لمصالح البلاد الدائمة » .

والخلاصة ، ان واجب رؤساء الدولة المتخاصمة (أو المتحاربة) في جميع الحالات ، ايجاد الطريق السليم الذي يحفظ السلام ، في جو يحتدم فيه الخصام الذي لامفر منه بين جماعة (الصقور) وجماعة (الحمائم) الموجودين في كل البلاد . ولهذا يعتبر دور رؤساء الدول اساسيا .

الاضطرابـــات

تجدر الاشارة ان هناك بعض رؤساء الدول بسبب قوة شخصيتهم وطموحهم ، وزعامتهم الحقيقية ، وبسبب التأييد الجماهيري الذي اوصلهم الى السلطة ، يمكن ان يصبحوا « خطرين على التوازن الدولي القائم » .. ويعتبر « هتلر » من هذا النوع من الرؤساء .

والحقيقة ، انه لكل « زمان » شخصياته التي تعكر صفو الامن فيه ... **والعالم في عام ١٩٨٠ يحتوي ولا شك ، على العديد من هؤلاء « المشاغبين » .. ومن واجب المجتمع الدولي ان يكتشف في وقت مبكر مطامعهم لكي يتمكن من « احتوائها » بينما يكون ذلك ممكنا ، لتحاشي الاخطار التي تسببها هذه المطامع ...**

وفي العصر النووي ــ الفضائي يمكن صياغة نظريتين اساسيتين :

ــ النظرية الاولى : اذا بقيت الحروب محدودة ومحلية ، فانها ستعكر السلام العالمي وستؤثر على الحضارات ...

ــ والنظرية الثانية : اما اذا انفجرت حرب نووية او بيولوجية فلن يقتصر الامر على الاضرار بالحضارات في منجزاتها الحية ، وتلطيخ الضمير الانساني بالجريمة الرهيبة ، فحسب ، بل ان بقاء النوع البشري سيكون امرا مشكوكا فيه [1] ...

---

(١) يلاحظ من هاتين النظريتين مدى التركيز على الحروب المحلية التي يراد لها أن تسود الفترة الباقية من هذا القرن ، ومن الطبيعي ان تكون البلدان النامية او بلدان العالم الثالث ، الميادين المطلوبة لهذه الحروب (المعرب) .

لهذا فان « العتبة النووية » هي « عتبة ما لا يمكن اصلاحه » .

بعض النقاط التي تطبق فيها مجهودات السلام

ان البحث الذي نحن بصدده حول استطلاع المستقبل للفترة الواقعة بين عام ١٩٨٠ وعام ٢٠٠٠ ، لم يمكننا الا اعطاء اجوبة جزئية واثارة اسئلة جديدة مستندين على الاسلوب العام للعنف السياسي ، من جهة ، وعلى تحليل تطور النزاعات بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٧٩ ، واستطلاعات المستقبل القريب من جهة اخرى .

والسؤال الذي يتبادر للذهن في هذا المجال هو :

هل العالم في مطلع عام ١٩٨٠ في وضع قابل لنشوب الحرب ؟ .

ان استطلاع النزاعات لا تسمح بالتنبؤ حول اي من هذه الاحتمالات المستقبلية الذي سيتحقق ، لان مسألة الحرب والسلم ، ستكون غدا كما كانت بالامس ، مسألة صراع بين حرية الانسان وحتمية الاشياء ...

وان السلطة والرأي العام في القوتين العالميتين العظيمتين يمكنهما ان تعتمدا على الاقل في هذا الصراع ، على حقيقة كون العنف السياسي يتطور عادة باتجاه مستويات متصاعدة ، لذلك يمكن بل يجب على الجهود

السلمية ان تكون صريحة واضحة في مستوى « ظواهر العنف » وان تطبق للحيلولة دون اجتياز « العتبة العليا » .

اما بالنسبة للروح العدوانية ، فان جرثومة الحروب تنمو في مختلف البنيات (الجغرافية ، والسكانيئة ـــ الاقتصادية ، والثقافية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والعقلية) ، ويجب التأثير عليها بالعمل السياسي الوقائي الطويل المدى للتخفيف من عدوانيتها وجعلها اقل تفجرا .

ويبدو لنا ان المراقبة الحذرة المستمرة لقوة عدوانية البنيات المختلفة ، ولمستويات العنف ، هي الشرط الاساسي الذي يجب ان يسبق كل جهد سلمي فعال ، من اجل التنبؤ بالازمات العدوانية ، ومحاولة السيطرة على الاخطار ومنع المجازفات .

وان عظمة الانسان والمجتمعات والحضارات ، هي في قدرتها على معرفة ما يمكن ان يدمرها ، من اجل العمل في وقت مبكر على ايقاف تداعي وتصعيد احداث العنف في اوسع نطاق ممكن ، وهي ايضا في نزوع الحرية الانسانية والحب للانتصار على حتمية الاشياء .

ونحن نعتقد ان « تحليل التهديدات العدوانية السابقة الذي قمنا به في هذا البحث » ، يصلح ايضا بالنسبة للتهديدات العدوانية في مطلع عام ١٩٨٠ .

صحيح ان تطور « علاقات القوة » و « التقدم التقني » يستلزمان التحديث الدائم ، ولكن الشيء المهم هو ان الاسلوب المقترح

لدراسة الحالات العدوانية سيبقى صالحا ما دام التوازن النووي (او توازن الرعب) قائما .

وفي اطار هذا التحليل ، يجدر بنا ان نعيد الى الاذهان « ان هدف علم الحرب — شأنه في ذلك شأن العلوم الاخرى كالفلسفة وعلم الاجتماع ، وعلم النفس والتاريخ — ليس حل المشاكل ، فذلك امر يعود للسياسة وحدها ، ولكن الاكتفاء بطرح هذه المشاكل على أحسن واوضح الوجوه ، لمساعدة السلطة على ايجاد الحلول المناسبة لها ، كما يهدف علم الحرب الى انشاء « نظام انذار » للكشف والتعرف على الظواهر المتنازع عليها [1] والبحث عن السبل والوسائل للسيطرة عليها .

---

(١) تجدر الاشارة هنا الى ان هذا العلم كبقية العلوم قد تكون اهدافه سامية ولكنه قد يسخر لتحقيق اشنع الاهداف .. فهو في سعيه للتعرف والكشف عن خفايا واسباب وظواهر النزاعات ، يمكن ان يقدم لبعض القوى الشريرة المواد الخام التي تستخدم لتأجيج وتفجير هذه النزاعات ، للوصول الى اهدافها القذرة كما تفعل اسرائيل والامبريالية في السنوات الاخيرة (المعرب) :

الفصل السابع عشر

تفاعلات الحضارات والحروب

يمكن ان نجمع في نهاية هذه السلسلة من التحليلات والتركيبات الجزئية ، في لوحة اجمالية شاملة ذات حقلين معظم التفاعلات بين الحضارات والحروب (يرجى الرجوع للوحة رقم ــ ٧) .

اللوحــة رقم ــ ٧ ــ

تأثير الحضارات على الحروب (الحقل الاول)

عناصر الحضارات الفاعلة (الفصل الثاني)	عناصر الحروب المنفعلة (او المتأثرة) . (الفصول: الاول، والثالث، والسادس عشر)
آ	ب
١ ــ ميدان الحضارة ــ المجال البري :	

أ	ب
* ابعاده، وتقسيماته الدولية	ابعاد الحروب (حروب مدن ، او حروب امبراطوريات)
* وضعه الجغرافي ـ السياسي	حروب دفاعية أم حروب فتح ام غزوات
* خطوط تصدعه	خطوط مجابهات مسلحة
* حدوده الطبيعية التقريبية	مدى هشاشة هذه الحدود أو قوتها
* شبكة مواصلاته	ومدى تطور التحصينات والاسوار الاستراتيجية ، التكتيك ، الشؤون الادارية
ـ السيادة البحرية:	ـ وجود أو عدم وجود القوات البحرية ـ استخدام العمليات المشتركة
ـ السيادة الجوية:	ـ وجود او عدم وجود القوات الجوية ـ استخدام العمليات المشتركة ـ تعرض السكان المدنيين او عدم تعرضهم للاخطار :

(آ)	(ب)
ـ السيطرة على الفضاء الخارجي :	ـ استخدام القذائف والصواريخ ـ وجود او عدم وجود الأقمار الصناعية (اقمار الرصد ،والاتصالات ، والتدمير) .
٢ ـ القوة السكانية النسبية :	ـ نزعة الحرب ، او الخوف من الحرب ـ مستوى الخسائر المقبولة بالارواح.
٣ ـ العرق :	ـ الحروب العنصرية (العرقية)
٤ ـ البنيات السكانية ـ الاقتصادية	ـ مبررات ووظائف الحروب
٥ ـ العقليات :	ـ تكوين الحروب ـ المجازفات : محدودة ،ام شاملة
ـ اساليب التفكير	ـ التكتيك . النزعة للقيام بمذابح بشرية ، وجود او عدم وجود قانون للمجابهة ، التمييز او عدم التمييز بين المقاتلين ، والمدنيين
ـ الديانات	ـ طبيعة الحروب الدينية ـ المكان المخصص للاله في الحروب

(ب)	(آ)
ـ اعلان الحرب او عدم اعلانها ـ توقيع معاهدة سلام او عدم توقيعها الطبيعة الايديولوجية للحرب	ـ الايديولوجيات
ـ تناظر او عدم تناظر الحروب ـ هدف الحروب : العبيد ، الثروات ، الاراضي	٦ ـ العناصر المادية :
ـ التحصينات ، والحصار ، اساطيل حربية ، أسراب جوية ، اقمار عسكرية ، اعلان الحرب او عدمه	ـ الادوات والتقنيات ـ الجمالية
ـ الالبسة العسكرية ، وألبسة الميدان ، الادب ، والاعمال الفنية ـ حجم الجيوش ، التعبئة الشاملة ، قوة أو ضعف التموين والادارة	ـ الحياة المادية والقدرة الصناعية
ـ مجمل الزيادة بالسكان ، القدرة على تعويض الجرحى	ـ الطب
ـ المكان المخصص للمرأة في الحرب ، التوزيع بين المقاتلين والعناصر في المؤخرة .	٧ ـ التنظيم : ـ بنية الاسرة

(ب)	(أ)
ـ تجنيد الجيوش ، حروب محدودة أم حروب عامة ، تنظيم قيادة الجيوش	ـ تقسيم العمل ـ التسلسل الاجتماعي ـ المؤسسات والاشكال السياسية
ـ اتجاه البحث نحو الاهداف العسكرية [1]	٨ ـ الاختراعات :
التطبيق السريع او البطيء في الحرب ، تحولات وتطورات الحرب ـ أساليب وقف الحروب ـ فترات الحروب المتناوبة	٩ ـ مستويات القدرة على الابداع ، أو القدرة على التدمير وعلاقة هاتين القدرتين :
ـ اقامة نظام عسكري ضروري لبقاء هذه الحضارة ـ النزعة للحروب والفتوحات ـ بالحروب أو بالتأثير المتبادل (الارتشاح) والتبادل بين الحضارات	١٠ ـ حيـاة حضارة ما ـ ميلادها ـ نموهـا

(١) ان الاختراعات العسكرية والبحوث المختصة للحروب يكون لها في الغالب نتائج في الميادين المدنية .

آ	ب
ـ تدهورها	ـ مدى تعرضها وحساسيتها بالنسبة للحروب الاهلية والخارجية
ـ موتها	ـ زوال نظام عسكري ، أو زوال شكل من اشكال الحرب
١١ ـ حيوية وديناميكية حضارة ما :	ـ مدى مقاومتها لآثار الحروب التدميرية

اللوحة رقم ـ ٧ ـ الحقل الثاني

تأثير الحروب على الحضارات

عناصر الحروب الفاعلة (الفصل الاول ، والثالث والسادس عشر)	عناصر الحضارات المنفعلة بالحروب (الفصل الثاني)
١ ــ الاعداد للحرب ، وللحرب وحدها[١]	ـ كان لها تأثير على تطور الحضارات
	ـ صناعة الاسلحة كمحرك للاقتصاد
٢ ــ الحروب تبدل :	ـ ميدان الحضارة : ــ المجال البري ، المجال البحري ، المجال الجوي ، المجال الفضائي
	ـ القدرة السكانية النسبية
	ـ شكل هرم الاعمار
	ـ البنية السكانية ــ الاقتصادية
	ـ العقليات ، الديانات ، الايديولوجيات
	ـ اتساع وتطور اللغات
	ـ الادوات والتقنيات المدنية (بواسطة

(١) انشاء قوات مسلحة ، وبحوث للتطور ، وضع أسلحة ، وأسلحة وعسكرة الحياة نفسها .

	اختراعات اوقات الحرب) [٢] - الجمال : تأثير علم الجمال للطرف المنتصر - الحياة المادية ، والقدرة على الانتاج - مستوى الطب - التسلسل الاجتماعي (الطبقية) - المؤسسات والاشكال السياسية - سير ومستقبل الالعاب الاولمبية
٣ ــ والحروب تزيد في سرعة :	- تطور الحضارات ، - والتبادل بين الحضارات ،
٤ ــ والحروب تساهم :	- في ولادة حضارات جديدة - وفي تلف وتدهور الحضارات - وفي وفاة (قتل) الحضارات
٥ ــ والحروب (النووية والبيولوجية). تهدد	- الحضارات ، بل وبقاء الجنس البشري.

(١) ان هذه الحروب تزيد في سرعة الاختراعات ، وتطبيقاتها ، تحت ضغط الحاجة ، ويمكن ان تتحول هذه المخترعات الى القطاع المدني في اوقات السلم .

من المؤكد ان هناك عوامل ذاتية المنشأ وعوامل خارجية المنشأ ، غير تلك العوامل الناتجة عن تكوين الحروب وحياة او موت الحضارات .

ويجب الا ننسى ان معارك فكرية كبرى تشن الى جانب معارك القوة (الحروب) وان هذا النوع من المعارك لا يمكن كسبها الا اذا لم تتبعها فتوحات فكرية ودينية واجتماعية وايديولوجية ، وان التطرف في الحروب والثورات يمكن ان يؤدي الى « تصفية الحضارة » او الى خالة من الهمجية الجاهلية .

ومع ذلك فان للحروب نفوذا جوهريا ، فهي بالنسبة للحضارات ، كتطور الخلية ، والحوادث الطارئة ، والامراض ، والوفاة ، بالنسبة لحياة الانسان الفردية .

وتشكل الحروب ظاهرة بيولوجية واجتماعية من الدرجة الاولى ، وان محاولات الاقتراب السياسية والعسكرية لن تكون كافية لفهم هذه الظاهرة والسيطرة عليها ، وان « علم الحرب » علم جديد ذو طبيعة تبادلية (يؤثر ويتأثر) وهو يقترح اخذ شموليته بعين الاعتبار .

الخلاصة

بعد أن وصلنا الى نهاية مجابهتنا للحروب والحضارات ، يمكن ان نستنتج من هذه العملية بعض « المواضيع للتفكير » في مجال هذه الخلاصة .

فمنذ اقدم الغصور البشرية ، ظهرت الحرب بأشكالها المتجددة باستمرار في جميع الحضارات ، وادت الى تطورها وتداخلها ، وعملت على تغيير ميادين وعناصر هذه الحضارات ، الى ان وصلت في بعض الاحيان الى تحويلها او تدميرها وزوالها .

وفي العالم الحديث اخذت الاضطرابات والمآسي اشكالها في عام ١٩٤٥ . وتعد لاطول حرب عرفتها البشرية ، ومع امتداد التقدم والتقنيات وشمولها الكرة الارضية بكاملها ، وبعد السيطرة المزدوجة على الذرة والفضاء ، ذات الحدين ، هل سيعم الخير ام الخراب ؟ وهل ستكون النتيجة الحياة ام الموت ؟ أو بالاحرى هل العالم يتجه الآن نحو الحرب او يسير باتجاه السلام ؟ .

أو بعبارة اخرى ، كما صرح السيد نوبل بيكر حامل جائزة نوبل للسلام ، في منظمة اليونسكو بتاريخ ١٤ تشرين الثاني ١٩٧٩ : « على الانسانية ان تختار بين عالم يمكن ان يتحول الى صحراء مقفرة كالقمر اذا وقعت الحرب النووية ، وبين عالم رائع » .

والحقيقة ان هذه الاساليب الجديدة المتسارعة للخلق والتدمير تأخذ اليوم اشكالا مختلفة ، وهي تزلزل جميع الحضارات القائمة حاليا ، بما في ذلك الحضارة التقنية الغربية المتطورة جدا ، والحضارات العريقة الموجودة في العالم الثالث .

ولكن تأثير الحروب المدمرة ، يجب ألا يجعلنا نغفل التهديدات

الاخرى التي يمكن ان تثقل كاهل الحضارات وتشلها ومن هذه التهديدات :

- الكوارث الطبيعية الهائلة (تقلبات المناخ ، الانهيارات ، والفيضانات ، الهزات الارضية) التي عرفتها الكرة الارضية في العصور الجيولوجية الماضية ، والتي يحتمل ظهورها من جديد .
- التدهور البيولوجي الذي يصيب الحياة البشرية بسبب التلوث ، وانهاك محيط الكرة الارضية الحيوي ، وجفاف الموارد الطبيعية .
- الاوبئة الجائحة المرعبة التي يمكن ان تظهر من جديد ايضا .
- المجاعات التي تزداد انتشارا مع تضاؤل الموارد وازدياد السكان .

ومن الجدير بالذكر ان العدو الرئيسي الذي يعرقل التطور السلمي للبشرية ، في زمننا الحاضر ، يتكون من مجموعة الفرسان الاربعة التالية :

- تدهور الحياة ، والجوع ، والحرب النووية ، والبيولوجية (الجرثومية) والموت .

ومن واجب المجتمع العالمي ان يفهم هذا العدو فهما عميقا ويجسده تجسيدا واضحا يستطيع مجابهته متضامنا ، ويرفع عن كاهل البشرية هذا التحدي الشامل المخيف .

وعلى المجتمع العالمي ، منذ الآن ان يدرك بصدق واخلاص انه ليس هناك سوى عدو واحد : ذلك هو العدو الذي يبيد الانسان ...

ان الوسيلة الوحيدة القادرة على ازالة التهديدات والمخاطر ، هي الجهد القوي الخلاق المعنوي والتقني المدعوم بمزيد من الروح . مع العلم بأن المخاطر التي تنتظر البشرية في العقود القادمة يمكن ان تكون مميتة .

وطالما بقيت الحضارات ، كما اصبحت تدريجيا ، مؤلفة من مجموعة أمم لكل منها ثقافتها وطاقتها ، فلا بد لها ان تستمد قوتها من الموارد الحيوية الوطنية والتضامن الدولي المخلص ..

وان الايمان وحده بالانسان وبمصيره ، يمكن ان يوحي وينعش هذا « الجهد المشترك » لكي تتمكن حضارات الجنس البشري الحية الموجودة على كوكب الارض ، الانتصار على الاخطار المنتظرة في عام (٢٠٠٠) م .

وان العالم الغربي ، رغم شيخوخته النسبية ، يمكن ان يقدم مساهمة لا مثيل لها ، من اجل بقاء الحضارات المتجددة ..

وتجدر الاشارة في هذا المجال الى ذلك النداء الذي اصدره السيد جان هامبرغر (في كتابه الذي صدر عام ١٩٧٩) بعنوان « غدا .. الآخرون » ، والذي يقول فيه :

« ان هذا التطور الثقافي ، والاموات الذين يعدون اشكالا جديدة ، هي دون شك صورة تاريخ البشر . لقد كان لدينا حبا ثمينا اكثر

منه خالدا .. يمكن ان يخلف لاحفادنا انواعا اخرى من الحب الذي لم نشعر به نحن .

ويبدو لي بالمقابل ، انه لمن البؤس الشديد الاّ نستطيع صيانة مساهمتين من مساهمات حضارتنا :

المساهمة الاولى : هي اسلوب اكتشاف الحوار اللازم مع العالم ، القائم على الاسس التي تعلمناها من « اساليب النقد العلمي » ..

المساهمة الثانية : هي غاية ، وموقف حياة ، وعاطفة : عاطفة احترام الفرد ..

واذا كانت آفاق هذا الاسلوب وهذه العاطفة ، ستسود وتتلاشى ثم تزول ، فان المغامرة الانسانية لن تتوقف ، بل ستبدأ بالدوران حول نفسها .. وقد تقطف حصادا آخر ... يفقدها كل ما حصلت عليه من تقدم مدهش ، وان تاريخ هذين المستقبلين الفكري والاخلاقي سيصبح في النهاية تاريخ فرضيتين ضائعتين » .

واخيرا سوف يطبق على الحضارات ذلك الرأي الذي صرح به الرئيس جورج بومبيدو للرئيس نيكسون عشية مراسم دفن الجنرال شارل ديغول وهو :

« ان المجتمعات التي لا تدافع عن نفسها لا يمكن ان تعيش او بالاحرى ليست جديرة بالحياة » .

باريس ١١ آذار ١٩٨٠

الملحــق رقم (١)

بعض التعاريف لعبارتي : الحرب والسلام

١ ــ الحــرب :

آ ــ معجم لاروس الفرنسي :

الحــرب :

١ ــ مبارزة بالقوة بين شعبين (حرب أجنبية ؟ أو بين حزبين في بلد واحد (حرب اهلية) او بين خصمين يسعيان للاستيلاء بالعنف على مالم يستطيعا الحصول عليه بالاساليب الاخرى ، اما ليرجحوا ادعاءاتهم او للدفاع ضد ادعاءات الآخرين ، كالحرب الفرنسية ــ الالمانية عام ١٨٧٠ والحروب العالمية الاخرى).

٢ ــ وهي فن ادارة هذا الصراع (والدراسة الاجتماعية لواقع الحرب مشار اليها في عبارة علم الحرب) .

٣ ــ وقياسا على ذلك ، فان المعارك التي تشنها الحيوانات تعتبر حربا .

٤ ــ بالمعنى المجازي هي صراع ما .

٥ ــ عمل يجري من اجل ازالة او تدمير شيء ما .

ب ــ معجم روبير :

الحــرب :

١ ــ صراع مسلح بين مجموعات اجتماعية وخاصة بين دول .

تعريف كينس رايث الذي يلح على الصفة الحقوقية : الحرب هي الشرط المشروع الذي يسمح لطرفين او عدة اطراف بالقيام بنزاع بالقوات المسلحة .

تعريف كلوزويتز : (الذي يهتم بالنوايا) : الحرب : عمل عنيف هدفه اجبار الخصم على تنفيذ رغباتنا ، وهي استمرار للسياسة بوسائل اخرى .

تعريف غ . بوتول : الحرب : شكل من اشكال العنف ، وتتصف اساسا بانها نموذجية ومنظمة فيما يختص بالجماعات التي تقوم بها والطريقة التي ينفذونها بها . كما انها محدودة في الزمان والمكان ، وتخضع لقواعد خاصة متغيرة الى اقصى الحدود . وميزتها الاخيرة ، أنها دموية ، اما عندما لا تشتمل على تدمير الحياة البشرية فتعتبر نزاعا او تهديدا متبادلا . و « الحرب الباردة » ليست حربا .

٢ ــ وبالتعميم : العمل العدواني هو صراع بين مجموعات اجتماعية او بين دول لا يصل الى درجة النزاع المسلح الدموي ، وهو الشكل الذي يعارض به غالبا الحرب السياسية والعسكرية (الحرب الاقتصادية ، الحرب الاعلامية ، الحرب الباردة الخ) .

٣ ـــ وبالمعنى المجازي : كل نوع من القتال او الصراع .

جـ ـــ معجم ليتريه :

الحـــرب :

اسلوب السلاح الذي يستخدمه الشعب ، او يستخدمه امير ضد أمير آخر ، لحل خلاف ما :

١ ـــ والحرب والطاعون والمجاعة ، هي آفات الهية ثلاث .

٢ ـــ ويقال حرب جيدة : كل حرب تسير حسب القوانين والتقاليد الحربية المعروفة .

٣ ـــ وتخلد الحرب في بعض الاحيان بالاساطير والشعر .

٤ ـــ والحرب حملة او غزوة .

٥ ـــ والفن العسكري ، هو معرفة الوسائل المستخدمة للقيام بالحرب .

٦ ـــ والحرب مجموعة الاعمال الهجومية والدفاعية والعمليات .

٧ ـــ والحرب كل نوع من النقاش والاشتباك او الصراع .

د ــ معجم لابوريت :

الحــرب :

تنتج عن المجابهة بين اعلامين او بنيتين او نظامين مغلقين لفرض هيمنتها الضرورية ، أو لتأمين تموينها بالطاقة او المواد الضرورية التي تعتبر بنفس الوقت خدمة للبنيات .

١ ــ تعريف سلبي : الحرب هي غياب السلم .

٢ ــ تعريف ساكن : الحرب حالة مجموعة بشرية ذات سيادة او مؤهلة للاستقلال السياسي ، يشكل موتها جزءا من مذبحة جماعية منظمة ومخططة .

٣ ــ تعريف اكثر ايجابية : الحرب مجابهة على نطاق واسع منظمة ودموية ، تقوم بها جماعات سياسية (ذات سيادة في حالة الحرب بين الدول ، وداخلية في حالة الحرب الاهلية) .

ملاحظــة : ان مفهوم النطاق الواسع هام جدا لانه لا بد من البعد الشاسع في الزمان والمكان وكثافة الخسائر لكي تكون هناك حرب فعلية . أما الأضطرابات المحدودة والمحلية والمتقطعة فليست حربا .

٤ ـــ تعريف أميل للفلسفة : الحرب هي العنف الجماعي المنظم والهائج والمقدس الذي يضحي بالأرواح البشرية لخدمة هدف سياسي .

هـ ـــ معجم روجيه كايوا :

الحـــرب :

عنف معترف به ، عنف موصوف ، عنف مُمجد . وهي تلبي الغرائز البدائية للكائن الانساني ، الذي حاولت الحضارات الانسانية ترويضه بصعوبة ولاجل محدود . وهي تدمير منظم ، يمكن ان تحل المشاكل المطروحة لفترة ما حلاً جذريا وبسيطا ، وتشكل انفجارا دوريا يخيل فيه للفرد والمجتمع بأنه يكمل نفسه اي أنه يصل الى الحقيقة ويبلغ الرخاء في وقت واحد . ولهذا فهي تقوم في المجتمع الآلي بنفس الوظيفة التي قامت بها في المجتمع البدائي : فهي تمارس نفس الاغراء وتبدو بالنهاية كالمظاهرة الوحيدة التي يقدس بها المجتمع المعاصر الوسائل والموارد الهائلة التي اصبحت بحوزته .

واخيرا فان الحرب اصبحت في هذه الايام تأخذ الافضلية على كل ما عداها ، ولم تعد الحرب هي التي تتكيف تبعا لقوانين الحضارة العامة ، بل على العكس فان الحضارة بمجموعها هي التي يجب ان تتكيف سلفا حسب شروط القتال المقبل .

وهكذا اصبحت الحرب هي التي تقود بدلا من ان تخضع وتطيع .

٢ ـ السلام :

آ ـ معجم لاروس :

السلام :

١ ـ علاقات بين الاشخاص الذين ليسوا في حالة نزاع او خصومة . وهو ايقاف للنزاعات والخصومات .

٢ ـ علاقات هادئة بين المواطنين وغياب الصراعات والاضطرابات والعنف .

٣ ـ حالة هدوء وسكون اجتماعي يتميز بالنظام الداخلي في كل جماعة وبغياب النزاع المسلح .

٤ ـ حالة أمة أو دولة ليست في حرب ، وعلاقات بين دول تتمتع بهذا الوضع ، معاهدة سلام توقف الحرب بين قوتين متحاربتين .

٥ ـ وبالتعميم : ـ حالة شخص لا يعكر صفوه او يزعجه شيء .
ـ هدوء داخلي لشخص ما ، او حالة نفسية لا يعكرها اي نزاع ولا اي حزن ، ـ حالة وطبيعة مكان او لحظة زمنية خالية من اي اضطراب او ضجة .

ب ــ معجم ليتريه :

السلام :

١ ــ علاقات نظامية هادئة خالية من العنف ، لدولة مع اخرى او لشعب مع شعب آخر . .

٢ ــ معاهدة سلام بعد تصديقها من الطرفين .

٣ ــ الوفاق ، والهدوء الداخلي في الدول والعائلات والمجتمعات الخاصة .

٤ ــ راحة النفس .

ج ــ علم الحرب :

السلام :

١ ــ تعريف سلبي قيم : هو غياب الحرب .

٢ ــ تعريف ساكن ، هو حالة مجموعة بشرية ذات سيادة اي تتمتع بالاستقلال السياسي ، ليس فيها وفيات ناتجة عن العنف الجماعي المنظم والمدار .

٣ ــ تعريف اكثر ايجابية : السلام حالة توازن مستقر تقريبا في العلاقات السياسية (بين دول من اجل السلام الدولي ، وبين مجموعات من

دولة ما من اجل السلام الداخلي) بشكل يستبعد كل جريمة انسانية جماعية منظمة .

٤ ــ تعريف اكثر التزاما : السلام هو النظام في الهدوء وهو الانسجام في العلاقات السياسية .

هـ ــ تعريف حديث للسلام :

السلام :

هو مجموعة ديناميكية لعلاقات التعايش والتعاون بين الامم وفي داخل الامم ، لا تتميز بغياب النزاعات المسلحة فحسب بل وباحترام القيم البشرية التي عبر عنها الاعلان العالمي لحقوق الانسان ، وبالرغبة في ان يؤمن لكل فرد اقصى ما يمكن من الرفاه .

الملحق رقم (٢)

طرق الانتقال من عالم السلام الى عالم الحرب
ومن عالم الحرب الى عالم السلام
بين عام ١٧٤٠ و ١٩٧٩

ملاحظات أولية :

١ ــ لكي نتعرف جيدا على قانون الحرب ، لا يكفي ان ندرس اسبابها وظواهرها وآثارها فحسب ، بل يجب ان نأخذها في فترتين متميزتين حيث يوجد بالفعل تغيير حقيقي للواقع القائم :

ــ فترة ولادتها : أي الانتقال من عالم السلام الى عالم الحرب .

ــ وفترة وفاتها : أي الانتقال من عالم الحرب الى عالم السلام .

وسوف ندرس بالتتالي الطرق المؤدية لهاتين الحالتين . وعلى الرغم من ان الانتقال الاول (اي الدخول بالحرب) اكثر تعقيدا من الانتقال الثاني (أي العودة للسلام) الا اننا سندرس اولا ولاسباب تاريخية طرق الدخول في الحرب (اللوحة ــ آ) قبل دراسة العودة للسلام (اللوحة ــ ب) .

٢ ــ بالنسبة لعلم الحرب : عندما تكون هناك حالة دخول في الحرب ، لا بد وان تتواجد دائما اسباب عديدة رئيسية تكون عادة على ثلاث مستويات :

ــ الاسباب الظاهرية (احداث ، صدامات ، مبررات ، تحريض ... الخ) المدروسة بشكل جيد .

ــ الاسباب والظروف المحيطة (السياسات الداخلية ، والخارجية ، والاقتصادية ، والعسكرية ، والاقليمية ، والدينية ، والايديولوجية ، والنفسانية ... الخ) المعروفة بشكل جيد .

ــ الاسباب البنيوية ، الاكثر عمقا ، والاكثر اهمية ، وغالبا ما تكون غير معروفة بالشكل اللازم والكافي .

والواقع ان العدوانية الجماعية وجراثيم الحرب ، تنمو في البنيات المختلفة (السكانية ، والاقتصادية ، والجغرافية والتاريخية والعقلية ... الخ).

ــ الاسباب الاخرى المختلفة : وهي موجودة بشحنات متفاوتة خاصة بكل حرب على حدة ، ويمكن تمييزها بحدود معينة .

ومن الواجب ان يتركز التحليل على ثلاث مستويات مع الانتباه الخاص للاسباب البنيوية التي تفلت عادة من المراقبة باعتبارها اكثر عمقا واشد تغييرا واقل بروزا .

٣ ــ ان طرق الدخول في الحرب تختلف تماما عن حتمية المسؤوليات فهذه شيء آخر . فالطرف الذي يبادر بالاعمال العدوانية والدخول بالحرب ، ويظهر كمعتدي ، قد يكون الطرف الرئيسي ، او

المسؤول الوحيد عن الحرب ، كما يمكن ايضا ان تكون مسؤوليته ثانوية ، او بدون مسؤولية اطلاقا .

وعلم الحرب الذي يدرس علميا « قانون الحرب » يتحاشى الوقوع في الانحياز بالنسبة لتحديد المسؤوليات . .

٤ ــ ولما كانت الحرب ظاهرة متعددة الاطراف في الزمان والمكان ، فإن طرق الدخول اليها متنوعة ومتعددة ، ويعتبر كل منها حدث تاريخي فريد . غير انه بالامكان استخلاص الطرق الرئيسية التي تتفرع عنها الطرق الخاصة .

٥ ــ ولهذا فاننا نأخذ بالمعايير التالية التي تستند الى مستويات النزاعات المقترحة في اللوحة (رقم ــ ٣) .

آ ــ الحروب الاجنبية (حيث تكون الاطراف المتحاربة دولا ذات سيادة ، ومستقلة ، وتتمتع بسلطات سياسية معترف بها) . او الحروب الداخلية (حيث يكون هناك عدد واحدا او اكثر في البداية ، وسلطة حكومية شرعية قائمة) مع او بدون تدخل اجنبي مسلح .

ب ــ حروب بين دول منظمة او بين دولة منظمة ومجموعة سياسية خارجية غير منظمة او بين جماعات سياسية غير حكومية .

جـ ــ الانتقال من السلم الى الحرب (لا بد وان تسبق كل نزاع متوسط او حرب ، نزاعات تحتية صغيرة) يمكن ان يتم عن طريق مرحلة وسيطة تكتنفها النزاعات الجزئية التي تنبىء بالحرب ، كما يمكن ان تتم بدون هذه المرحلة الوسيطة .

وفي الحالة الاولى تنشب « وكأنها في سماء صافية » ، وفي الحالة الثانية تنشب الحرب عندما تأخذ الاضطرابات المسلحة البدائية تسارعا عظيما لتصبح في حجم الحرب الحقيقية .

د ــ بدء الاعمال العدوانية من جانب واحد او بعد اعلان مسبق يدل على العدوان وبدء الاعمال الحربية ، وقد يتم ذلك بدون هذا الاعلان المسبق .

هـ ــ حرب تبدأ برغبة احد الاطراف ، او بالرضاء المتبادل من الطرفين ، كما كان الامر بالنسبة للمعارك في القرن السابع عشر والثامن عشر ، التي لا تتم الا بموافقة الطرفين المتخاصمين ، ومن ثم بالرغبة المنفردة من طرف واحد بعد ان اصبحت الحروب تجري بالفرق .

و ــ وفي حالة الحروب الداخلية تكون بداية العمليات العدوانية :

ــ بمبادهة السلطة الحكومية ضد جماعة داخلية معادية .

ــ او بمبادهة جماعة متمردة ضد الحكومة الشرعية .

ــ او في دولة ضعيفة من قبل فئة معينة ضد فئة اخرى من نفس الدولة .

٦ ــ ان التنسيق بين هذه المعايير الخمسة السابقة يشكل اللوحة التالية (لوحة آ) التي تحتوي على :

ــ الحقل الاول ــ (أ) : ويبين اصناف الحروب .

ــ الحقل الثاني ــ (ب) : ويبين طرق الدخول الى عالم الحرب .

ــ الحقل الثالث ــ (جـ) : يشير الى بعض الامثلة من كل طريقة مع شرح المقدمات واساليب الحرب ، وعلى سبيل المثال هناك

نموذجان من الفترة الواقعة بين عام ١٧٤٠ وعام ١٩٦٨ وامثلة اخرى عن الحروب الثلاثة عشر التي وقعت في الفترة ما بين ١٩٦٨ و ١٩٧٦ .

٧ ـ واللوحة ـ آ ـ تقتصر على « الطرق المختلفة للدخول في عالم الحرب » دون دراسة القوانين الهامة الاخرى للحرب ، والتي كانت موضوعا لدراسات عديدة سابقة قام بها المعهد الفرنسي لعلم الحرب وتتضمن :

ـ الاسباب .

ـ المبررات .

ـ استقلال او تبعية الحروب بين بعضها وفي هذه الحالة : اما عن طريق آثار العدوان او التتابع المباشر (كالحروب الاسرائيلية العربية الاربعة) ، واما بالعدوى القريبة نوعا ما (مثل دخول بلغاريا في الحرب العالمية الاولى ، وحرب لبنان عام ١٩٧٥ في سياق الحرب العربية الاسرائيلية) .

ـ الاشكال .

ب ـ النتائج والآثار والوظائف .

اللوحـة ـ آ ـ

طرق الأنتقال الى حالة الحرب بين عام ١٧٤٠ و ١٩٧٩

أنواع الحروب	طرق الانتقال من عالم السلام الى عالم الحرب	بعض الامثلة (خاصة خلال الفترة بين ١٩٦٨ ـ ١٩٧٩) المقدمات والوسائل
آ ـ حروب اجنبية : ١ ـ بين دول منظمة (مبارزة ثنائية او احلاف)، وحروب رئيسية متناظرة	١ ـ انتقال مفاجىء ومباشر دون انتقال مرحلي مسبوق بنزاعات جزئية بين الدول (صحيح انه يمكن ان تقع احداث وازمات واسباب وتهديدات بالحرب ولكن الحرب تنفجر وكأنها من سماء صافية ـ بدء الاعمال العدوانية من جانب واحد بعد	ـ الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) .

(آ)	(ب)	(جـ)
	اعلان مسبق (انذار علني ورسمي) — اما بواسطة انذار قطعي بدون اعلان حرب رسمي وقانوني) — واما بانذار قطعي ثم اعلان الحرب	— حادث سراجيفوا ٢٨ نيسان ١٩١٤ ـانذار النمسا لصربيا (٢٣ تموز) — اعلان النمسا الحرب على صربيا (٢٤ تموز) . — قصف بلغراد (٢٦ تموز)
	— واما باعلان الحرب بدون انذار قطعي	— انذار المانيا لروسيا وفرنسا (٣١ تموز) — اعلان المانيا الحرب على روسيا (١ آب) . — انذار المانيا لبلجيكا (٢ آب) — اعلان المانيا الحرب على فرنسا (٣ آب) . — غزو المانيا لبلجيكا (٣ آب) . — اعلان انكلترا الحرب على المانيا (٤ آب) — الغارة الفرنسية على الالزاس العليا (٨ آب) .

(آ)	(ب)	(جـ)
		ـ الهجوم العام الروسي في بروسيا الشرقية (١٧ آب) ـ معركة الحدود (١٩ ـ ٢٥ آب) ـ احتلال النمسا (بعد انذار هتلر القطعي) (آذار ١٩٣٨) .
	٢ ـ بدء الاعمال العدوانية من جانب واحد دون اعلان مسبق (دون انذار ودون اعلان حرب)	ـ حرب البوكسير (١٨٩٨ ـ ١٩٠٠) (الهجوم على البعثات الاوروبية في بكين) ـ احتلال البانيا (نيسان ١٩٣٩) ـ الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) ـ هتلر يجتاح بولونيا (١ ايلول ١٩٣٩) ـ وبالنتيجة انكلترا وفرنسا تعلنان الحرب على المانيا (٣ ايلول) ـ جرب كوريا (١٩٥٠ ـ ١٩٥٣) ـ الحرب العربية الاسرائيلية الثالثة (٥ حزيران ١٩٦٧ وحرب

(آ)	(ب)	(جـ)
		تشرين عام ۱۹۷۳) والهجوم الجوي ـ البري الاسرائيلي ـ الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة (٦ تشرين اول ۱۹۷۳) الهجوم المصري والهجوم السوري .
۲ ـ بين دولة منظمة وجماعات سياسية أجنبية لا تشكل دولا منظمة (حرب غير متناظرة)	۱ ـ بعد اعلان مسبق للحرب ۲ ـ بدون اعلان مسبق للحرب	
۳ ـ بين جماعات سياسية لا تشكل دولا منظمة (حروب صغيرة متناظرة)	۱ ـ بعد اعلان مسبق	ـ قبل عام ۱۷٤٠ (الحروب الاقطاعية بعد ارسال نذير بالحرب) ـ الحروب القبائلية : ـ في افريقيا ، وخاصة المغربية منها ـ في امريكا الشمالية (حروب الهنود الحمر) مع مراسلات متنوعة تدل على دخول الاطراف المتخاصمة بالحرب

(آ)	(ب)	(جـ)
	٢ـ دون اعلان مسبق	ـ يمكن ان تكون هذه الاعمال العدوانية مفاجئة
	٢ ـ الانتقال التدريجي وغير المباشر (مع مرحلة وسيطة بمراحل من النزاعات الصغيرة ، والتوترات ، والازمات ، وقيام عدد من المجابهات المسلحة الاقليمية التي تعتبر مقدمات للحرب)	ـ كانت هذه الطريقة نادرة جدا بالنسبة للحروب الخارجية مثال على ذلك : الغارات المتكررة من قبل الاساطيل الاسبانية والانكليزية في عام ١٥٨٨ (الارماد التي لا تغلب) ـ اغتيال ادوارد بوسكاون عام ١٧٥٩ قبل حرب السنوات السبع (الاميرال البريطاني) ـ تصاعد عمليات القراصنة البربر قبل حملة الجزائر (١٨٣٠)
ب ـ حروب داخلية (بدون او مع تدخل مسلح اجنبي لاحق) نوعان من الحالات : ١ ـ استمرارية (في حالة دول تحتل نفس الاراضي)	٣ ـ الانتقال المفاجىء والمباشر بدون مرحلة وسيطة ، وذلك بمرحلة نزاعات داخلية صغيرة (من المؤكد قيام أزمات واسباب وتهديد بحروب داخلية ، وبعد	

(آ)	(ب)	(جـ)
	الحرب الداخلية تنفجر في جو صاف	
٢ ـ متقطعة : في حالة اراضي غير متصلة بالوطن الام او حصار دولة ، مثل : حرب تصفية الاستعمار	١ ـ بدء الحرب من طرف واحد بعد اعلان مسبق (انذار علني ورسمي) ـ اما بقرار خطير (انفصال) ـ او بمجرد انذار قطعي ـ او بتحذير بسيط ثلاث حالات من الاعمال العدوانية : آ ـ بمبادهة من السلطة الحكومية .	ـ حرب كردستان الاولى (١٩٦١ ـ ١٩٧٠) ١٩٦١ ـ تراجعت حكومة بغداد عن الصلاحيات التي منحتها للاكراد . ـ حرب كردستان الثانية (آذار ١٩٧٤ ـ نيسان ١٩٧٥)

(آ)	(ب)	(جـ)
	ب ـ مبادهة من مجموعات مضادة للحكومة الشرعية جـ ـ مبادهة من الفصائل المتخاصمة في دولة ضعيفة جدا	١٩٧٤ : تراجعت حكومة بغداد عن الصلاحيات التي منحتها للاكراد في الاتفاقية التي انهت الحرب الاولى . ـ حرب الانفصال في الولايات المتحدة (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) ـ انتخاب لنكولن في كانون اول ١٨٦٠ ـ انفصال ولاية كارولينا الجنوبية (٢٠ كانون اول ١٨٦٠) ـ تشكيل حكومة اتحادية (٢٨ شباط ١٨٦١) ـ الحادث الذي اشعل نار الحرب : قضية قلعة سمر ، التي هاجمها الاتحاديون (نيسان ١٨٦١)
	٢ ـ بدء الاعمال العدوانية دون اعلان مسبق ثلاثة حالات من الحروب	

(آ)	(ب)	(ج)
	آ ـ بمبادهة من السلطة الحكومية .	ـ حرب السودان (١٩٥٥ ـ الى اذار ١٩٧٢) .
	ب ـ بمبادهة من الجماعة المضادة للحكومة	ـ حرب الجزائر (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢) ثم اعلان الحرب الثورية في ١ تشرين الثاني ١٩٥٤ ـ حرب غينيا ـ بيساو (١٩٦٢ ـ ١٠ ايلول ١٩٧٤) ـ حرب انغولا (١٩٦١ ـ ١٩٧٥) ـ حرب موزامبيق (١٩٦١ ـ ١٩٧٥) ـ حرب فيتنام (١٩٦١ ـ لغاية ٣٠ نيسان ١٩٧٥) ـ دخلت جبهة تحرير فيتنام ومؤيديها بالكفاح ضد السلطة المركزية في سايغون ـ التدخل الاجنبي يتزايد . ـ حرب قبرص (تموز ١٩٧٤) ـ انقلاب زمرة من اليونانيين ضد حكومة ماكاريوس

(آ)	(ب)	(جـ)
		ــ مجابهة بين عنصرين (يونان ، واتراك) ــ التدخل المسلح التركي
	٤ ــ انتقال متدرج غير مباشر (مع مرحلة وسيطة من النزاعات الداخلية والأزمات ، والتوتر ، ومجابهات مسلحة خلال عدة اشهر بمثابة مقدمات للحرب بدء العمليات الحربية من طرف واحد ــ بعد اعلان مسبق ــ بدون اعلان مسبق ثلاث حالات من بدء العمليات الحربية : آ ــ بمبادهة من السلطة الحكومية	ــ حرب باكستان ــ بانغلاديش تشرين ثاني ــ وكانون اول ١٩٧١) انفجرت الحرب كحرب اهلية قبل ان تتحول الى حرب خارجية ، كانون اول ١٩٧١ (بين الهند والباكستان)

(جـ)	(ب)	(آ)
ـــ مقدمات كانت تنذر بالحرب : من ١٩٦٨ لغاية اذار ١٩٧١ : ١ ـــ نزاعات صغيرة متصاعدة ٥٠٪ في الباكستان الشرقية و ٢٥٪ منها في عاصمتها داكار ، وخاصة مظاهرات ، وصدامات مع الشرطة ، ومذابح ٢ ـــ صدامات على الحدود الباكستانية ـــ الهندية ـــ حرب لبنان (١٩٧٥ ...) في سياق الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة كان لها مقدمات واضحة جدا ابتداء من عام ١٩٧٣ ، تزايد النزاعات التي اصبحت تمس لبنان : ١ نزاعات داخلية في لبنان : ٤ نزاعات متوسطة ١٩٦٨ ـــ ١٩٧١ ٨ نزاعات عام ١٩٧٢ ١٤ نزاع في ١٩٧٣ ١١ نزاع عام ١٩٧٤	ب ـــ بمبادهة مجموعة مضادة للسلطة	

(آ)	(ب)	(جـ)
	ملاحظة : ان ايرلندا التي عرفت منذ عام ١٩٦٩ مرحلة من النزاعات الصغيرة (الارهاب) لم تنزلق الى الحرب كما هي الحال في لبنان .	الاشكال : مجابهات بين جماعات مع مضاعفات وتدخل الفلسطينيين ، اختطاف اشخاص اغتيالات ، مذابح ٢ ــ نزاعات صغيرة بين اسرائيل ولبنان (وخاصة غارات اسرائيلية ضد قواعد الفلسطينيين) ، في عام ١٩٧٣ غارة واحدة (١٠) غارات في عام ١٩٧٤ و (٧) غارات في الأشهر الثلاثة الاولى من عام ١٩٧٥ .

ملاحظات حول اللوحة ــ آ ــ بين عام ١٧٤٠ و ١٩٧٩

١ ــ هناك فرق واضح بين الحروب الاجنبية والحروب الداخلية

آ ــ فالحروب الاجنبية تبدو غالبا بشكل مفاجىء ومباشر ، دون مرحلة وسيطة من النزاعات الجزئية بين الدول .

ب ــ أما الحروب الداخلية فتبدأ غالبا بشكل متدرج وغير مباشر

بعد مرحلة مسيقة من النزاعات الجزئية الداخلية التي تتكاثف وتتدهور فتتحول الى حرب .

٢ ــ هناك اختلاف واضح بين فترة ١٧٤٠ و ١٩٤٥ وفترة ١٩٤٥ ــ ١٩٧٩ للاسباب التالية :

آ ــ ففي الفترة الواقعة بين ١٧٤٠ و ١٩٤٥ كانت الحروب الاجنبية تبتدىء في اغلب الاحيان باعلان مسبق قبل بدء العمليات العدوانية (حالة الحربين العالميتين) . بينما لم تعد الحروب بعد ١٩٤٥ ، يسبقها اعلان للحرب (مثل حرب كوريا ١٩٥٠ ، والحروب العربية الاسرائيلية ..) . وكان الدخول في الحرب يتم مباشرة وبشكل مفاجىء ، نظرا لاهمية المبادرة الجوية .

ومن الملاحظ هنا ان تطور التقنيات والعقليات ادى الى تراجع (تدهور) في الحقوق الدولية .

ب ــ اما الحروب الداخلية فكانت تبدأ اغلب الاحيان دون اعلان مسبق (في الفترة ١٧٤٠ ــ ١٩٤٥ وفي الفترة التي تلت عام ١٩٤٥) .

٣ ــ اما ما يتعلق بالحروب الداخلية فقد كانت انواع المبادهات الممكنة الثلاثة موجودة (السلطة الحكومية ، مجموعة مضادة للحكومة ، فصيلة ضد فصيلة اخرى في نفس الدولة) ، وخاصة منها ، المبادهة الثانية : التمرد الصريح المكشوف او بدء الثورة من قبل مجموعة مضادة للحكومة) :

اللوحــة ــ ب ــ

اساليب ايقاف الحروب منذ عام ١٧٤٠ حتى عام ١٩٧٩.

النهايــة	الطـرق والنتــائج	أمثلة خصوصاً في الفترة ١٨٦٨ ــ ١٩٧٩
(آ)	(ب)	(جـ)
١ ــ نهاية عسكرية (عملياته او تموينية اداريــــــــة) (لوجيستيكية)	ــ احد الاطراف يربحها عسكريا (وغالبا ما يكون ذلك بسرعة) على الطرف الآخر	ــ الحرب النمساوية البروسية (١٨٦٦) ــ حرب بيافرا (١٩٦٧ ــ ١٩٧٠) ــ حرب بنغلاديش (مع تدخل خارجي) ١٩٧٤
	ــ العنف المتنازل لاحد الاطراف بغرض السلم : ــ في البداية وقف اطلاق النار على احد الجبهات ــ احتمال توقيع هدنة ــ ومن ثم معاهدة سلام بالتفاوض تحت ضغط المنتصر (باستثناء الفترة التي تلت ١٩٤٥)	ــ حرب كردستــان الاولى (١٩٧٤ ــ ١٩٧٥) ١ ــ الحرب العالمية الاولى ١٩١٨ ومعاهــدة فرساي (١٩١٩) ٢ ــ الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) ٣ ــ الحرب الاسبانيــة (١٩٣٦ ــ ١٩٣٩)

(آ)	(ب)	(جـ)
	ــ احيانا استسلام بدون شروط ــ واحيانا ازالة المعسكر المعادي	
٢ ــ نهاية نفسانية (سيكولوجية)	احد الاطراف ينهار معنويا (بصورة عامة تنهار الجبهة الداخلية ، واحيانا الجبهة العملياتية) وعندها يقوم سلام بالقوة	ــ روسيا (معاهدة برست ــ نيتوفيسلك ، اذار ١٩١٨ ــ حرب فيتنام (١٩٦٠ ــ ١٩٧٥)
٣ ــ نهاية سياسية ١ ــ الحالة الاولى : بمبادهة عسكرية من طرف واحد	ــ احد الأطراف يعيد النظر بالوضع السياسي ــ العسكري بعد سنوات من الحرب فيستسلم (لاغراض سياسية واحيانا بسبب الشعور بالانهاك والملل) ويقبل حلا سياسيا ، يوافق عليه الطرف الثاني . ويكون نتيجة ذلك :	ــ حرب غينيا ــ بيساو (١٩٦٢ ــ ١٩٧٤) ــ حرب موزامبيق (١٩٦٥ ــ ١٩٧٥) ــ حرب انغولا (قبل الحرب الاهلية) ١٩٦١ ــ ١٩٧٥

(آ)	(ب)	(جـ)
	— اتفاق لوقف اطلاق النار — اتفاق مبني على التفاوض — احتمال معاهدة سلام (نادرة)	
٢ — الحالة الثانية : بسبب العجز العسكري المتبادل بين الطرفين	— لم يصل اي من الطرفين الى النصر الحاسم : — اما بسبب العجز بالعمليات — او بسبب الانهاك بالتموين (اللوميتيتيك) — او بسبب الملل والنزيف — او بسبب تعاون هذه العوامل الثلاث	— حرب ولاية العرش في النمسا (١٧٤٠ — ١٧٤٨) — الحرب الهندية — الباكستانية الثانية (١٩٥٦ — ١٩٦٦) — حرب السودان (١٩٥٥ — ١٩٧٢)
	وهكذا تنشأ :	— حرب كوريا (١٩٥٠ — ١٩٥٣)

أ	ب	ج
	ـ حالة من الأمر الواقع (١) ـ او مفاوضات ثنائية بين المعسكرين ـ إو تدخل عسكري لطرف ثالث او لمنظمة دولية ـ أو وساطة ، مكرهة للطرفين الى حد ما ، من طرف ثالث او من منظمة دولية.	ـ الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ١٩٧٣. ـ الحرب الكردية العراقية الاولى (١٩٦١ ــ ١٩٧٠) ـ حرب الكونغو ــ كينشاسا (١٩٦٠ ــ ١٩٦٦) ـ الحرب الروسية ــ اليابانية (١٩٠٤ ــ ١٩٠٥)
٤ ـ نهاية اجتماعية	ـ نتيجة انهاك احد الطرفين (او كلاهما) ـ نتيجة ابادة او مذبحة احد الطرفين	ـ حرب باراغواي (١٨٦٤ ــ ١٨٧٠) ـ حرب ارمينيا (١٩١٥ ــ ١٩١٨)

ملاحظة ١ : في بداية عام ١٩٨٠ ، لم يعد ممكنا معرفة النهاية ، او النتائج التي ستترتب على الحرب اللبنانية (التي نشبت عام ١٩٧٥ ...).

(١) منذ عام ١٩٤٥ اخذت حالة جديدة هي « حالة اللاحرب واللاسلم ».

ملاحظة ٢ : من بين المؤشرات التي تنذر بنهاية حرب ما ، هو عدم الاستقرار الداخلي لاحد اطراف النزاع ...

الملحــق رقم (٣)

بعض تعاريف المصطلحات

الحضارة والثقافــة:

١ ـــ موسوعة لاروس الكبرى (١٩٦٠) :

آ ـــ الحضارة : مجموعة من الصفات الخاصة بالحياة الفكرية ، والفنية والاخلاقية او المادية لبلد او لمجتمع ما .

(حضارة الانكا . حيث توجد بعض الادوات المنزلية المتنوعة التي عثر عليها في المقابر الكبرى لهذه الحضارة الضخمة (وهذا ينطبق على الحضارة المصرية) (غوتييه) .

اما تعرف الحضارة : فهو اولا صياغة التاريخ بكلمات حديثة في لغتنا الدارجة . وقد نشأ ذلك في عصر الانوار في اواسط القرن الثامن عشر ...

وتعريف الحضارات : هو استكشاف طرائق البشرح

الكبرى التي تدعي أخذ المصير البائد للحضارات بعين الاعتبار ، في الامس وفي اليوم الحاضر .

ان « المفهوم العرقي للحضارة » ، يعترف لكل مجموعة بشرية ، ولكل مجتمع ، بحضارته القديمة .. مهما كانت غنية او فقيرة ، والبشر الذين يرجعون لعصور ما قبل التاريخ ، والانكا ، والاغريق الذين عاصروا بيركليس ، والشعوب البربرية ، وشعوب الصين والفرس ، كان لكل منهم حضارته .

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر ، درج العلماء على استعمال هذا التعدد العرقي .

أما وصف حضارة شعب ما ، فهو بالنسبة الينا ، استعراض حياته الثقافية بكل تأكيد ، وكذلك السياق الاجتماعي ـــ الاقتصادي والسياسي الذي تطور فيه هذا الشعب .

وان صعوبة تعقيد الآثار ، والرفض ، والعطاءات ، وعدم الاستمرارية الظاهرية والواقعية ، تفرض علينا استخدام مفهوم الدول ، في داخل الحضارات لمدد طويلة احيانا ، ورفض كل نوع من المقارنة او المجابهة الشاملة التي تدعي اخذ التطور الانساني على كاهلها ..

(وفي كل الحالات) هناك حضارة عالمية في طريقها للنشوء ، وقد اخذ البعض بعض التدابير من اجل هذا التوحيد بشكل قاطع ، واهملوا قوة المقاومة التي تمثلها التقاليد الوطنية ، والحواجز اللغوية ، والفوارق التي يفرضها الاقتصاد ، والبنيات الاجتماعية والعواطف الدينية ...

ولكن مع ذلك ، من لا يرى عودة ظهور ، حضارة عالمية ، ، تحت هذا الشعار او هذا الطموح ، الذي تميز فيه الايمان في القرن الثامن عشر ؟ .

ب ــ « الثقافة » هي :

ــ الفعل او الطريقة التي تزرع فيها الارض او بعض النباتات .

ــ فن استثمار بعض المنتجات الطبيعية .

ــ شكل خاص للمعرفة ، للفكر : الثقافة الكلاسيكية .

ــ دعم فكري وروحي : الثقافة الاغريقية ــ اللاتينية .

٢ ــ مصطلح تقني ونقدي للفلسفة : بقلم : اندريه لالاند (الصحافة الجامعية الفرنسية ١٩٦٨) :

الحضـــارة :

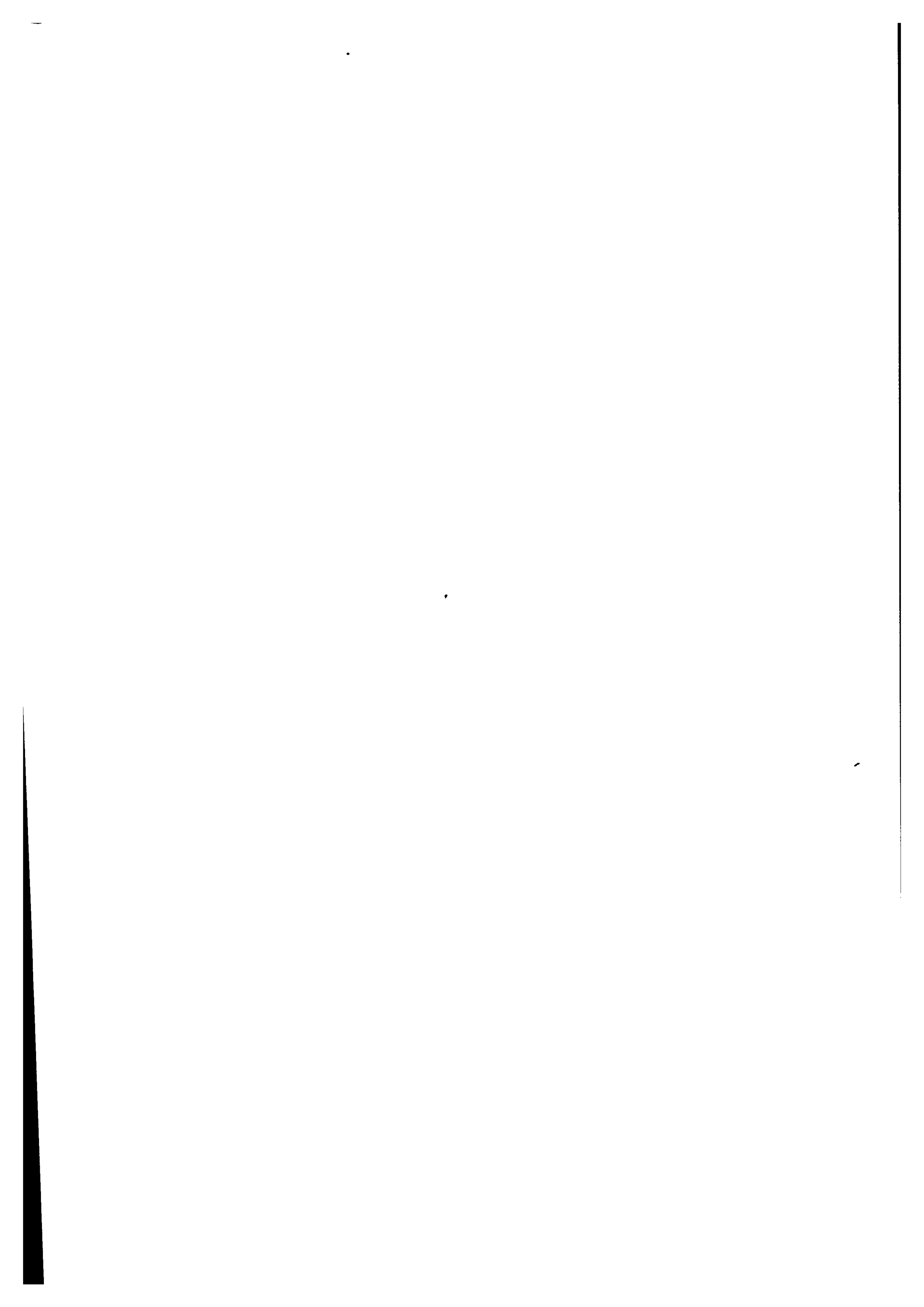
آ ــ الحضارة : مجموع مركب من القوانين الاجتماعية ، ذات

طبيعة قابلة للانتقال ، تمثل صفة دينية ، واخلاقية وجمالية ، وتقنية او علمية ومشتركة لجميع اجزاء مجتمع واسع ، او عدة مجتمعات متصلة ببعضها (الحضارة الصينية مثلا) .

المجال الحضاري : مساحة جغرافية تقوم عليها حضارة ما .

طبقات حضارية : تقال مبدئيا عن الطبقات المادية المتوضعة فوق بعضها ، والتي تظهر ، خلال التنقيب عن الآثار ، بقايا الحضارات المتعاقبة ، وهي تطبق بشكل عام ، على الحضارات التي تعاقبت الواحدة تلو الاخرى في نفس المجال الجغرافي .

ب ــ والحضارة ، تستدعي ايضا ، في نطاق واسع جدا ، الفكرة القائلة ان الانسانية تتجه لتصبح اكثر حدة واكثر تشابها في مختلف اجزائها .



الفهرس

الموضـــوع	الصفحة

الفصـل الأول

الفصـل الثاني

الفصـل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصـــل الثاني عشر

الفصـــل الثالث عشر

الفصـــل الرابع عشر

الفصـــل الخامس عشر

الفصـــل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الملحــق رقــم (١)

الملحــق رقم (٢)

اللوحــة رقم (آ)

اللوحــة (ب)

الملحـق رقم (٣)

جدول الخطأ والصواب

رقم		الخطأ	الصواب
الصفحة	السطر		
١٠	٥	بخطواتها	بخطوطها
١٥	١٠	ومتبيناً	ومتبايناً
١٦	٧	لتحمل	لتحل
٣٢	٩	مطلع الثمانيات	مطلع الثمانينات
٣٧	١	تدفق	تدفن
٤١	٨	بعلم الحيوانات	بعلم الأحياء
٥٠	٤	يستعيد	يعود
٥٤	٩	تصنيف مرضي	تصنيف مرضٍ
٨٣	٤ من الهامش	رجل دول	رجل دولة
٩٣	٩	القبائل الاسرائيلية	الأسباط
١١٠	٤	التينان	التنّينات
١١١	١١	وكرام للقوس	إكراماً للقوس
١١٦	الهامش	مقطاعات	مقاطعات
١١٩	١٠	كان المقاتلين	كان المقاتلون
١٢٠	اخر الهامش	أرض المعياد	أرض الميعاد

رقم		الخطأ	الصواب
الصفحة	السطر		
١٢٨	١	الأزمة	الأزمنة
١٣٠	الأخير	قامات مدنية	قامات مديدة
١٤٠	٤	أن يدخوا	أن يدخلوا
١٥٤	٧	شهدت الجيوش	شوهدت الجيوش
١٥٥	٣ الهامش	كان الباحثين مقتنعون	كان الباحثون مقتنعين
١٥٦	٥	من الصليبيين والعرب	بين الصليبيين والعرب
١٦٠	٢	حطوط	خطوط
١٧٤	١ الهامش	السنقور	السنتور
١٨٢	١	لم يتوقف	لم يُوقفْ
١٨٨	١	والرساميين	والرسامين
١٩٤	١١	الخليج العربي ــ الفارسي	الخليج العربي
٢٢١	٩	من ابابا	من البابا
٢٢٣	آخر الحاشية	البابا انوسفت	البابا انوسنت
٢٢٥	٨	أشياء ثمينة جداً	رموز مقدسة جداً
٢٣٠	٢	ورائة	وراثة
٢٤٦	الأخير	أيها المخترعات	أيتها المخترعات
٢٥٣	٢	الأحازيز	الحلزنة
٢٧٠	٧	الأقدميين	الأقدمين
٢٨٠	الهامش	يسبقها إليه	يسبقه إليها
٢٩٧	٨	هذه الجذر	هذه الجزر

رقم		الخطأ	الصواب
الصفحة	السطر		
٢٩٩	٣	قبل ذلك مع القارة	قبل ذلك على اتصال مع القارة
٣٠٦	٣	و يلليفتون	و يللينغتون
٣٠٦	٨	المنارات	المناورات
٣٢٠	١	- الذي استخدم	الصمغ الذي أُستخدم
٣٣٥	١	وبملا	وبما
٣٣٥	٨	الاحيان ،حول	الأحيان تتشكل حول
٣٧١	٨	ايجاد شكلًا	ايجاد شكل
٤٠١	١	العظيمتين	العظميين
٤٧٦	٣	عملياته	عملياتية
٤٨٠	١٠	اما تعرف	أما تعريف



هـذا الكتاب

○ يعالج ظاهرة الحرب الّتي عرفتها البشريّة واكتوت بنارها مُنذ نشوء الإنسان وحتّى يومنا هذا ، معالجةً علميّةً موضوعيّةً ، يبرز من خلالها التفاعل بين الحُروب والحضارات ومدى تأثر كلّ منها بالأخرى ..

○ لاشكّ في أنّ جميعَ الحضارات البائدة قد دمّرتها الحُروب . فكما أنّ الحربَ تعتبر الإبنة القاتلة للحضارة ، فهي في الوقت نفسه مُرضعتها ، وإنّ الحضارة التي لاتدافع عن نفسها في خضمّ هذا الصّراع الدّائم لايمكن أن تحيى ، بل إنّها لاتستحق الحياة .

○ يأتي الكتاب واحداً من سلسلة منشورات المؤسّسة الفرنسيّة لدراسات الدّفاع الوطني (ملحق العدد ٤ – الفصل الرّابع لعام ١٩٧٩) قام بوضعه كل من : « غاستون بوتول ، ورينيه كارير ، وجان لويس أنوكان » وهم من المعهد الفرنسيّ لِعلم الحرب .

